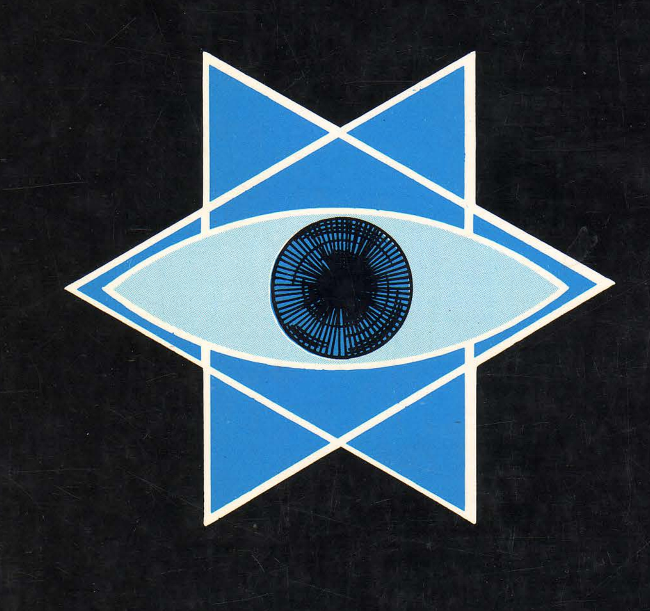


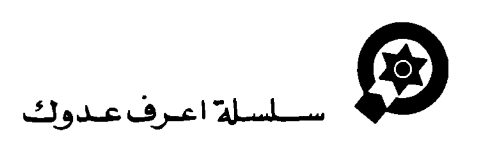


الموساد

جهاز المخابرات الإسرائيلية السرّي

دينيس ايزنبرغ
ايلي لاندو
اوري دان





دينيس ايزنبرغ
ايلي لاندو
اوري دان

الموساد

جهاز المخابرات الإسرائيلية السرّي

ترجمة عن النص العبري

المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت
دار الجليل للنشر - عمّان

البــــاب الأول

«نشــــوء المــوســاد»

«سوف يشهد المستقبل طائفة من الأمم الصغيرة والمستقلة، تكون المعرفة خط الدفاع الأول فيها».

كان الرجل الذي كتب هذه العبارة وهو تشارلز بورتيوس شتاينميتس عالماً يهودياً من مواليد ألمانيا، وقد أدى العناء الذي الحقته به السلطات الألمانية، لمعتقداته ونشاطاته الاشتراكية الى رحيله للولايات المتحدة، حيث أصاب نجاحاً باهراً في ميدان الهندسة الكهربائية. وفي هذه الأيام يذكره الناس للأبحاث المهمة التي قام بها في ذلك الميدان.

على أن من اليسير القول بأن هذا الرجل يتصف بما يتصف به الأنبياء، ذلك أن التوقع المذكور آنفاً يلخص في دقةمدهشةالوضع الذي وجدت فيه (اسرائيل) نفسها منذ أيامها الأولى. وهي تعتمد في قوتها العسكرية على معرفتها الشاملة الدقيقة لنشاطات اعدائها اكثر مما تعتمد على المدافع والطائرات والمراكب البحرية المقاتلة السريعة.

ان نظرة الى خارطة الشرق الأوسط ستوضح على الفور ضرورة هذا الأمر.

ففي الشمال والجنوب والشرق تحيط « بإسرائيل » أمم معادية لها ، وعند قيام (الدولة) أعربت خمس من هذه الأمم وهي سوريا ومصر والعراق والأردن ولبنان عن معارضتها حق (اسرائيل) في الوجود ، وتبلغ مساحة اراضي هذه الأمم مع ليبيا واليمن الجنوبي اللتين تتبنيان موقفاً شديد العداء (لاسرائيل)حوالى خمسين ضعفاً من مساحة ارض(اسرائيل)- تعتمد هذه الأرقام على حدود ما بعد ١٩٦٧ - كما أن عدد سكان تلك البلدان يبلغ عشرين ضعفاً من سكان (اسرائيل) . وقد حظيت هذه الأمم بالتسليح والإرشاد من قبل حلفاء متعاطفين مع أهدافها ، وبالرغم من أن العلاقات قد تحسنت بعض الشيء ، إلا أنها ما زالت تمثل خطراً دائماً على بقاء (اسرائيل) .

وفضلاً عن ذلك كله، لا يقوم اعداء(اسرائيل)بمهاجمتها بالطرق التقليدية دائماً،فالنشاطات الموجهة الى المواطنين(العزل)كالعملية التي نفذت في الألعاب الأولمبية بميونيخ في عام ١٩٧٢،أو

عملية الاختطاف التي انتهت نهاية درامية في مطار عنتيبي، ليست ما يستطاع مكافحته بقوة العسكرية وحدها.

ولم يكن بوسع (مؤسسي دولة اسرائيل) التنبؤ بالمخاطر المتنوعة التي سوف تتعرض لها أمتهم في المستقبل، ولكنهم عرفوا منذ البدء، وحتى ايام الفوضى في اثناء حرب (الاستقلال)، ضرورة الحفاظ على استخبارات قوية وفعالة، وينبغي أن يكون جهاز الاستخبارات المذكور صغيراً في موارده البشرية والمالية، (فإسرائيل) واحدة من البلدان الصغيرة، وعلى هذا الجهاز أن يعمل في سرية، وأن يكون مسؤولاً أمام رئيس الوزراء، وأن يعمل على نحو يضمن مساندة الجمهور له، ولا يصح له أن يأخذ على عاتقه تنفيذ القانون دون قيود وضمانات دقيقة.

وعليه فوق كل شيء أن يكون كفؤاً لأفضل تنظيمات الاستخبارات في العالم، لأن بقاء (اسرائيل) ذاتها يعتمد عليه ، ولذلك اهتم دافيد بن غوريون، حتى في أيام (الاستقلال) الأولى بإنشاء مصلحة الاستخبارات (الاسرائيلية) واستطاع في اطار المؤسسات الموروثة من الأيام التي سبقت (الاستقلال) ان ينشىء خمسة فروع كبرى للاستخبارات (الاسرائيلية) . كان احد فروع الاستخبارات هذه فرع « شاي » وهو القسم التابع « للهاغاناه » ، وهي الجيش السري الذي أقامه المستوطنون اليهود في فلسطين . وحتى بعد اندماج الهاغاناه في الجيش (الاسرائيلي) الرسمي بقيت استخبارات « شاي » تقوم بجمع المعلومات وتحليلها دون تغيير في طبيعتها .

أما الفرع الثاني فكان فرع «ش. ب.» الذي كان مسؤولاً بصفة رسمية عن الأمن الداخلي، وكان الفرع الثالث هو «علياه بيت» الذي أقيم في عهد الانتداب البريطاني لتهريب المهاجرين غير الشرعيين الى فلسطين، وبعد الاستقلال حولت استخبارات «علياه بيت» اهتمامها الى مساعدة اليهود على الفرار من الدول العربية المعادية (لإسرائيل) .

وأخذت وزارة الخارجية(الاسرائيلية) على عاتقها إقامةفرع رابع للإستخبارات، كانت غايته الوحيدة عقد الصلات مع موظفي الاستخبارات في البلدان الأخرى، وقد اقتصر اهتمام فرع خامس من فروع الاستخبارات على شؤون البوليس.

وفي السنوات التي اعقبت حرب عام ١٩٤٨، كانت فروع الاستخبارات الخمسة هذه تؤلف جماعةالاستخبارات (الاسرائيلية) بأسرها. وقد كانت نهباً للفوضى مثلها مثل كثير من جوانب الحياة (الاسرائيلية) في تلك الأيام ، ولم يكن للمسؤولية عندئذٍ تحديد مطلق ولا كانت للعمل خطوط إرشاد واضحة المعالم ، بل كان على كل من يتصل بهذه الأمور تلمس طريقه بأفضل ما يقدر عليه ، ومما زاد الأمور تعقيداً قيام قدر من المنافسة والحسد بين فروع الاستخبارات المختلفة آنذاك .

وفي عام ١٩٥١ ، أخذ بن غوريون على عاتقه تخفيف حدة الفوضى السائدة وذلك بإعادة تنظيم الاستخبارات وتعزيزها أما «علياه بيت» وقوة استخبارات البوليس فبقيتا دون تغيير وحافظتا على ميدان مسؤوليتهما المحدودة، كما كان عليه حاله من قبل وكذلك احتفظت استخبارات «ش . ب . » بدورها في السهر على الأمن الداخلي.

وأما سائر المسؤوليات الأخرى فقد جرى تقسيمها بين منظمتين كبيرتين كانت احداهما فرعاً للاستخبارات العسكرية اطلق عليها اسم «أمان» في بعض الاحيان، وكان اهتمام هذا الفرع يقتصر على الأمور ذات الأهمية العسكرية، في جمع المعلومات من حيث الاساس، وكان عليه ايضاً العمل في اتصال وثيق مع القوات المسلحة.

واعطيت للفرع الكبير الاخير من فروع الاستخبارات مسؤوليات أقل تحديداً وأكثر تنوعاً وأوسع مدى من سائر الفروع الأخرى، وقد أطلق عليه لقب «الموساد» الذي يختصر تعبير «مؤسسة الاستخبارات والمهام الخاصة» وغاية «الموساد» الاساسية هي جمع المعلومات من الخارج وتحليلها وذلك في أي ميدان قد تكون (لإسرائيل) مصلحة ما فيه.

بيد أن بن غوريون الذي اشتهر بمعرفته الفائقة في شؤون الاستخبارات عامة، كان على علم بأن تنفيذ الموساد للمهام الملقاة على عاتقه سيؤدي به الى مزاولة جمهرة من النشاطات الحافلة بالأخطار والمصاعب. ولهذا السبب ادخل بن غوريون تعبير «المهام الخاصة» في عنوان الموساد الرسمي . ومن شأن الموساد أن يستدعى للقيام بأية عمليات غير عادية، تقع في خارج ميدان عمل اجهزة الحكومة الأخرى سواء أكانت عسكرية أم مدنية. لقد عرف بن غوريون أن الموساد سيكون اثمن الاسلحة التي تمتلكها (اسرائيل) في نضالها من أجل البقاء.

واليوم، وبعد ثلاثين سنة من قيام الموساد، اعتبرته مجلة «تايم» واحدة من أفضل اربع وكالات للاستخبارات في العالم، واضعة إياه في مصاف الاستخبارات السوفياتية «ك . ج . ب . » والاستخبارات الامريكية «سي . آي . ايه» والاستخبارات الانكليزية، «دي ١٦» وهي استخبارات تفوق الاستخبارات (الاسرائيلية) عدديا وماليا.

وقد عرف الموساد في فترة حياته القصيرة انتصارات وانكسارات، ومما يثير السخرية، ان المناسبات التي اخفق فيها الموساد هي المناسبات التي تلفت الانتباه اكثر من سواها، وعلى سبيل المثال، أخطأ فريق الموساد الذي أوكل إليه في عام ١٩٧٣ القضاء على المسؤولين عن الهجوم في الألعاب الأولمبية بمدينة ميونيخ، وضل سبيله في القيام بمهمته، فقتل الشخص غير المقصود، وأدى الاهمال الى تمكين البوليس من القبض على اعضاء الفريق، وقد اجتذبت هذه العملية الطائشة اهتماماً عالمياً واكسبت الموساد شهرة اعلامية ملحوظة.

ويعمل الموساد كل ما في وسعه لتجنب مثل تلك الشهرة الاعلامية، وفي الحق أن معظم مهماته، وإن كانت في مستوى خطورة ما يدعى عمليات «الفريق الضارب» أو أعظم منها خطراً، تدور حول اعمال الاستخبارات الأصيلة، وإنما يمكن تنفيذ هذه العمليات كما يعترف الموساد نفسه، في ظروف السرية التامة.

ويقوم الموساد، حسب القاعدة التي وضعها أيسر هرئيل الذي بقي رئيساً للموساد ردحاً طويلاً من الزمن، يقوم بتجنيد اعضائه من بين الاشخاص الذين تحركهم دوافع وطنية ومثالية قوية التأثير، وهو يتفادى بذلك تحويل الأشخاص غير العاديين الذين يعملون فيه الى ابطال، وذلك أن غاية الموساد الوحيدة، كما يتعلم كل رجل مباحث فيه، هي توفير الحماية لدولة (اسرائيل).

أيســـر وأيســـر

في الأول من تموز ١٩٤٨، وقبل إنشاء الموساد بثلاث سنوات، وقع حادث ذو أهمية اساسية من حيث صلته بالمستقبل، وذلك في قرية بيت جيز العربية الصغيرة، الواقعة على طريق القدس- تل أبيب، حيث وقف القرويون القلائل، ومعظمهم من الأطفال والشيوخ والنساء ممن بقوا هناك رغم القتال الضاري الذي دار في الأسابيع الماضية، وقفوا يراقبون المشهد الدائر في دهشة بالغة.

هناك ، في حقل كثير الحجارة، وقف اسير مصفد قبالة شجرة زيتون يبلغ عمرها أربعة قرون وكان من الواضح أن ذلك الاسير يهودي . ومن دونه كان ستة رجال مسلحين يقفون في خط متعرج مع أحدهم بندقية مما يستعمل الجيش الانكليزي، ومع آخر رشاش تشيكي، ومع اثنين آخرين قطعتا سلاح أكل عليهما الدهر وشرب، كانتا قد رأتا النور في المانيا قبيل الحرب العالمية الأولى، وكان بعض الجنود يرتدي ملابس الخاكي المرقعة، وبعضهم يرتدي معاطف رياضية، وكان واحد منهم يلبس ما يصفه في اعتزاز بانه أنوراك- اي سترة فراء ذات قلنسوة- مما يستعملها المتزلجون على الجليد في روسيا.

وكان هذا الخليط الغريب من الجنود يتألف من عناصر «تساهال» أي (جيش الدفاع الاسرائيلي)الذي تكون منذ وقت قريب.

ولم يجد قرويو بيت جيز شيئاً من الغرابة في رؤ ية الجنود المسلحين . فقد أثار اعلان (اسرائيل) عن قيام (الدولة) قبل أسابيع قليلة فقط ، أي في ١٤ أيار ، أثار حرباً مريرة بين

(الأمة الجديدة) وبين الجيوش التي قدمت من الأردن وسوريا والعراق ومصر ولبنان ، وفي ذلك القتال اشترك القرويون ورجال (العصابات الفلسطينيون) [كذا] .

وفي ١١ حزيران اعلن عن قيام وقف اطلاق النار، ولكنه لم يكن في واقع الأمر سوى فترة استراحة قصيرة الأمد،فقد كانت الجيوش العربية تعيد تجميع قواها،وكانت(اسرائيل)بقيادة بن غوريون تحاول تنظيم نفسها كذلك، وكانت الأسلحة والتزويدات والمهاجرون الجدد ومنهم عدد كبير من الذين نجوا من الموت في معسكرات الاعتقال، كان ذلك كله يتدفق الى داخل البلاد، وأخذت قوى التنظيمات السرية المختلفة ينضم بعضها الى بعض في جيش واحد بالرغم من معارضة بعض العناصر فيها.

على أن القتال في التلال التي تكتنف طريق القدس- تل ابيب لم يتوقف البتة، وبعد معارك من أشد ما عرفت تلك الحرب ضراوة تحركت قوافل من العربات المصفحة المرتجلة متحدية الاخطار من تل ابيب الى القدس لنقل المؤن والأسلحة الى المدافعين المحاصرين في ذلك القسم من المدينة الذي ما زال في أيدي اليهود.

وكانت قوات العرب، المتمركزة في التلال المهيمنة على الطريق تصب نيرانها بدون هوادة كلما حاولت قافلة التموينات أن تشق طريقها الى الأمام . وفي محاولة للالتفاف حول المهاجمين قامت جماعات من الجنود اليهود بمحاربة القرويين العرب المسلحين في التلال، وكان صوت اطلاق النار ما يزال يسمع في كل مكان.

أما هنا في اطلال قرية بيت جيز فكانت زمرة من اليهود على وشك تنفيذ حكم الاعدام بأحد ابناء وطنهم.

وكان ضابط ذو رتبة عالية قد وصل قبل ساعة، وطلب من القائد المحلي أن يعد فريق اطلاق النار لتنفيذ حكم الاعدام في احد الخونة. وعندئذٍ اوقفت عمليات تطهير المنطقة وتم اختيار ستة رجال، طلب اثنان منهم اعفاءهما من المهمة فحل محلهما آخران .

والآن في ذلك الحقل الصخري القاحل ، وقف منفذو حكم الاعدام المكرهون في مواجهة الكابتن مئير توربيانسكي .

وأصيب العشرات من رجال «تساهال» الذين كانوا يراقبون ذلك المشهد بذهول لحظي، ومن جماعة الى اخرى ترددت صيحة واهية تنم عن الإنكار: انظروا ما الذي يفعلونه بيهودي خائن؟ كانت قلوبهم مفعمة بالكآبة ، اذ ان توربيانسكي يهودي من ظهرانيهم سواء أكان خائناً أم لم يكن .وهوقد خدم فترة طويلة خدمة حسنة في الهاغاناه. وعندما صوب فريق اطلاق النار الاسلحة اليه بدا ان خدمته تلك لم تغن عنه شيئاً، وخيم السكون على المشاهدين من عرب ويهود آنذاك .

الباب الثاني
أيسر هرئيل

كان ايسر ناجحاً في عمله وقد اختاره المسؤولون عنه للترقية، وسرعان ما اصبح قائد مجموعته، ثم اصبح قائد منظمة «شاي» في منطقة تل أبيب بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وبقي محتفظاً بهذا المركز سنوات عديدة بعد ذلك.

وفي هذه الفترة ذاتها اصبح أيسر يدعى «ايسر الصغير» وكان طوله هو العقبة الواضحة في اكتسابه هذا اللقب، بيد ان سبباً آخر، اهم من ذلك، كان يكمن وراء هذه التسمية، وهو الحاجة الى التمييز بينه وبين ايسر الآخر. فقد كان كلا الرجلين يحظى بالشهرة في الدوائر نفسها. واصبح الخلط بينهما مشكلة يواجهها قادة الاستخبارات والعسكريين اذ يتداولون الأحاديث فيما بينهم. وقد عمل «ايسر الصغير» بشجاعة واجتهاد في الفترة التي انقضت بين الحرب العالمية الثانية ونشوب الحرب العربية الاسرائيلية. وكان ثابتاً في وفائه واخلاصه لبن غوريون الذي كان أيسر يعبده عبادة مطلقة، فلا غرو اذن أن يتوقع بعد الفضيحة التي حلت بأيسر بثيري في كانون الأول ١٩٤٨ حلوله محله رئيساً لتنظيم «شاي».

بيد أن رجلاً آخر قد حظي بهذا المنصب، وهو ضابط بولندي المولد يدعى حاييم هرتسوغ، وكان على ايسر الرضى والقناعة بمنصب امرة الفرع الكبير الثاني في الاستخبارات وهو فرع ش. ب. المسؤول عن الأمن الداخلي.

وعمل أيسر في منصبه الجديد بما عرف عنه من جد واجتهاد، ولكنه كان اكثر كبرياء وطموحاً من أن يقنع بهذا المركز طويلاً فما كاد بن غوريون يعيد تنظيم جهاز الاستخبارات الاسرائيلي، حتى بدأ ايسر الصغير حملة فردية للفوز بالسيطرة الكاملة على ذلك الجهاز.

وقد أتت حملته ثمارها بشكل لا يصدق، فقد استطاع في أقل من سنة، ان يقنع رئيس الموساد بالاستقالة، وبعد خمسة اشهر من ذلك حل أيسر محله ولم ينقض وقت طويل حتى استحوذ على فرع «علياه بيت» الذي ما يزال فعالاً، وسرعان ما اصبح رئيساً للجنة خدمات الأمن المسؤولة عن مراقبة نشاطات مختلف فروع الأمن. . .

اصبح ايسر الآن المهيمن على اجهزة الاستخبارات الاسرائيلية.

وانقضى اكثر من عقد من الزمان وهو يدير عمليات الاستخبارات منفرداً، وكان من الناحية العملية، بصفته مسؤولاً أمام بن غوريون وحده، الرجل القوي الثاني في اسرائيل.

وقد سيطرت وساوس السرية على ايسر منذ الأيام التي كان فيها قائداً لمنظمة «شاي» في منطقة تل أبيب. وبعد الحرب العالمية الثانية جمع ايسر ارشيفاً ضخماً يشتمل على طائفة متنوعة من المعلومات عن قضايا الأمن الداخلي، ومجرمي الحرب النازيين، وكل ما اعتقد أنه قد يكون ذا فائدة في يوم من الأيام.

وخشي ايسر ان يتمكن البريطانيون من اكتشاف ارشيفه الثمين، فاستأجر شقة صغيرة في تل ابيب، واستخدم احد عمال الطوب في بناء حائط خادع له باب سري وهناك خبأ وثائقه عدة شهور، وكثيراً ما فتشت القوات الانكليزية الشقة ولكنها لم تعثر على غرفة الوثائق السرية الصغيرة.

ولكن، حتى هذا التدبير لم يكن كافياً في اعتقاد ايسر. وذات مرة، كان ايسر يسوق سيارته في الريف المجاور لتل أبيب، فرأى عصبة من الرجال يشيدون مبنى مؤلفاً من شقق سكنية وعندئذٍ وردت فكرة ما في خاطره، فأوقف سيارته ودنا من مراقب العمل ووجه اليه بعض الاستفسارات الحكيمة عن الرجال العاملين هناك، وبعد أن تحدث أيسر الى عدد منهم اختار واحداً ظنه موضع ثقة وطلب منه أن يسدي له معروفاً.

أراد أيسر أن تشيد له غرفة في قلب مبنى، يستعملها أرشيفاً له، وينبغي أن تكون تلك الغرفة سرية، لا يعرفها أحد حتى المهندس والبناؤون، وقد شيد البناء الغرفة المطلوبة التي أودع فيها ايسر ارشيفه حتى غادر الانكليز البلاد، عندما استطاع أن يقيم مقره العام في يافا.

واصبحت سرية ايسر اسطورة أو ما يشبه الاسطورة وكان الناس يتندرون بأنه استوقف سيارة اجرة في تل أبيب ذات مرة، حتى اذا سأله السائق الى اين يريد أن يذهب اجاب ايسر باقتضاب ان غايته سر من الأسرار.

وبقي جيرانه لا يعلمون عنه شيئاً طوال سنوات عديدة، وكانوا يعرفون انه متصل على نحو ما بالشؤون العسكرية، ولكنهم لم يشتبهوا قط في فرع الخدمة الذي يعمل فيه أو في مرتبته (لفتنانت كولونيل). وذات مرة اكتشفه احد اصحاب الحوانيت في مناسبة نادرة الوقوع وهو يرتدي بزته الكاملة فصاح:

أيمكن أن تكون أنت ايها الفتى الصغير الهادىء ضابطاً خطير الشأن؟.

وعلى وجه الاجمال، كان الجيران يرثون لهذا السيد القصير الأصلع المهذب السلوك، الذي كثيراً ما شاهدوه وهو يتسوق لزوجته التي لقبوها «الأمازونية» وكانوا يفترضون انه لا بد من أن يقضي معها أوقاتاً عصيبة في البيت. وفي الحق ان ايسر لم يكن يتلقى الأوامر إلا من اثنين فحسب: رفقه، وبن غوريون.

أما في المكتب، فكان ايسر عملاقاً من العمالقة، يخشاه عملاؤه ويطيعون أوامره.

وفي ذلك قال احدهم:

اذا حدق ايسر اليك احسست بأنك قد دخلت السجن.

وأوضح آخر:

كانت له عينان زرقاوان ثاقبتان، كأنما تنفذان الى اعماق فكرك مثل الموس الحادة، وكان دائماً يصوب نظره باستقامة تامة الى عيني محدثه، ولم يكن يحول نظره البتة، وكلما اطال النظر اليك صبح اكثر اثارة للخوف في نفسك.

«كنت اثماً على الدوام، وكان الدافع للإنهيار والاعتراف طاغياً في بعض الاحيان، حتى لو كنت بريئاً ولم يكن لديك ما تعترف به».

كان ايسر هرئيل جاسوساً مطبوعاً، وفي السنوات العشر التي شغل فيها منصب رئاسة قسم جواسيس، قام بتخطيط اكثر عمليات الجواسيس جرأة مما عرفت البلاد، ولم يكن يكتفي بالجلوس وراء مكتبه، وبإصدار الأوامر منه، بل كثيراً ما ذهب الى الميدان ليدير العمليات في مواقعها، وكان يجد لذة خاصة في الانفعال بمطاردة فريسة من فرائسه.

وكان حدس ايسر يقوده غير مرة الى التفسير الصائب للحوادث، في الوقت الذي بدا فيه منطق مشيراً الى الاتجاه المعاكس. بل ان اقرب زملائه كانوا يشتبهون في ان في باطنه نوعاً من للاقطات الخفية التي لم تخذله البتة، ولا سيما في أوقات الأزمات، وكان بارعاً في التعرف الى لمواهب خاصة، وكانت الترقيات سريعة الوصول الى الرجال الذين يتصفون بالعزيمة القوية والحس المرهف.

كان ايسر هرئيل مترفعاً، يقوم بعمله منفرداً دائماً، بل ان زوجته رفقه، طوال السنوات التي عرفته فيها، لم تجرؤ على سؤاله عن أية عملية خطط لها، اذا بدا مضطرب الشأن على نحو واضح.

وحدث ذات مرة، وهي مرة وحيدة على كل حال، ان اضطربت رفقة لغياب زوجها بدون

علة تعرفها، فسألت رئيس الوزراء قائلة، اخبرني ما الذي سيحل بزوجي، وأين هو؟ بيد أن بن غوريون نفسه لم يكن لديه في تلك المناسبة ادنى معرفة عن المكان الذي حل فيه رئيس عملائه المتكتم.

وتعلمت رفقة منذ وقت مبكر ألا تسأل زوجها شيئاً بشأن عمله، غير انها كانت لها اساليبها الفنية البارعة الخاصة في التجسس، فقد كانت اذا تداول القوم عملاً مهماً في غرفة الجلوس بمنزلها، تكثر من زورانها وهي تحمل القهوة الطازجة واطباق الشطائر وتقول في شيء من اللوم لأيسر وضيفه: كلوا، اني أراكم جائعين. ولا بد انها كانت تستخلص استنتاجاتها الخاصة من الكلمة التي تسمعها من تلك المحادثات.

ولم يكن ايسر يقدر تافهات الأمور وشكلياتها اي تقدير وكان يعتقد ان ارتداء ربطة العنق امارة من امارات الانحطاط البورجوازي، ويرفض امتلاك واحدة منها. ولم يتنازل عن هذا المبدأ حتى ذهب الى اوروبا للاجتماع مع كبار الموظفين هناك. وعندئذٍ اشترى احد رجاله ربطة عنق وارشد رئيسه الى طريقة عقدها.

اما التنازل الوحيد الذي كان ايسر يبديه تجاه الملذات الاجتماعية، فهو الاجتماع الاسبوعي الذي كان يعقده في منزله، ففي مساء كل يوم خميس كان كبار شخصيات اسرائيل وجنرالاتها ووزرائها ورجال الدولة فيها، وغيرهم ممن لم يكن احد يعرف حقيقة عملهم على وجه التحديد، كان هؤلاء يجتمعون في منزل ايسر هرئيل لتناول القهوة والكعك وبذور الخشخاش

وعندما سئل احد اقاربه ان كان اصدقاؤه الشخصيون يحضرون تلك الاجتماعات، بدا مندهشاً لذلك السؤال وقال اصدقاؤه، انه يعرف الجميع، كما يعرفه الجميع، ولكن لا اعتقد ان له اصدقاء فعليين، فهو لا يثق بأحد ولا بنا نحن.

ولم يوجه احد ادنى اشارة الى اتصال فضيحة مالية أو خلقية باسم ايسر هرئيل، وكانت مواقف هذا الرجل المخلص لعائلته كل الاخلاص، تصل حد التعصب في تطهرها، وقد اكتشفت ذات مرة ان رجلاً ذا شأن من رجاله، قد اعتذر لزوجته بأنه «كان في مهمة» لتفسير غيابه عنها، في حين انه قضى اسبوعاً مع عشيقته في مأوى بالشاطىء. فما كان من أيسر إلا أن اعفاه من الخدمة على الفور.

كان يزدري الاشياء المادية، وفي ذلك خير لإسرائيل، اذ انه لم يكن مسؤولاً امام احد حتى الوزراء عن طريقة إنفاقه لميزانية الموساد. وحتى يومنا هذا ما يزال ايسر هرئيل يقيم في البيت المتواضع نفسه، ذي الحديقة الصغيرة الأنيقة، حيث عاش اغلب اوقات عمله في أداء وظيفته.

ان نمط حياته البسيط يؤكد صلاحه واستقامته. وقد كان ايسر يثق ثقة تامة بعملائه، ولا سيما الذين يناط بهم تنفيذ مهمات خطرة في الخارج، وكان يلح على التعرف الى حياتهم الخاصة، والقيام شخصياً بمساعدتهم اذا استطاع في مشكلاتهم البيتية. ومع هذا كله لم يكن احد يستطيع التبسط معه، مهما كان ذلك ضئيلاً، فلم يكن لديه احساس بالظرف، وأقرب ما سمعه منه احد الى التندر كان حين قال:

إن الناس جميعاً يخافون من عيني الزرقاوين باستثناء الكلاب والأطفال.

وكان سلوكه، اذا استاء يبعث على الفزع، وقد حدث ذات مرة ان اقترف احد رجاله خطأ عن اهمال منه فاستجوبه ايسر استجواباً قاسياً جداً، وكانت غلطته قد اربكت الحكومة امام اعين اناس، ولكن ايسر لم يعفه من الخدمة وعندما خرج الرجل من مكتب رئيسه شاحباً يرتعد للتقريع الذي نابه، علق على ذلك بقوله:

لو تخلف ايسر في روسيا لأصبح رئيس مخابراتها ك. ج. ب. ، ولكان قد افطر على الغول بيريا نفسه.

وكان ايسر استاذاً صارماً، ولكنه كان يجازي الوفاء بمثله فلم يحدث ان تخلى مرة عن عميل وقع في مأزق، واذا حدث ان القي القبض على احد من رجاله، بذل جهوداً خارقة للظفر بإطلاق سراحه، وكان مستعداً لدفع أية كمية من الذهب أو غيره مما يطلب فدية له، وكان يحارب تماماً الفكرة القائلة بأن العميل المسجون يعتبر شيئاً مستهلكاً.

وكان رؤساء اجهزة الأمن الأوروبية والامريكية يكنون اكبر التقدير وأعظمه للمواهب المهنية التي يتحلى بها ايسر الصغير، فقد كان انساناً داهية مراوغاً، يجد لذة في عالم المكائد والجاسوسية. وكانت هوايته الوحيدة هي الأوبرا وروايات اغاثا كريستي البوليسية. أما روايات الجاسوسية، إلا النزر اليسير منها، تثير ازدراءه، ويقول:

ان أولادي يجعلون من الابطال امثال جيمس بوند يبدون هواة فحسب.

كان هذا هو الرجل الذي ادار دفة الموساد في فترة تكوينه. ان المعايير التي وصفها، والأسلوب الذي انشأه ما زالت قائمة في هذه المنظمة حتى يومنا هذا.

الباب الثالث
اختطاف ايخمان

في وقت متأخر من خريف ١٩٥٧ بقي أيسر هرئيل متيقظاً طوال الليلة وهو يطالع ملفاً ضخماً مما جمع في اعقاب الحرب العالمية الثانية واخفي بعناية عن انظار البريطانيين. موضوع الملف: ادولف ايخمان. ومن حين الى آخر، كان ايسر يقسر نفسه على متابعة القراءة، فقد كانت بشاعة الجرائم التي ارتكبها الرجل تبعث على الغثيان.

ومنذ تعيين ايخمان في عام ١٩٣٤ بالقسم اليهودي من خدمات الأمن التابعة للقمصان الزرقاء س. س. بوصفه خبيراً في قضايا الصهيونية، لعب دوراً أساسياً في صياغة ما يسمى الحل النهائي للمسألة اليهودية، وتنفيذه أيضاً. وقد وضع أيخمان الخطوط الرئيسية في فكرة «الهجرة القسرية» بصفتها طريقة لتركيز يهود اوروبا في وحدات يسهل تدبر شؤونها، كما أنه اقترح إقامة وكالة منفردة لتنفيذ تلك السياسة. وكان دوره طوال فترة الحرب يتصف بالإدارة اكثر من اتصافه بوضع القيادات، ولكنه نفذ الأوامر بكفاءة تجمع بين الحماية والفتك.

وكان أيخمان يعتز كثيراً بسهولة تنفيذ العمليات التي نظمها، وفي محاكمات نورمبرغ قدمت الأدلة على انه كان يفتخر بمساهمته في تصفية ملايين اليهود، وقد اشتملت تلك المساهمة على الدور الكبير الذي لعبه في «توسيع أوشفتس» الذي أصبح اكبر معسكر للإبادة بالجملة، وفي اوشفتس هذه لقي حوالى مليونين من اليهود مصرعهم.

وكانت نشاطات ايخمان في المجر، حيث انيطت به في آذار ١٩٤٤ مسؤولية الاشراف على تنفيذ الحل النهائي مثالاً للكفاءة التي تتصف برباطة الجأش وهدوء الأعصاب في تنفيذ المهمات وقد قسم ايخمان البلاد الى ست مناطق لتسهيل عمليات الابعاد، وجلب قوات خصيصاً لهذه الغاية، ثم شرع في لملمة من استطاع القبض عليهم من يهود المجر البالغ عددهم ٦٥٠,٠٠٠ نسمة،وفي شهر تموز ، بعد أقل من اربعة اشهر من بدء تنفيذ الخطة، تم جلب ٤٣٨ ألف من اليهود الى اوشفتس، وفيما بعد حين ساءت احوال الحرب بالقياس الى المانيا،قدمت العروض بمقايضة ارواح اليهود بالتجهيزات التي كانت المانيا في امس الحاجة اليها، وقد واصل ايخمان عمليات الابعاد حتى في اثناء المفاوضات وقد القي القبض على بعض من كبار النازيين بعد انتهاء

الحرب وقدموا للمحاكمة في نورمبرغ، في حين جرت تصفية حساب عدد آخر منهم بايدي رجال اخذوا على عاتقهم تطبيق القوانين.

بل ان جماعة من اللواء اليهودي التابع للجيش البريطاني قامت قبل انتهاء الحرب بتحويل نفسها الى فريق انتقامي، غايته الوحيدة ملاحقة النازيين، وأطلقت هذه الجماعة على نفسها اسم «المنتقمين»- هانوقميم- نسبة الى ملائكة الله المنتقمين الذين ورد ذكرهم في الكتاب المقدس.

وقام هؤلاء بتجميع قوائمهم الخاصة، من شهادات الذين بقوا على قيد الحياة من معسكرات الاعتقال وانشأوا شبكات من العملاء ورجال الاتصال في طول اوروبا وعرضها وقد ساعدهم في ذلك رجال عسكريون متعاطفون معهم من فرنسيين وانكليز وامريكان وغيرهم من قوات الاحتلال. وتمكنوا من تحديد اماكن اقامة مئات من النازيين والقبض عليهم، ولا سيما جماعة القمصان الزرقاء س. س. التي نظمت معسكرات الاعتقال وادارت شؤونها.

وفي البدء كانوا يسلمون اسرى النازيين الى السلطات العسكرية المحلية ولكن الاسرى كثيراً ما تمكنوا من الفرار في اثناء الفوضى العارمة التي اعقبت الحرب أو تم اطلاق سراحهم.

وفي احدى المناسبات القي القبض على اثنين من النازيين في عام ١٩٤٤ وقدما الى قوات الاحتلال الروسية في المجر، بيد ان الرجال الذين القوا القبض عليهما اعتراهم الفزع حين قال لهم الآمر الروسي بأن شهادات ضحايا معسكر الاعتقال لا تكفي وحدها لإدانتهما، وأمر باطلاق سراحهما على الفور، وعندئذٍ انطلق الالمانيان الى الشارع وهما يضحكان ولكنهما لم يمضيا بعيداً على كل حال. فقد كان «المنتقمون» لهما بالمرصاد وأطلقوا عليهما وابلاً من نيران الرشاشات.

ومنذ ذلك الحين اصبحت السياسة الرسمية المتبعة هي قتل النازيين فور القاء القبض عليهم، وكان الذي تجري مطاردته الى منزل ما، تقوم شرذمة من الجنود البريطانيين بتوجيه دعوة مهذبة له بالذهاب للإجابة عن بعض الاستفسارات ثم يؤخذ الى احد الحقول أو الغابات القريبة حيث تتلى على سمعه الجرائم التي ارتكبها، والحكم الصادر بحقه، وينفذ فيه الحكم عندئذٍ.

وقد عثر على حوالى الف جثة من هذا القبيل في السنة الأولى التي اعقبت الحرب.

أما أدولف ايخمان فقد تمكن من الافلات من محاكمات نورمبرغ ومن يد «المنتقمين» السريعة. وقد عرف عنه الذكاء والخبرة في شؤون البوليس وقضايا الأمن، وتمكن من اخفاء مسالكه فيما يبدو اخفاء تاماً.

اجل تمكن ايخمان من ذلك حتى حل خريف ١٩٥٧ فقد حصل ايسر هرئيل عندئذٍ على

معلومات موثوق بها من الدكتور فرتس باور المدعي العام في مقاطعة هيسي بالمانيا مفادها أن ايخمان يعيش في الارجنتين.

وكذلك قضى ايسر الليل ساهراً يدرس ملف ايخمان حتى اذا اسفر الصبح صح عزمه على ضرورة الاتيان بذلك الرجل لمحاكمته.

ان القاء القبض على هذا المجرم الخطير، الذي ما من شك في انه يحيا باسم مستعار، وتحوطه رعاية اصدقائه في الحكومة الارجنتينية وخارجها، سوف تكون واحدة من اصعب المهمات التي واجهها في حياته، ثم، ما العمل به اذا تم القاء القبض عليه؟ سيكون من السهل اليسير القضاء عليه بالأسلوب الذي يتبعه المنتقمون، ولكن أيسر الصغير لم يكن يعتزم قتل ايخمان، بل كان ينوي الإتيان به الى اسرائيل ليمثل للمحاكمة أمام الشعب اليهودي الذي بذل قصارى جهده لإبادته.

وسيزيد هذا من صعوبة العمل، ولكن ما من بديل، ولعل ايسر قد تذكر ما حدث لمئير توبيانسكي الضابط الذي شان سمعة ايسر بئيري فأراد أن تنسجم هذه العملية مع المعايير القانونية بقدر المستطاع، ولم يكن ايخمان مجرماً يسير الشأن ليتم اعدامه على نحو مستعجل في حقل من الحقول المهجورة.

وكانت تلك المهمة جريئة ذات عواقب جسيمة في حالي نجاحها وفشلها.

درس ايسر المشكلة بروية وقام بتقدير جميع الامكانات، واقتنع اخيراً ان احتمال نجاحه فيه كبير فذهب لمقابلة رئيسه دافيد بن غوريون، ولم يكن الرجلان يناقشان عظائم الأمور على هاتف.

وقد تميز اللقاء بينهما بالقصر، اذ دخل ايسر مكتب بن غوريون واخبره بأن لديه معلومات عن مكان إقامة ايخمان وقال:

أود أن تمنحوني الضوء الأخضر لجلبه الى اسرائيل. قال بن غوريون: افعل ذلك. ومنذ تلك اللحظة اعطي لأيسر الأولوية رقم ١ لهذه المهمة.

أما المدعي العام الالماني فرتس باور فقد استدل على ايخمان من يهودي اعمى في بيونس ايرس كان شاباً يطلق على نفسه اسم نيكولاس ايخمان يتودد لابنته، وكان هذا هو اسم احد ابناء ادولف ايخمان الذين ولدوا له في المانيا وادى ذلك الى التعرف على عنوان عائلة ايخمان، وهو: ٤٢٦١ شارع شاكابوكو في ضاحية اوليفوس في مدينة بيونس ايرس.

وفي وقت مبكر من عام ١٩٥٨ ارسل احد العملاء للإشراف على مراقبة المنزل.

بيد أن خطأ ما قد وقع، ولعل ايخمان الذي قويت في نفسه مشاعر الهروب، قد علم بأنه مطارد، وأياً كان الأمر، فإن عائلة ايخمان لم تكن تقيم في ذلك المنزل آنذاك ومنيت تلك الملاحقة بالفشل، وفي آذار من ذلك العام بعث ايسر الى بيونس ايرس رجلاً حنكته التجارب يدعى افرايم الروم، وقد انتقى ايسر ذلك الرجل بنفسه.

ولم يكن الروم في واقع الأمر عميلاً من عملاء الموساد، بل كان ضابطاً في الشرطة وهو من مواليد بولندا، ولكنه ترعرع في المانيا، ثم عمل في البوليس البريطاني بعد هجرته الى فلسطين وأصبح ضابطاً رفيعاً في الشرطة الاسرائيلية بعيد تأسيسها في عام ١٩٤٨، وقد اختاره ايسر لسجله الممتاز من جهة ولسهولة تلبسه بالألمان من جهة اخرى.

وصل الروم الى بيونس ايرس، فذهب على الفور، لزيارة لوثار هرمان، وهو المحامي الأعمى الذي كانت ابنته تواعد نيكولاس ايخمان، وسمع الروم منه كيف ثارت شكوكه لمباهاة ذلك الشاب بالدور الخطير الذي لعبه أبوه في جهود الحرب بالمانيا.

وسارت الاستفسارات التي قام بها الرجلان عن المشتبه بأنه ادولف ايخمان في تريث ودقة ولم يكن المتحريان يريدان الوقوع في مخاطر ان تشتم فريستهما رائحة المطاردة بل كان اعسر عليهم من ذلك، ضرورة تحديد هوية الرجل تحديداً لا ريب فيه، وليس أسوأ من فقدان ايخمان الحقيقي كالقبض على شخص مشتبه به بغير حق.

وتم تسليح العملاء بملفات تحتوي على جميع نتف المعلومات التي تتيح لهم التحقق من هوية ايخمان. ومن هذه المعلومات سماته البدنية، وصوته الأجش، ويوم الاحتفال بزفافه ايضاً، وقد حرص النازي السابق على اتلاف صورة من صوره وقعت يده عليها، فلم يدع لمطارديه سوى صور باهتة تعود الى أيام ما قبل الحرب.

وحبطت الادلة، وتبين ان بعضها كان يرمي الى صرف الانظار فقط، وكان على الموساد التصدي لأمور مربكة منها الشائعة الرائجة بأن أيخمان يمثل دور مدير في إحدى شركات النفط في الكويت.

وبدا بعض كبار رجال الموساد تبرمهم من تبديد موارد الموساد المحدودة، فالموساد منظمة صغيرة، ملزمة في الوقت نفسه بمواصلة البحث عن ايخمان وبمراقبة التطورات السياسية والعسكرية في سوريا ومصر وغيرهما من البلدان العربية.

ولم يتوقف البحث، فقد صح عزم ايسر على المضي في خطته.

وفي كانون الأول ١٩٥٩، تعرف بعض عملاءِ الموساد على ايخمان في هيئة رجل ينتحل اسم ريكاردوكليمنت، وكان هذا قد أدار أعمال مصبغة للملابس، ولكنها أفلست في ذلك الوقت، وقد أفلح الفريق بعد اقتفاء اثر الابن في تحديد موقع المنزل الذي تعيش فيه العائلة، وهو يقع في شارع غاريبالدي، في منطقة سان فرناندو المنخفضة بالمدينة ودأبوا على مراقبة البيت وصوروه من جميع زواياه باستعمال عدسة مقربة ودونوا ملحوظاتهم عنه، في انه بدون سور وأن بابه من الرقائق الخشبية المضغوطة، وان جدرانه غير مجصصة، وراقبوا ايضاً عادات الرجل الأصلع ذي النظارتين الذي يعيش مع عائلته في ذلك المنزل، واطمأنوا الى انه لا بد من انه يكون ادولف ايخمان، ولم يبق عليهم سوى الظفر بالبرهان القاطع على هوية الرجل.

وفي ٢١ آذار ١٩٦٠ ظفروا بالبرهان.

ففي غسق ذلك اليوم، نزل ريكاردو كليمنت من سيارة الباص وسار متمهلاً نحو المنزل، وفي يده باقة من زهر.

وحنى كليمنت رأسه من تحت الاسلاك التي تحد ارضه ثم قدم باقة الزهر الى المرأة التي قابلته بحرارة لدى الباب وبدا طفلهما الأصغر الذي كان في العادة مهمل الملابس أو يلعب وهو عارٍ في الحديقة بدا انيقاً حسن الهندام آنذاك ومن بعد، تصاعدت ضحكات المحتفلين من وراء ستائر المنزل المسدولة.

ولكن، فيم كان يقام هذا الاحتفال؟.

وتناول احد العملاء نسخته من ملف ايخمان فوجد فيها ان ٢١ آذار هذا هو العيد الخامس والعشرون لزفاف ايخمان.

وهنا انقشعت جميع الريب المتبقية حول ريكاردو كليمنت فقد كان هو ادولف ايخمان. واذن فقد كانت المطاردة صائبة تماماً.

ولم ينقض وقت طويل بعد تحقق عملاء ايسر من هوية ايخمان، حتى قرر الذهاب الى الارجنتين ليشرف بنفسه على عملية القاء القبض عليه وقد قال ايسر معلقاً على ذلك فيما بعد:

كانت هذه هي أصعب العمليات التي واجهت الموساد وأدقها، وكنت أحس بضرورة تحمل التبعة شخصياً عن تلك العملية في موقعها. اما احد عملائه ففسر ذلك على نحو مختلف بعض الشيء فقال:

لم يتمالك ايسر نفسه إزاء هذه العملية، فذهب الى الارجنتين للإشراف عليها. وأخذت

الاستعدادات في التسارع، وصمم ايسر ونوابه خطة القاء القبض على ايخمان ونقله بالطائرة من الارجنتين بالاعتماد على وثائق مزورة، وقدمت الحلول لكل طارىء من الحوادث، كما ادخلت تعديلات طفيفة على الخطة، وفقاً للمعلومات الجديدة التي قدمها الفريق العامل في الارجنتين الذي كان يتعقب آنذاك كل حركة يأتيها أيخمان.

وقد اختار ايسر بنفسه كل رجل في تلك المهمة من خيرة رجاله السريين، وكلهم كان قد قام بمهمة في الخارج وسيده من دونه، وكلهم جازف بحياته في البلدان العربية أو غيرها من البلدان.

وكان ايسر يعلم أن هذه المهمة حافلة بالصعوبات والمخاطر، فأصر على الا يشترك فيها مجندون، وانما ينبغي ان يكون رجالها جميعاً من المتطوعين.

وانجلى الأمر كما قال احد رجال الموساد، عن ان احداً لم يوجه اليه السؤال ثلاث مرات. اما قائد هذه المجموعة فكان من الكوماندوس من مواليد فلسطين، وقد تمرس بالنشاط أول مرة وهو حدث في الثانية عشرة من عمره، عندما ساعد في تخليص طائفة كبيرة من المهاجرين اليهود غير الشرعيين من أحد معسكرات الاعتقال، ومن بعد، قام بنسف محطة رادار بريطانية- حصينة- على جبل الكرمل، وقد جرح في القتال ضد العرب واصبح كشافاً، ثم انضم الى مخابرات ايسر هرئيل.

أما سائر اعضاء المجموعة فكانوا ممن بقوا على قيد الحياة ونجوا من الاضطهاد النازي وشاهدوا إخوتهم وإخوانهم وآباءهم وامهاتهم يساقون بعيداً الى معسكرات الاعتقال للمرة الأخيرة في حياتهم.

وكان بعضهم الوحيدين الذين بقوا احياء من عائلات ابيدت تماماً.

وكان من هؤلاء شالوم دامي- الذي يرادف اسمه لقب الزيف- وقد ترعرع داني هذا في احياء الغيتو، ثم نقل من معسكر الى آخر بعد الغزو النازي لمسقط رأسه: المجر أما أبوه فقد سيق الى الموت في غرف الغاز في بيرغن بنزن.

وذاق داني بلاء السجن مرة اخرى بعد نجاته في نهاية الحرب العالمية الثانية عندما اعترضت سفينة حربية بريطانية سفينة للمهاجرين غير الشرعيين وهي في سبيلها الى فلسطين، أمضى بقية أيامه في احد معسكرات الاعتقال البريطانية هناك.

وأما دور داني في العملية فكان اعداد الوثائق اللازمة لاعضاء الفريق الآخرين ولأيخمان نفسه من اجل تسهيل عملية اختفائه من الارجنتين.

ومن بين الرجال الذين اختارهم ايسر، رجل قتل النازيون اخته وابناءها الثلاثة ولما انتهى اليه نبأ موتهم أقسم بأن ينتقم لهم في يوم من الأيام.

اختار ايسر هذا الرجل وأناط به مهمة الامساك بأيخمان وقهر مقاومته الجسدية.

وقد انفجر هذا الرجل باكياً عندما سألوه ان كان يرغب في التطوع، وكان جوابه الوحيد هو:

حاولوا أن تبعدوني عنه اذا استطعتم.

وكان رجل آخر منهم ينتمي الى مجموعة « المنتقمين » الأصلية ، وقد اشترك هذا من قبل في عدة عمليات اغتيال النازيين ، بعد خوضه المعارك مع الجيش البريطاني ، ولم يكن يأسف على شيء سوى انه يقوم بدور مساند فحسب، وانه لن يكون أول من يمسك ايخمان بقبضته.

وبلغ عدد مجموع اعضاء الفريق اكثر من ثلاثين شخصاً منهم حوالى اثني عشر عضواً فعلاً، وحوالى عشرين يقومون بدور المساندة في الارجنتين.

ولم تترك أية فرصة للخطر. وفي احدى المدن الاوروبية، وهي مدينة ما يزال اسمها سراً مكتوماً حتى الآن، أقام الموساد وكالة سفر مصغرة، ليضمن عدم اثارة مشكلات تتصل بالوثائق وترتيبات الطيران والتأشيرات وشهادات الصحة والمؤهلات لافراد الوحدة.

وبذلت عناية خاصة لتفادي حدوث انطباع بأن المجموعة قد تم تنظيمها وإرسالها من اسرائيل اذ ان ردود فعل سياسية خطيرة ستقع اذا باءت الخطة بالفشل، وستكون الارجنتين محقة في غضبها، اذا هي اكتشفت ان الاسرائيليين ينتهكون حرمة سيادتها بالقبض على رجل في العاصمة الارجنتينية.

لم يكن لدى ايسر بديل على كل حال، وكان يعلم حق العلم انه لو سرب ما لديه من معلومات الى شرطة الارجنتين فما من شيء يضمن له حتى القاء القبض على ايخمان، ناهيك عن تقديمه الى العدالة والمتعاطفون مع النازية من اصحاب النفوذ في امريكا الجنوبية كثيرون، وقد عرف عن القارة، منذ أمد بعيد، أنها ملاذ الهاربين من اوروبا سواء أكانوا ممن يسطون على البنوك، أم من المهاجرين اصحاب المثل السياسية، أم مجرمين نازيين بكل ما في الكلمة من معنى.

وبدأت العملية بدون احداث متاعب في نهاية شهر نيسان، وطار العملاء من جميع ارجاء المعمورة الى الارجنتين، ولم يكن أي اثنين منهما من مدينة واحدة، وقليل منهم من كانوا من البلد

نفسه، وقد شرع هؤلاء على الفور في استئجار منازل «آمنة» لتكون قواعد انطلاق لعملياتهم كما استأجروا ارتالاً من السيارات، كانوا يبدلونها باستمرار كي لا ينتبه إليهم احد.

واعدت الترتيبات سلفاً لنقل الأسير جواً بإحدى طائرات شركة العال الذاهبة الى بيونس ايرس لإنزال وفد اسرائيلي، يشارك في الاحتفال المقام في الذكرى المئة والخمسين لاستقلال الارجنتين، وكان الحظ مواتياً كل المواتاة لتمكن ايسر من المشاركة الفعالة في تحديد زمن السماح للطائرة بالإقلاع من الارجنتين. أما بديل السفر بالطائرة، لو امكن اعداد الترتيبات له، فهو رحلة تستغرق ستين يوماً على ظهر السفينة.

وفي ١١ أيار كانت قد انجزت جميع الاستعدادات وتقرر ان يتغلب رجال الموساد على ايخمان في ذلك اليوم حين يعود الى بيته في المساء، وأن يختطف ويودع في احد منازل الاسرائيليين «الآمنة».

كانت واحدة من العمليات الكلاسيكية.

وفي الساعة ٧ والدقيقة ٣٤ وقفت سيارتان في شارع غاريبالدي وكان غطاء احداهما مكشوفاً ورجلان يتدارسان ما بدا انه عطل ما في السيارة وفي المقعد الخلفي كان رجل متأهب للوثوب.

وكان لدى السيارة الاخرى الواقفة على مبعدة ٣٠ ياردة رجل آخر يحاول تبين العلة في توقف محرك سيارته.

وكان ايخمان يعود الى البيت في سيارة الباص في الساعة ٧ والدقيقة ٤٠، وسيقومون بالقبض عليه وهو يسير في سبيله الى البيت.

وصل الباص في الوقت المحدد. ولكن ايخمان لم يكن فيه وازدادت حدة التوتر بين أفراد الجماعة، وقرروا انتظار قدوم الباص التالي، مفترضين ان الباص الذي يقل ايخمان في العادة ربما يكون قد فاته في هذه المرة، ولكنه لم يكن في الباص التالي. بل لم يكن في الباص الثالث كذلك، فهل اشتم رائحة الخطة ضده؟.

وعقد العملاء مؤتمراً عاجلاً، فلو قد بقيت سياراتهم طويلاً، لبدأت الريب تحوم حولهم، وسيؤدي ذلك الى إحباط المهمة بتمامها، بيد انه لم يكن من السهل عليهم التراجع بعد كل ما فعلوه، اذن؟ بضع دقائق اخرى...

وفي الساعة الثامنة تماماً، لاحت سيارة باص اخرى، وهبط منها شخص وحيد، وفي اثناء

مسيره تجاه العملاء عرفوا فيه رجلهم المطلوب. لحظات من الصمت. بقي فيها العملاء ينتظرون وصول ايخمان الى المكان الملائم.

وفجأة بهرت عيني ايخمان اضواء السيارتين، القى رجلان القبض عليه، فصدرت عنه صيحة فزع وحيدة، ولم يجد الوقت لإصدار صيحة سواها حتى كان قد القي في المقعد الخلفي من احدى السيارتين ورأسه مضغوط بين ركبتي احد رجال الموساد. وشد وثاق ايخمان، وسد فمه بسداد ما، ووضعت نظارتان قاتمتان على عينيه، كيلا يعرف مختطفيه، ويكوّن أية فكرة عن الغاية التي يساق اليها وقد دثر ببطانية وطرح على ارض السيارة. وانحنى احد رجال الموساد من فوقه وقال له بالالمانية: اذا قمت بحركة واحدة، فستطلق عليك النار.

ومن بعد، تحدث ايخمان بهذا الصدد فقال انه لم يكن يشك في جدية ذلك التهديد. وفي أقل من ساعة بعد الاختطاف، كان ايخمان يستلقي معصوب العينين في الفراش بمنزل يقع في الجانب الآخر من المدينة، وكانت احدى ساقيه مشدودة الى هيكل السرير، وقد استبدلت ثيابه ببيجاما اشتريت له مؤخراً.

وقد توقع مضيفوه أن يجدوا وشماً برقمه في جماعة س. س. في المكان المألوف تحت الابط تماماً، حسب سجلات فترة الحرب، ولكنهم وجدوا ندبة مختلفة فقط، وقد اوضح ايخمان ذلك بأنه حين وقع في يد الامريكان بعيد الحرب حاول ازالة ذلك الرقم بالشفرة.

وتفحص رجال الموساد خصائصه المميزة الواحدة تلو الأخرى، فوجدوها جميعاً مطابقة لمدوناتهم.

وكان مما اثار دهشتهم واشمئزازهم ايضاً، ما ابداه ايخمان من تعاون ذليل معهم، فقد ذهبت الى غير رجعة، عجرفة ضابط جماعة س. س. الذي كان مئات الرجال يلبون أوامره في يوم ما، اما الآن فكان مرعوباً عصبي المزاج، وفي بعض الاحيان متلهفاً للاستعانة على نحو يدعو للشفقة والرثاء، وكان ينبىء سجانيه بكل ما يطلبونه منه ـ كان رقم عضويتي في الحزب الاشتراكي القومي ـ النازي ـ ٨٨٩٨٩٥.

وكانت طريقة تهريب ايخمان الى الخارج قد خطط لها سلفاً، في كثير من العناية والحرص.

فقد وضع احد العملاء في مستشفى محلي، بادعاء انه يعاني من ضرر في الدماغ اثر حادث مزعوم. وكان احد اقاربه طبيب الموساد يعوده كل يوم فيخبره كيف يصف اعراض حالته. وكانت الخطة تقضي بأن يحدث تحسن بطيء ومنتظم لهذا المريض.

وفي صباح ٢٠ أيار استعاد المريض صحته بما أتاح لاطبائه المسرورين أن يأمروا بإخراجه

من المستشفى كما انهم منحوه شهادات طبية وإذناً خطياً حسب طلبه بالعودة الى وطنه بالطائرة.

ولم يكد المريض يخرج من المستشفى حتى اخذت منه اوراقه على عجل، واستبدلت بها صورة ايخمان ووثائقه الشخصية. وفي هذه الاثناء كان النازي قد اصبح طيعاً تماماً حتى انه وقع على وثيقة تكشف عن هويته الحقيقية، وانه يعلن عن استعداده للسفره الى اسرائيل للمثول امام المحكمة هناك قائلاً:

إنني أقدم هذه الشهادة بمحض إرادتي، لا عن وعد ولا عن وعيد، ورغبتي هي تحقيق راحة ضميري اخيراً، وأعتقد انني سأحظى بمساعدة قانونية.

وفيما بعد علق ايخمان على هذا بقوله:

تمت عملية القبض علي بطريقة رياضية، تميزت بتنظيمها وبتخطيطها المثاليين، وقد تكلف مختطفيّ جهوداً خاصة لئلا تلحق بي أضرار جسدية، وأنا اجد مجال القول واسعاً في التعبير عن رأيي بهذا الشأن لأن لي خبرة سابقة في شؤون البوليس والاستخبارات.

كانت اصعب فترة في حياة ايسر هرئيل، هي تلك الفترة الحرجة التي سيتم فيها تهريب ايخمان من بين موظفي الجمارك والجوازات، وعبر شبكة الأمن التي تحيط بالمطار ايضاً.

ونقل ايسر مقره المتنقل الى منضدة في مطعم الموظفين بالمطار حيث بقي جالساً طوال اليوم. وما من شك في أن المئات من الجنود والبوليس وموظفي المطار الذين يقضون حاجاتهم من المطعم كانوا سيدهشون اشد الدهشة لو عرفوا ان هذا الرجل الذي لا يثير مظهره الاهتمام- ايسر هرئيل- كان يصدر الأوامر ويقدر ما حدث من تقدم في التقارير التي ترد اليه من العملاء المتعاقبين وهم يغدون ويروحون من أول الصباح الى آخر الليل.

والى جانب ايسر هرئيل، أمام ابصار سلطات بيونس ايرس كان شالوم داني جالساً يضع اللمسات الأخيرة على جوازات السفر المزيفة، ويتأكد من أن الوثائق التي وصلت اليه قد تم دمغها باختام حكومة الارجنتين الرسمية.

وفي اثناء ذلك كان رجال الموساد يعتنون بحلاقة ايخمان واغتساله ونظافته، وقد البسه رجال الموساد بذلة مما يستخدمها رجال طيران شركة العال، وقام طبيب من الفريق بحقنه بابرة خاصة فيها عقار تم تركيبه بحيث يشوش احساسات ايخمان فلا يعي شيئاً مما يدور حوله، ولكنه يظل واعياً في الوقت نفسه بما يتيح له السير اذا اسنده رجلان عن يمينه وشماله.

وابدى الاسير النازي تعاوناً تاماً في احدى المراحل حتى انه ذكر مختطفيه بانهم قد نسوا أن

يلبسوه معطف رجال شركة الطيران وقال: سيؤدي هذا الى إثارة الشبهات، إذ انني سوف ابدو مختلفاً عن سائر اعضاء الفريق وبوضوح وهم يرتدون بذلاتهم كاملة.

وفي السيارة الثانية، من قافلة مؤلفة من ثلاث عربات ممتلئة جميعاً بملاحي الطيران، سيق ايخمان الى مدخل الموظفين في المطار، وعندما اقتربت القافلة من مقر الحراس، اخذ رجال السيارة الاولى يغنون ويقهقهون، واوضح سائق سيارتهم الذي بدا عليه الارتباك، اوضح للحراس أن جماعته قد استمتعوا بحياة الليل في بيونس ايرس كثيراً حتى انهم كادوا ينسون انهم سيسافرون الى وطنهم في ذلك المساء نفسه وكان بعض الرجال يهومون من النعاس مما جعل الحراس يتندرون بأنهم لن يتمكنوا من استعمال الطائرة مع هذا الخبل الذي أصابهم وقال السائق:

انهم على ما يرام، وما هؤلاء سوى الملاحين البدلاء، وفي وسعهم أن يكملوا نومهم في داخل الطائرة.

وتغامز الرجلان عندئذٍ وأوعز احدهما للقافلة بالتقدم وهو يبتسم ملء شدقيه، بل انه لفت انتباه احد زملائه الى الكيفية التي يجلس بها الرجال الثلاثة في المقعد الاخير من السيارة الثانية وقد تكوموا بعضهم على بعض، وجفونهم مطبقة، لا بد أن تكون بيونس ايرس قد وافقت مزاجهم كل الموافقة.

واخذ اثنان من عتاة الفريق يضغطان ايخمان بينهما بذراعيهما، وهما يسندانه عن يمينه وشماله، ويساعدانه في تسلق المجاز المؤدي الى الطائرة وعبرت بالفريق لحظة رعب حين تكرم احد موظفي المطار فسلط نور كشاف قوي على بريتانيا لانارة المجاز لمساعدة الملاحين على التقدم.

وعلى متن الطائرة تم دفع ايخمان، وجره ثم وصعه في مقعد مجاور للشباك، بالقسم الامامي من الطائرة، ومن حوله كان الملاحون يتظاهرون بأنهم يغطون في نوم عميق، ثم أطفأ ربان الطائرة الانوار في ذلك الموقع، ومضى الملاحون الآخرون يقدمون وثائقهم الواحد بعد الآخر الى موظفي الجمارك والجوازات وكان كل شيء يسير بدون ادنى متاعب.

وأخيراً قدم ايسر وثائقه وصعد على متن الطائرة، وكان كل شيء معد للانطلاق.

وفجأة اندفعت جماعة من كبار الموظفين، تتراكض، وتجمد أيسر ورجاله عندئذٍ، مهما يكن من قصد هؤلاء الموظفين، فقد فات الأوان، وهدرت محركات الطائرة، واندفعت في الممر بالمطار وما هي إلا لحظات حتى كانت تحلق في الجو. وكانت الساعة آنذاك قد تجاوزت منتصف الليل بخمس دقائق.

وهدأت حدة التوتر قليلاً، وعرف ملاحو الطائرة الحقيقيون من هو الراكب الذي معهم وقام الطبيب بفحصه للتأكد من أن حقنته الخفيفة لم تلحق به أية اضرار وكان كل شيء على ما يرام. وهدأ الجميع في أماكنهم في الرحلة التي استغرقت ٢٢ ساعة من الارجنتين الى فلسطين المحتلة.

على ان تلك الدراما لم تكن قد انتهت آنذاك، فقد كان ميكانيكي الطائرة من أصل بولوني، وحين بلغ الحادية عشرة من عمره، مد أحد الالمان خنجراً الى عنقه ودفعه بضع درجات الى أسفل، وفيما بعد اختبأ في منزله حين قام الالمان بلملمة جميع يهود مدينته واطلاق النار عليهم ومن بعد ايضاً لجأ الى هذه الوسيلة ذاتها لئلا يساق الى تربلينكا واخيراً القي القبض عليه وعلى عائلته ونقلوا الى احد معسكرات العمل، وعندما وصلوا هناك لقي الرجال الكبار والاطفال الصغار مصرعهم ومن هؤلاء الأطفال اخوه الذي كان عمره ست سنوات آنذاك، وقد رآه بأم عينه وهو يساق بعيداً عنه.

وقد أعد هو غير مرة للموت ولكنه تمكن من النجاة. وفي احدى المناسبات توجب عليه الوقوف ومشاهدة آمر المعسكر وهو يفقأ عيون بعض السجناء الذين ضبطوا وهم يسرقون الطعام. ولم ينج من الحرب إلا بأعجوبة.

وكذلك لم يتمالك هذا الميكانيكي نفسه حين علم ان الراكب معهم هو ايخمان. ولم يدعه رجال الموساد يجلس في الجانب المقابل حتى سكت عنه الغضب، وهناك جلس يحدق الى ايخمان ويبكي صامتاً وبعد برهة وقف ومضى الى حال سبيله.

وبعد ٢٤ ساعة من اقلاع الطائرة من بيونس ايرس هبطت الطائرة في مطار اللد وساق ايسر هرئيل سيارته على الفور الى مكتب بن غوريون، ولأول مرة، أتاح لنفسه أن يتبسط في حديثه معه فندت طرفة ساخرة وقال: اتيتك بهدية صغيرة.

واعترى بن غوريون الوجوم لعدة ثوان. فقد كان يعرف ان ايسر يطارد ايخمان ولكنه لم يكن يعلم انه على وشك الاتيان به.

وبلغت فترة غياب ايسر عن البلاد ٢٣ يوماً. وعندما عاد الى منزله في تلك الليلة سألته زوجته رفقة اين كان. وكان الجواب الوحيد الذي ظفرت به هو: في مكان ما.

غير انها حصلت على معلومات اوسع في اليوم التالي عندما القى بن غوريون خطاباً قصيراً بالغ الأهمية في الكنيست:

يتوجب علي الاعلان عن أن الاستخبارات الاسرائيلية قد عثرت قبل وقت قصير على واحد من كبار مجرمي النازية وهو ادولف ايخمان الذي كان مسؤولاً مع سواه عما سموه الحل النهائي للمشكلة اليهودية أي إبادة ستة ملايين من يهود اوروبا.

ان ايخمان رهن الاعتقال في اسرائيل الآن، وسيقدم قريباً للمحاكمة في اسرائيل.

وكان صوت بن غوريون يتهدج من فرط الانفعال. وبينما كان بن غوريون يلقي خطابه اتجهت انظار الحاضرين في الكنيست من رجال ونساء، الى مكان في القسم الذي لا يشغله اعضاء الكنيست وهناك كان ايسر هرئيل الذي قلما ظهر علانية في الاجتماعات.

ولم يكن احد في حاجة لإعلامه بمن كان وراء حادث اختطاف ايخمان.

كان ايسر يجلس هادئاً تماما في لحظة اكبر انتصار حققه، وعيناه الزرقاوان مصوبتان الى الامام، وهو لا ينبس ببنت شفة.

ومنذ ذلك الحين، لم يعد احد يذكره، حتى في المحادثات الخاصة، باسم ايسر الصغير.

البـــاب الـــرابـــع
لوتـــس: مـروض الخيـــول

كان قادة الموساد يعرفون، وهم يتشاورون بشأن المكان الذي يرسلون اليهم عميلهم الثمين ايلي كوهين، انه سيكون اكثر فائدة في احدى الدولتين العربيتين الاشد عداءً لاسرائيل وهما: سوريا ومصر، وكان عليهم استثناء مصر، وهي مسقط رأس ايلي كوهين، خشية ان يتعرض للتعرف عليه هناك، وكانت سوريا بذلك هي الاختيار المنطقي السليم.

ولم يكن ايلي على علم بذلك، ولكن سبباً آخر جعل رؤ ساءه في الموساد يحجمون عن إرساله الى مصر، فلهم رجلهم فيها، وهو يهودي من مواليد المانيا، يعيش حياة بذخ وترف، وهو يدعى ولفغانغ لوتس.

ولد لوتس في منهايم سنة ١٩٢١، وكان والداه يعملان في المسرح، كان أبوه هانس مديراً، وكانت أمه هيلين ممثلة، وبالرغم من أنها يهودية، إلا أنها لم تكن ذات اعتقادات دينية، وكذلك شأن زوجها هانس، وقد ربيا ابنهما بوصفه المانياً، بدلاً من أن يكون يهودياً، حتى انهما تغاضيا عن ختانه.

وابتعدت الشقة بين الوالدين هناك وفي عام ١٩٣١، وقع الطلاق بينهما. وبعد مرور عامين اخذت هيلين ابنها ولفغانغ، وقد اعتراها الفزع من اللاسامية المتصاعدة في بلدها، وهاجرت الى فلسطين. وهناك عملت هيلين مع مجموعة المسرح الاساسية في البلاد وهي: هابيما. وكانت الحياة قاسية في تلك الايام، ولا سيما حياة المهاجرين الجدد الذين لم يعرفوا احداً في البلاد، ولم يكونوا يتكلمون شيئاً من العبرية.

وتلقى ولفغانغ دراسته في مدرسة بن شيمن الزراعية التي تقع بالقرب من تل أبيب الى جنوبها،حيث اصبح خبيراً في ترويض الخيل وركوبها. وبعد قضاء سنوات قليلة في فلسطين، التحق بجيش الهاغاناه السري، وكان دوره يشتمل على حراسة سيارة الباص المصفحة، وهي الوسيلة الوحيدة للوصول الى بن شيمن، المحاطة بقرى وبلدان عربية بالغة العداء، وكان عليه أيضاً القيام بعمل دورية الحراسة وهو على ظهر الحصان حول المدرسة نفسها.

وفي بداية الحرب العالمية الثانية، استطاع ولفغانغ ان يزيف سنه، وكان مظهره يدل على انه اكبر من سنه، ويلتحق بالجيش الانكليزي، وكان يتكلم الالمانية والعربية والعبرية والانكليزية بطلاقة، مما جعل منه شخصاً جم النفع في استجواب اسرى الالمان. وقد حددت إقامته في مصر. حيث بقي طيلة زمن الحرب، ورقي الى رتبة رقيب (كوارتر ماستر سارجنت) وبعد أن وضعت الحرب اوزارها عاد ولفغانغ الى فلسطين، وزاول عملاً إدارياً في مصفاة الزيوت بحيفا ، ولكنه كان يرغب في القيام بعمل اكثر اثارة ومتعة، وسرعان ما اشتغل بتهريب الاسلحة للهاغاناه، وحين اعلن عن قيام اسرائيل شارك ولفغانغ في بعض من اعنف المعارك واشدها ضراوة في منطقة اللطرون، وبعد انتهاء الحرب بقي ولفغانغ في الجيش، وأصبح آمراً للواء مشاة في حملة السويس برتبة ماجور.

ولم ينقض زمن طويل بعد حملة السويس حتى اتصل رجال الموساد بولفغانغ وسألوه عن رغبته في الالتحاق بهم، والواقع ان من أهم أسباب قوة الموساد قدرته على تحقيق التنويع العرقي والثقافي الهائل في اسرائيل . الأمر الذي يمكنه من حشد عملائه من كل أصل وأصل تقريباً ، وبذلك لا تحتاج هذه الوكالة الى إكراه عميل ما على التقنع بصورة لا تربطه بها روابط صميمة من تنشئته أو صلات عائلية .

وقد اتصل رجال الموساد بولفغانغ لأنه كان رجلاً اشقر اللون، ازرق العينين، وفي وسعه التكلم بالالمانية، وقد عرف عنه الشجاعة والاستعداد بالمجازفة بحياته في اثناء القتال وكانت طبيعته انبساطية منفتحة، وله قدرة ممتازة على التمثيل ورثها عن والدته. ومن الممكن حسبانه من غير اليهود بسهولة اذا اقتضى الأمر لأنه لم يكن مختوناً.

أما ولفغانغ فكان يرى نفسه سائراً في طريق مسدود، فقد أصبح في الخامسة والثلاثين من العمر، ولم يكن يرغب في قضاء ما بقي من عمره وهو يدرب الجنود الاسرائيليين الشبان ، وبالرغم من وعيه التام لما في الحياة التي يعيشها عملاء الموساد من خشونة إلا أنه تقبل ذلك العرض راضياً مسروراً.

وجد ولفغانغ ، مثله مثل ايلي كوهين، ان خبرته السابقة لم تكن شيئاً مذكوراً عند مدربيه من رجال الموساد، فقد خضع لذلك البرنامج المركزي القاسي الذي يخضع له جميع المجندين قبل أن يشهد لهم بالاستعداد لعمل الميدان. وانقضت عدة اشهر وهو يعمل ساعات عديدة يومياً لإتقان مختلف جوانب الجاسوسية.

وبعد التدريب الاساسي، تلقى ولفغانغ دراسة مكثفة في تاريخ مصر وسياستهاوثقافتها. وفي وقت مبكر من عام ١٩٥٧ صدر القرار بإرساله هناك ليتمكن من جمع المعلومات عن الأسلحة

التي يزود السوفيات بها حكومة عبد الناصر.

وكان للموساد سبب آخر في ارسال واحد من كبار العملاء في مصر. فقد تزايدت التقارير الواردة الى الموساد، وهي تتحدث عن تعاظم نفوذ المستشارين الالمان الذين دعاهم عبد الناصر الى البلاد، وقد جاء هؤلاء ومنهم العلماء والاطباء وخبراء البوليس وكان مما يثير قلق الموساد على وجه الخصوص مهندسو الطائرات والطيران. فما الذي كان هؤلاء يفعلونه في مصر؟.

ذلك ما أراد الموساد من ولفغانغ اكتشافه ومعرفته، وفي وسعه بوصفه المانياً ان يتحبب بسهولة الى ابناء وطنه الذين كانوا يخدمون عبد الناصر بكل اخلاص.

بيد أن من الضروري تأمين تغطية مضمونة ـ شخصية منتحلة ـ للوتس قبل مضيه في سبيله. ومنذ البدء تقرر ان يحتفظ باسمه الحقيقي ولا يحاول تبني هوية جدوده تماماً بالرغم من ان اكثر عناصر التغطية ستكون مختلفة، إلا أن بعضاً على الأقل سيكون واقعياً تماماً، ويبدأ الانفصال عن الواقع عند تفسير ما قام به لوتس من اعمال بعد بلوغه لسن الثالثة عشرة من عمره فهو سيدعي أنه قد بقي في المانيا بدلاً من الهجرة الى اسرائيل، وأنه انضم الى جيش رومل في افريقيا حين بدأت الاستعدادات للحرب. وكان ولفغانغ يعرف الكثير من الأمور عن جيش رومل في افريقيا من استجواب الاسرى الالمان، وسيكون في وسعه بمزيد من الدراسة ان يقنع الجميع بأنه صادق فيما يقول.

وبعد الحرب، انتقل ولفغانغ كما شاعت له التغطية الى اوستراليا، وعاش فيها احد عشر عاماً وهو يربي خيول السباق ويروضها. ثم عاد الى وطنه المانيا، ومنها سافر الى مصر، أما عمله في مصر فهو تربية الخيول بالطبع وهكذا كان لتدرب ولفغانغ في مدرسة بن شيمن الزراعية فضل لم يتوقعه احد.

وفي كانون الأول **١٩٥٩** سافر لوتس الى المانيا للاعداد لبناء التغطية، وأوضح للسلطات هناك انه قد سئم العيش في اسرائيل وانه تواق للعودة الى بلده ومسقط رأسه وقد لقي كل مساعدة ممكنة في الحصول على الاوراق الثبوتية اللازمة، وعاش اول الأمر في برلين، ثم في ميونيخ، وظل ينتقل من مكان الى آخر ليزيد من صعوبة اقتفاء الطريق الذي سلكه، فهو يعلم انه لو استقصى احد في مصر البحث عنه لتمكن من معرفة هويته الحقيقية.

وبعد قضاء سنة في المانيا قرر ولفغانغ ورؤساؤه في الموساد ان وقت سفره الى مصر قد حان، فساق السيارة بنفسه الى جنوا، ومن ثم ابحر في سفينة ما الى مصر، حيث وصل في كانون الثاني ١٩٦١.

وشرع السائح الالماني الثري على الفور في الاتصال بمن يعتقد فيهم نفعاً له، وكان من الغايات التي رسمها لنفسه التوصل الى اندية السباق المحلية، ومن حسن الحظ ان اول الاندية التي ذهب اليها كان الفرسان الراقي بالجزيرة الذي يعتبره ضباط الجيش المصري بينهم الثاني، وكان اول من لقي لوتس هناك يوسف علي غراب، رئيس الشرطة المصرية، وقد قدم لوتس نفسه بصفةمربيخيول، وسرعان ما تصادق الرجلان. ولم يطل الوقت حتى انتشرت اخبار وصول القادم الجديد الى الصفوة المصرية، وفي خلال ايام غمر لوتس طوفان من الدعوات الى مآدب الغداء وحفلات الكوكتيل، وحفلات السباحة واخذ ممولو الخيول الاثرياء، يستشيرونه، اما رئيس الشرطة غراب، فقد هيأ نفسه لركوب الخيل معه يومياً.

وكافأ لوتس ما لقي من سخاء مضيفيه العديدين أحسن المكافأة، وكثيراً ما استضافهم وبالغ في إكرامهم، وهو يرقب بعناية ما لمعارفه من درجات وألقاب عسكرية، وكان لوتس وسيماً وجذاباً يمطر النساء بالهدايا، ويغدق عليهن الثناء والاطراء بحصافة وحكمة واستطاع بإرشاد دليله غراب أن يقتني عدداً من الخيول وينزلها في اسطبل نادي الفرسان نفسه.

وبعد قضاء بستة اشهر في القاهرة عاد لوتس الى اوروبا لجلسة يقدم فيها المعلومات الى رؤسائه. وقد سعد هؤلاء كثيراً للتقدم الذي احرزه: فمن الواضح انه ستحقق توقعات مرشده في الموساد، الذي دعاه: عين تل أبيب في القاهرة.

واستعد لوتس للعودة الى مصر، وقد تسلح بمبلغ كبير من المال وجهاز ارسال لاسلكي، هربه من رجال الجمارك في كعب حذاء لركوب الخيل اشتراه في المانيا . ولكن حادثاً مربكاً طرأ قبل عودته ، أثناء سفره بالقطار ، التقى لوتس بشقراء فاتنة تدعى فالترود مارتا نويمان ، وهي لاجئة من المانيا الشرقية ، تقيم في امريكا وكانت آنذاك تقوم بزيارة لاهلها في المانيا ، وسرعان ما وقع الاثنان في شركة الحرب والغرام ، وتزوجا بعد قضاء اسابيع قليلة معاً .

ولم يكن رؤساء لوتس في الموساد يعلمون شيئاً عن ذلك، حتى أنبأهم العميل بأنه متزوج من قبل، ومما ساءهم ما قاله لهم من انه لن يعود الى مصر بدون ان تصحبه زوجته ، وكان هذا امراً غريباً ومثيراً للقلق ايضاً، ففي مهمة خطرة كالمهمة التي انيطت بلوتس، سوف تكون الزوجة عائقاً لا ريب فيه، ولو ألقي القبض عليه في مصر، لاضعف اشتراكه في جريمة قدرته على الصمود امام التنكيل الوحشي الذي لا بد أن يحل به آنذاك.

ومن جهة اخرى لم يكن في وسع الموساد الاستغناء عن خدماته، فقد برهن ولفغانغ من قبل على انه جاسوس ذو نفع جزيل، وكانت التقارير التي يقدمها عن الحوادث السياسية والعسكرية في

مصر دقيقة محكمة ، وهو قد اتقن تغطية لشخصيته المستعارة ببراعة وثقة ، ووعد باستغلالها في المستقبل.

لم يجد أيسر هرئيل، الذي كان ما يزال رئيساً للموساد آنذاك، لم يجد بدأ من الايعاز اليه بالانطلاق في سبيله الى مصر بصحبة زوجته فالترود. وعاد لوتس الى مصر في صيف ١٩٦١ على ظهر السفينة الايطالية (اوسونيا) وهي السفينة التي سيستعملها إيلي كوهين بعد سبعة اشهر في سفره من ايطاليا الى بيروت، وكان على فالترود اللحاق بزوجها بعد اسابيع قليلة، وقد جلب لوتس في حقائب ملابسه، فضلاً عن اجهزة التجسس، دستات من الهدايا اشتراها هو ورجال الموساد في أوروبا.

وعندما القت السفينة مراسيها في ميناء الاسكندرية استقبل لوتس استقبال الملوك وكان رئيس الشرطة المصرية غراب هناك يستقبله شخصياً ويقله بسيارته الى القاهرة، حيث اقيم حفل مفرط السخاء لتكريمه، ولكن الحفل لم يكن لينسي ولفغانغ ان يقيم اول اتصال له باللاسلكي مع تل أبيب.

وكان ولفغانغ يتقاضى راتباً شهرياً قيمته ٨٥٠ دولاراً ولكن حساب نفقاته لم يكن محدوداً وهو بصفته سائحاً ثرياً ينفق بغير حساب، ملزم بأن تكون له موارد مالية كبيرة. وكان من أول ما قام به في القاهرة شراء مجموعة من الخيول العربية الأصيلة، بأموال الموساد وتبريكاته، وكان لوتس يريد إقامة مدرسة لركوب الخيل.

وانخرط لوتس في دوره الجديد هذا بحماسة ومرح، وقبل ان تصل فالترود الى القاهرة استأجر شقة واسعة في ١٦ شارع اسماعيل محمد في حي الزمالك المترف وكان هذا المنزل الملائم على مبعدة دقائق قليلة فحسب من الجزيرة التي يطوقها النيل بذراعيه ومن نادي الفرسان، وفي الجيزة بمقربة من الأهرام استأجر اسطبلاً لخيله ومباني لمدرسته.

وكان ولفغانغ قد اتم جميع الاستعدادات حين وصلت فالترود الى القاهرة وقد سعد أصدقاؤه كثيراً لانباء زواجه حتى انهم غمروا شقته بالازهار بالمعنى الحرفي لهذا التعبير.

وانطلق الزوجان الخليلان في حياة اجتماعية حافلة بالنشاط والمرح ، وكانا يمضيان النهار في ركوب الخيل مع اصدقائهما ، والليل في الحفلات ، وقد اشتملت دائرة معارفهما من عسكريين وسياسيين على رجال اتصال أولي شأن من أمثال البريغادير جنرال فؤاد عثمان والكولونيل محسن سيد وكلاهما يلعب دوراً اساسياً في الاستخبارات العسكرية.

وكان عثمان خاصة جديراً بأن يتعهده ولفغانغ بالعناية والرعاية، فهو بصفته مسؤولاً عن

أحد المصانع الحربية، وقواعد الصواريخ، يضطلع بمسؤولية حماية تلك المنشآت التي اراد ولفغانغ ان يكشف حقيقة امرها. اما حسين الشافعي، وهو نائب رئيس الوزراء واحد مستشاري عبد الناصر الاقربين فكان كثير الحضور لمآدب ولفغانغ وحفلاته وكثيراً ما اطلع ولفغانغ على القرارات الخطيرة التي ستتخذها الدولة قبل أن يعرف موظفو الحكومة الرسميون شيئاً عنها.

وفضلاً عن الاصدقاء المصريين، تودد ولفغانغ الى كثير من الألمان الذين يعيشون في القاهرة وقد امتاز من بينهم بالقرب والصدق ايضاً، الزوجان فرانتس وناديا كيزوف اللذان كانا يعملان في احدى الشركات الصناعية في القاهرة. ومن هؤلاء الاصدقاء «فرهارت بارخ» الذي ادعى كما ادعى ولفغانغ انه ضابط نازي سابق، بيد أن أصدقاء ولفغانغ كانوا يشكون في أمره، وذات يوم انتحى الجنرال فؤاد عثمان بولفغانغ جانباً وقال له:

اسمع يا ولفغانغ، ان هذا الرجل «بلوخ» دائم التحويم من حولك، وهو يصغي الى كل كلمة تتفوه بها، فاحذر منه انه يعمل هنا بصفة رجل صناعة، ولكننا نعلم انه من جواسيس حكومة بون، ونحن نتيح له التصرف بحرية لأن الرئيس عبد الناصر، يرغب في قيام علاقات طيبة مع الألمان.

ونعلم كذلك ان المعلومات التي يحصل عليها «بلوخ» تتسرب الى وكالة الاستخبارات الامريكية وانت بوصفك المانياً تستطيع ان تستغل مركزك هنا، وارجو الا تؤاخذني في هذا القول، فأنت رجل ساذج لا دراية لك بعمل الجاسوسية القذر، ولكنني احببت ان انبهك الى ما يدور حولك.

وشكر ولفغانغ صديقه القلق بإجلال واحترام، ووعده بأن يلتزم جانب الحذر من «بلوخ» غير ان اكثر من عرفهم ولفغانغ كانوا من النازيين السابقين الذين جاء الى مصر لتحري نشاطاتهم. وكان يحل ضيفاً ـ منتظماً ـ في منزل واحد من اشهرهم جميعاً يدعى «يوهان فان ليرس» الذي كان من كبار مساعدي غوبلز، وفي بيت «فان ليرس» هذا قابل ولفغانغ الدكتور «ايزلي» سيىء الذكر وهو الرجل الذي كان يقوم بتجارب طبية زائفة، تثير الرعب، على الوف من الرجال والنساء، والاطفال في معسكر اعتقال النازيين وكان من المعتقد ان «ايزلي» يقيم في مصر لاغراض البحث في حرب الكيماويات الحيوية.

ووجد ولفغانغ ذريعة التظاهر بمصادقة «ايزلي» وامثاله، واحدة من اصعب جوانب مهمته في مصر، وقد كان هذا التظاهر كبير القيمة في تأمين تغطيته، فقد اشتهر عنه التطرف في اللاسامية ولكنه كان يسبب لولفغانغ لحظات من الارتباك والبلبلة وكثيراً ما حاولت عائلة كيزوف التي كان يحبها حقاً ان تقنعه بالابتعاد عن النازيين السابقين وكان يجيب على ذلك في شيء من اللين: لست

معنياً بأمور السياسة، وعلى كل حال، لن اتخلى وانا ابن المانيا البار عن هؤلاء الناس لأن ذوق العصر قد ألف توجيه النقد الى هتلر، ولكنه كان يتضاءل جزعاً في قرارة نفسه لافترائه بغير ما يعتقد على هذا النحو.

وهكذا مضت الأيام والأشهر مع ولفغانغ سهلة ممتعة، تتناسب مع مزاجه الميال الى الحياة الصافية وتربية الخيول. وكان يمضي ايامه في تربية الخيول ومشاكلها ولياليه في الحفلات الكثيرة التي كان ينفق فيها بسخاء على ضيوفه المرموقين من كبار الضباط ورجال الدولة والذين كانوا يعتبرون مصدر معلوماته. وكان يتصل بانتظام مع تل ابيب في المواعيد المحددة.

وفي هذه الاتصالات كانت نقطة الضعف في حلقة لوتس المغلقة. فرغم انه كان يسكن في حي مليء بالسفارات وهذه بدورها لكل منها اجهزة اتصال تتصل بها مع بلدانها إلا أن اتصالات معينة كانت تتم في غير الاوقات المعروفة وبرموز غير مألوفة الأمر الذي لفت نظر اجهزة الترصد اللاسلكي لدى المصريين.

ركزت اجهزة الترصد على هذا الجهاز الغريب وبدأت بحصره تدريجياً حتى امكن تحديده في الشقة التي يسكنها لوتس. ووضع تحت المراقبة الدقيقة لعدة ايام الى ان قطع الشك باليقين ووضعت تحركات لوتس بمجملها تحت المراقبة السرية.

وذات يوم كلف ضابط بقيادة مجموعة من الجنود بمداهمة شقة لوتس وبعد احدى الاتصالات مباشرة اقتحم الضابط شقة لوتس وسأله عن مصدر الارسال اللاسلكي الذي يصدر من شقته وواجهه بالموجة التي يرسل عليها والأوقات التي يرسل بها.

فوجىء لوتس واضطرب قليلاً ولكنه حاول المراوغة وانكر انه يعلم بأي ارسال ولكن الحقائق الدامغة التي كانت قد جُمعت نتيجة الترصد اللاسلكي لم تترك له مجالاً للانكار. وباحساس من شعر انه انتهى اعترف بوجود الجهاز. ودهش ضابط الأمن عندما قال لوتس ببرود:

ستجدون جهاز الارسال اللاسلكي في بلاط الحمام ، وهناك كان لوتس قد خبأه ، فعلاً ، وأرسل الضابط رجلاً لفك البلاط وسرعان ما رجع ومعه جهاز من أرقى الأجهزة المعروفة في العالم وواصل لوتس الحديث فأخبر المصري عن سائر اجهزته، وفي الواح الصابون تم العثور على المتفجرات وعلى فيلم للصور المصغرة- ميكروفيلم- كما تم العثور على أوراق نقدية صغيرة تصل قيمتها إلى ٧٥ ألف دولار.

وبقي الضابط عاجزاً عن تصديق ما يراه، فأمر بإرسال لوتس وعائلته الى مركز للحبس

والاستجواب على الفور وهناك شرع في الاستجواب المركز، فاضطر لوتس الى المراوغة بين الحق والباطل وكانت له من ذلك غايتان:

انقاذ حياة زوجته ووالديها من جهة، وتقديم أقل قدر ممكن من المعلومات من جهة اخرى وقد مكنته قدرته على التمثيل من السير المتوازن وتحقيق كلتا الغايتين معاً.

ومنذ البداية تمسك لوتس بحكاية غطاء الشخصية المنتحلة التي كونها في تل أبيب مع رؤسائه في الموساد، فقد كان المانياً من مواليد مانهايم، تلقى تعليمه في المانيا وعندما شبت الحرب التحق بالجيش وعمل تحت امرة روميل في الجيش الالماني بإفريقيا، وهناك تعلم، كما قال ركوب الخيل وترويضها.

وبعد أن وضعت الحرب اوزارها، سافر لوتس الى اوستراليا حيث قضى الأحد عشر عاماً فيها، ثم عاد الى المانيا مسلحاً بخبرته في شؤون الخيول وهناك عمل بصفة مرشد لأحد اندية ركوب الخيل في برلين عدة أشهر.

وفي نادي الركوب هذا عرض على لوتس عرض سخي فقد اتصل به احد اعضاء النادي الاثرياء- ويدعى - الياس غوردون- وسأله ان كان راغباً في انشاء مؤسسة خاصة لتربية الخيول العربية الأصيلة، وكان هذا حلماً راود خيال لوتس كما قال لمستجوبيه منذ الأيام التي قضاها في افريقيا حين ركب بعض تلك الخيول الرائعة، وقد وافق لوتس على ذلك العرض بلهفة ثم مضى به غوردون للقاء صديق له، من المهتمين بشؤون الخيل، ويدعى روبي برنشتاين وقد اوضح هذان له ان الموقع الذي يفكران بإقامة مؤسسة الركوب فيه هو مصر، وقالا للوتس انهما سيدفعان نفقات زيارته لاستكشاف امكانات المشروع هناك، واعترف لوتس لمستجوبيه بولعه الشديد بحياة الملذات وانه استمتع برحلته ايما استمتاع، وانه قد رضي كل الرضى عن حساب نفقاته وعن المتع التي ظفر بها في تلك الرحلة وسارع الى القول بإن آماله في انشاء مزرعة لتربية الخيل بدت ممتازة تماماً. واشتكى لوتس الى المصريين بقوله:

لم اكن اعلم انني كنت مدفوعاً الى مصيدة.

واوضح لوتس كيف ان شريكيه، قدماه بعيد رجوعه الى المانيا الى صديق ثالث اسمه يوسف وان يوسف هذا كان رجلاً فارع الطول نحيلَ الجسم يتكلم المانية فظيعة، وقد اخبرني في غير مواربة انه رئيس شبكة الاستخبارات الاسرائيلية في اوروبا وان الياس وروبي عميلان من عملائه، ومن الواضح انهم لم يذكروا لي اسماءهم الحقيقية، وقد وقع ذلك علي وقع الصاعقة فقد كنت احسبهم اصدقائي.

واحسست باني في مأزق، فقد طلب مني أنا الضابط الالماني ان اعمل لمصلحة اليهود في مصر، ثم أني سأحصل على مزرعة خاصة لتربية الخيول، وهو حلم طالما راود خيالي، ولكن علي أن أدفع ثمن ذلك، وهذا الثمن هو نقل المعلومات الى اسرائيل.

ووافقت على ذلك في الحال، فأنا رجل ضعيف، بل لم أتردد خشية ان تتعرض حياتي للخطر اذا تراجعت عندئذٍ، وكنت اعلم ان الاسرائيليين متكبرون غلاظ القلوب شأنهم شأن سائر اليهود واعتقدت ان اسلم السبل هي في اتباع اقتراحهم.

واخبر لوتس المصريين بأنه لم يكتشف الحاح الاسرائيليين وارهاقهم له بالمطالب إلا في وقت متأخر، فقد الحوا عليه في جلب المزيد من المعلومات، وكانوا يدفعونه الى تصوير المنشآت العسكرية ويطلبون منه ارسال الرسائل الملغومة الى العلماء الألمان فضلاً عن التقارير اللاسلكية التي كان يبثها الى تل ابيب، وشكا لوتس من أن الاسرائيليين كانوا مثل شايلوك الذي قرأ عنه في رواية شكسبير في درس اللغة الانكليزية بالمدرسة، يطالبون برطل اللحم مرة ومرة ومرة، ونصح لوتس المصريين مخلصاً بقوله: أحذروا التعامل معهم في أي شيء كائناً ما كان.

وقد مثل لوتس دوره تمثيلاً مقنعاً، في انه جندي سابق ابله ساذج، حتى ان دهاة مستجوبيه بدوا ميالين الى اعتقاد صحة دعواه وكانت لهم أسبابهم الخاصة لذلك، وهي اسباب لا تتصل من قريب أو من بعيد بطبيعة دفاعه عن نفسه، فقد كان من مصلحة القاهرة في ذلك الحين اعتقاد صحة اقواله، لرغبتها في اصلاح العلاقات مع المانيا الغربية، وعلمها ان المعاملة اللينة لهذا الجاسوس ستقوي جهودها في تحقيق تلك الغاية، وفضلاً عن ذلك كانت الصحف العربية، مفعمة آنذاك بالحديث عن إيلي كوهين الجاسوس الاسرائيلي الذي تغلغل في اعلى مستويات الحكومة السورية وكانت الأصوات الساخرة في طول العالم العربي وعرضه ما تزال تجهر الحديث عن عميل الموساد الذي أوشك أن يصبح وزير الدفاع في سوريا.

وكانت العلاقات بين سوريا ومصر مزعزعة منذ انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة في عام ١٩٦١ وبقي البلدان في حالة منافسة خفية ولكنها قائمة على كل حال وكان آخر ما يرغب فيه عبد الناصر هو ان يقول له السوريون: لست احسن حالاً منا، فعندك جاسوس اسرائيلي ايضاً.

واذا اقتصر امر لوتس على انه الماني استخدمه الموساد فإن الضرر اللاحق بمصر سيكون في حده الادنى، ومن هنا رغبة المصريين في اعتقاد صحة دعواه.

بيد ان مستجوبي لوتس ألحوا على اجراء اختبار فظ مهين للتحقق من صحة رواية لوتس،

فاذا كان المانياً وليس يهودياً، كما يقول فلماذا لا يحاولون معرفة ان كان مختوناً أم لا؟.

وجيء بطبيب لهذه الغاية، وجرد لوتس من ملابسه ووقف مثلما ولدته امه، امام منضدة معدنية كبيرة مصقولة، وانحنى الطبيب وأخذ يتفحص اعضاءه الجنسية واستغرق ذلك الفحص عدة دقائق، شكر فيها لوتس لوالديه تنكبهما جادة الدين، فقد علم انه لو كان مختوناً لانتهى امره الى المشنقة بلا ريب، وحاول لوتس ان يبقي رأسه مرفوعاً وعينيه مفتوحتين، رغم ضوءين ساطعين ظهرا وكأنهما يثقبان قحف رأسه مثل النار.

وأخيراً لاحت على الطبيب علامات الرضى، وربت على كتف لوتس وكانما يقول له: لا تقلق، فأنت صادق.

وكان الحظ الى جانب لوتس فلم يكن المصريون متلهفين على اعدامه، لأنهم يعرفون تلك الخصومات بين القوى الداخلية التي جعلت من إعدام- ايلي كوهين- ضرورة سياسية في سوريا. وفضلاً عن ذلك ابدى لوتس تعاوناً معهم على نحو افاده هو وأفاد اسرائيل ايضاً. وقد راهن لوتس منذ البداية على ان تظاهره بالتعاون الكامل سيمكنه من التحكم في المعلومات التي يفضي بها الى حد ما، ولو أنه التزم الصمت، وحاق به العذاب، فلن يدري ما الذي يبوح به في خاتمة المطاف.

وحتى قبل المحاكمة، وافق لوتس على توجيه حديث بالتلفزيون الى رفاقه الالمان، وكانت زوجته فالترود تجلس بمقربة منه، وهو يتحدث بصدق ووضوح على شاشة التلفزيون قائلاً:

عملت في شبكة الجاسوسية الاسرائيلية في مصر منذ عام ١٩٦١، وقد بعثت الى الاسرائيليين بمعلومات تفصيلية عن الصواريخ السوفياتية في قواعدها بمنطقة قناة السويس، وقمت بمهمات تجسسية اخرى، وكانت عدسات التصوير تتجه ، وهو يتحدث الى زوجته التي فاضت عيناها من الدمع تستدعيان الرحمة والرثاء. إنني نادم على ما فعلت، ولم اتحقق إلا الآن من الاضرار التي اقترفتها لما في نفسي من الجشع للمال، وقد عاملني المصريون معاملة حسنة في السجن. وكانت هذه العبارة صادقة تماماً.

واذا اراد الاسرائيليون ان يبعثوا الجواسيس الى مصر، فليرسلوهم من بني قومهم في المستقبل، ولا يجندوا الالمان الشرفاء للقيام بتلك المهمة، وأنا أنصح الالمان جميعاً ممن يفكرون في مثل ذلك العمل بالاحجام عنه.

وغني عن البيان ان المصريين قد ابتهجوا للطريقة التي قام فيها اسيرهم النادم بدور الدعاية لهم. ولم يكونوا يعلمون ان هذا الحديث التلفزيوني قد استقبله قادة الموساد بمثل ما ابتهجوا به

ايضاً، فقد برهن ذلك برهاناً حاسماً، على ان المصريين ما زالوا يعتقدون صحة غطاء شخصيته المنتحلة- وانه ما زال يحظى بالأمان.

وافتتحت جلسة المحاكمة في تموز ١٩٦٥ واذيعت اولاً من التلفزيون المصري، وحظي لوتس وزوجته بمحامي دفاع، كما سمح لمراقب من المانيا بحضور جلسة المحكمة.

واتضح، طيلة جلسات المحاكمة، ان المصريين لم يعقدوا العزم على الظهور امام العالم بمظهر المتحضرين فحسب، بل وعلى ان يحتفظوا باعتقادهم صحة رواية لوتس في انه من أصل الماني. أما لوتس نفسه فواصل تمثيل الدور ببراعة تامة، وهو يجمع بمهارة بين الحقيقة والتضليل.

وعلى سبيل المثال، قضى لوتس اوقاتاً طويلة وهو يشرح التفصيلات المتشعبة أشد التشعب، فيما وقع لجهاز ارساله الأول، فقد وجده صعب التجميع والاصلاح. وفضل لوتس القول في انه فكك ذلك الجهاز الى اجزاء صغيرة ثم مضى للتنزه في مكان ما على النيل، واستأجر قارباً وجذف في النهر، ثم القى بحطام ذلك الجهاز في قاع النهر، وأعرب عن استعداده لارشاد السلطات الى ذلك الموقع بدقة وزعم انه يقع قبالة خمسة اشجار نخيل، الى الجنوب من. . .

ثم تابع لوتس حديثه في وصف تفصيلي لا أول له ولا آخر. وكان مشاهدوه على شاشة التلفزيون يعتقدون صحة كل ما يتفوه به، وكذلك شأن من حضروا في جلسات المحاكمة وألح السجين غير مرة على ان زوجته لم يكن لها يد فيما قام به من اعمال تجسسية واوضح لوتس:

لقد التقيت بها مصادفة في القطار، وكانت تعلم انني ابث الرسائل من جهاز الارسال اللاسلكي الذي في غرفة النوم، فقد كانت تشاهدني وأنا اقوم بذلك، ولكنها كانت تعتقد اني افعل ذلك لمصلحة الناتو (الحلف الاطلسي) بما يقتضيه عملي.

وفي المحكمة، بدت فالترود رشيقة انيقة في ثوبها الابيض، وحظيت بتعاطف القاضي وجمهور المشاهدين المصريين للتلفزيون حين قالت:

لقد صعقت لمعرفة حقيقة ما كان يقوم به زوجي من نشاطات، ولكن واجبي يقضي بأن أقف معه في أوقات المحن والشدائد، ومهما يكن الأمر غريباً في نظركم، فإنني احب زوجي الآن اكثر من أي وقت مضى «ان مصيره رهن ارادتكم وأنا التمس منكم الا تقسوا عليه كثيراً».

وقال محامي فالترودوهو يدافع عنها:

من الواضح ان حب السيدة لوتس لزوجها هو الذي ادى بها الى المثول امامكم، فقد كانت

تعلم انه يتجسس، ولكنها حسبت انه يفعل ذلك من اجل- الناتو- ولم يكن في وسعها معرفة حقيقة عمله، فهي لاسامية وكارهة لاسرائيل.

ومع سير المحاكمة : اتضح ان الزوجين لوتس قد تمكنا من اقناع الجميع بصدق أقوالهما. بالطبع كان لوتس جاسوساً، كما قالت السلطات، ولكنه كان على الأقل كما كانت زوجته الجميلة، من الألمان لا من اليهود.

واذا كان الجمهور المصري قد ارهف الآذان لسماع كل كلمة قيلت في قاعة المحكمة، فإن قيادة الموساد العامة لم تكن اقل اهتماماً من جمهور المصريين، فقد درست كل قصاصة معلومات، وكل نبذة من الشهادات، مرة بعد اخرى. ولكن، ما الذي عرفه المصريون حقاً عن «عين تل ابيب في القاهرة».

وحدثت اللحظة الوحيدة التي ارتاع لها الزوجان لوتس في وقت متأخر من المحاكمة عندما وصلت رسالة من المانيا. بعث بها محام من ميونيخ اسمه- الفرد زايدل- كان يمثل بعض عائلات ضحايا الرسائل الملغومة. وقد اعلم «زايدل» المتعطش للانتقام، بالنيابة عن موكليه، اعلم في رسالته المحكمة بأن «لوتس» مواطن اسرائيلي في واقع الأمر، وعين- زايدل- السنة التي هاجر فيها لوتس من البلاد، واشار الى ان أمه من اليهود.

وكشفت الرسالة النقاب عن ان - لوتس- قد خدم في الجيش الاسرائيلي، بصفة ضابط، وان الموساد قد ارسل العملاء الى المانيا عقب اعتقاله لتلقي الاخبار عنه هناك، ولما عرضت رسالة التجريم على لوتس خانته شجاعته هنيهة من الزمن، ولكنه سرعان ما استجمع قواه وقال موضحاً:

ما هذا إلا جهداً قام به ممثلو العلماء الألمان، الذين يصنعون الصواريخ من أجل إعدامي شنقاً.

وفي الجلسات المغلقة، اقسم لوتس امام القضاة ان تلك المعلومات غير صائبة، وان والدته لم تكن سوى امرأة بروتستانتية توفيت في أثناء غارات الحلفاء على برلين في عام ١٩٤٤، وقال:

«صحيح انني قمت ذات مرة بزيارة اسرائيل، وبقيت هناك مدة ستة ايام، بعدما الح علي رؤسائي في اوروبا بالذهاب هناك للاجتماع مع ضباط الاستخبارات الاسرائيلية، وفي اسرائيل قابلت رجلاً اسمه مئير أو ما يشبه ذلك، ولكن الحقيقة الوحيدة التي وردت في الرسالة هي اسم مسقط رأسي: مانهايم.

ورفضت المحكمة تلك المعلومات التي تهدف الى تجريح المتهم.

وفي ٢١ آب ١٩٦٥ أصدرت محكمة القاهرة احكامها على ولفغانغ وفالترود لوتس، وقد حكم على- ولفغانغ- بالسجن المؤبد مع الاشغال الشاقة، وبغرامة قيمتها ٣٢٥٣٩,٥٠ من الجنيهات المصرية، وعلى- فالترود- بالسجن مدة ثلاث سنوات، وغرامة مقدارها ألف جنيه مصري. واطلق سراح- فرانتس كيزوف-. اما المصري الوحيد الذي تأثر بنشاطات لوتس التجسسية فكان الجنرال غراب الذي جرد من رتبته وادخل السجن.

ولم تنفذ عقوبة الاشغال الشاقة بحق السجين ولفغانغ لوتس، ولم يقتصر الأمر على انه قد حظي بامتيازات استثنائية فحسب بل انه كان يقابل زوجته من حين الى حين ويطلب وجبات طعامه من احد مطاعم القاهرة، كما كان سجين آخر يقوم بتنظيف زنزانته.

وفي سجن- ليمان طرة- البغيض، التقى لوتس بعدد من السجناء اليهود، منهم- فيكتور ليفي- صديق ايلي كوهين-، الذي حكم عليه بالسجن مدى الحياة، لإلقائه القنابل في مصر. وبالرغم من انه كان ما يزال في سن الشباب، إلا أن الشيب خط مفرقه وقد قضى- ليفي- احد عشر عاماً تعيساً في الاعتقال بمصر.

ومن الذين القي القبض عليهم في ذلك الوقت: فيليب ناتاسون، وروبرت داسا. وكانت رفيقتهم- مارسيل نينو- تقضي مدة حكمها وهي ١٥ عاماً في سجن النساء الذي ارسلت اليه- فالترود-.

ولقي لوتس حفاوة وترحيباً لدى رفاقه العملاء، وإن كانوا قد حسبوه المانياً في بداية الأمر. وأخيراً برئت ساحة ولفغانغ، وشد ما دهش - فيكتور ليفي- عندما تحدث اليه لوتس بالعبرية، ومن بعد اشتدت أواصر الالفة بينهم اكثر من ذي قبل.

وقد وضع هؤلاء الرجال وغيرهم من السجناء- السياسيين- في الدور الاعلى من مبنى سجن - ليمان طره- وبالرغم من قساوة الحياة التي عاشها فيكتور والجواسيس الآخرون في بادىء الأمر، اذ فرض عليهم العمل في مقلع للحجارة في السنوات الثلاث الاولى من فترة حكمهم، إلا انهم تمكنوا من اصلاح احوالهم اخيراً. فقد كانوا يرشون السجانين بما يرد اليهم من السجائر، وبذلك تمكنوا من اعداد وجبات طعامهم في زنزانتهم، بل انهم قاموا بتوصيل الكهرباء- من كابل خارجي الى الداخل- ليتسنى لهم القراءة في الليل.

وقضى لوتس عامين في سجن- ليمان طره- وكانت زوجته في سجن آخر في اثناء ذلك، ثم نشبت حرب الايام الستة في ١٩٦٧، فأدخلت تغييرات على حياة لوتس وحياة غيره من الجواسيس السجناء أيضاً، فقد تم نقلهم الى زنزانات سرية للغاية، وانقضت مدة من الزمان وهم

خائفون من القتل، بقصف الطائرات الاسرائيلية أو بأيدي المصريين الغاضبين.

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ووضعت الحرب اوزارها، واعيدوا الى زنزاناتهم العادية وحل عيد الميلاد في ١٩٦٧، بعد ثمانية اشهر من الحرب واستطالت السنون في وجه ولفغانغ وفالترود وقد بقيت من دونه ثلاث وعشرون سنة اخرى.

ولكن معنوياته بقيت متماسكة لعلمه ان من مبادىء الموساد الاساسية، محاولة اطلاق سراح الاسرى من عملائه، بل واستعادة اجساد من يموتون من الجواسيس. ولكنه كان يعلم ايضاً ان قوة الموساد محدودة، فقد عجزوا عن تخليص- ايلي كوهين- من حبال المشنقة. وهنا ايضاً في سجن- ليمان طره- شاهد ولفغانغ بأم عينه برهاناً ساطعاً على ذلك، مجسداً في شخص فيكتور ليفي ورفاقه فلم يكن من السهل انقاذ هؤلاء الرجال بالرغم من كافة النوايا السامية.

بيد ان لوتس لم يعلم ما كان يدور عندئذٍ من مفاوضات بالغة التعقيد بين اسرائيل ومصر بوساطة اوثانت، السكرتير العام للأمم المتحدة، وممثله في الشرق الاوسط- غونار يارنغ-. وكانت الصفقة الاولى قد تم الاتفاق عليها آنذاك.

ففي مقابل ٥٠٠٠ من الجنود المصريين الذين اسروا في حرب عام ١٩٦٧ طالبت اسرائيل بإطلاق سراح جماعة من رجال الضفادع البحريين وبعض الطيارين الذين كانوا في القاهرة آنذاك.

على ان الاسرائيليين قد تقدموا بعرض آخر، فقد كانوا يحتجـزون عشرة من جنرالات مصر واعداداً من كبار الضباط المصريين في معسكرات الحرب لديها. وسيطلق سراحهم اذا وافقت القاهرة على إعادة الجواسيس الاسرائيليين العشرة الموجودين لديها الى اسرائيل.

وقد تصدر قائمة اسماء هؤلاء الجواسيس اسماء ولفغانغ وفالترود لوتس. وللمرة الاولى كشفت تل ابيب النقاب عن الحقيقة، واعترفت بأن الرجل الالماني لم يكن سوى مواطن أسرائيلي في حقيقة الأمر.

واستغرق الأمر ثمانية اشهر من المفاوضات الدقيقة مع الرئيس جمال عبد الناصر، الذي يتصف بالحساسية المفرطة. فلم يكن المصريون يريدون ان يفقدوا ماء وجههم بأي حال من الأحوال وينبغي ان يتم كل شيء في أقصى درجات السرية، كما انه لا ينبغي أن تظهر الصحف اية انباء عن اطلاق سراح الجواسيس الاسرائيليين. وأخيراً، ينبغي أن يرسل خطاب الى عبد الناصر، يشكر له دوافعه الانسانية، ويعلن ان الاسرائيليين موافقون على الاكتفاء بوعده بالوفاء بما يترتب عليه في الصفقة، وقد اطلق الاسرائيليون العديد من جنرالات مصر، رمزاً على حسن

النية، قبل أن يطلق سراح جاسوس اسرائيلي واحد.

وقد وفى ناصر بوعده، وتبين ان الجواسيس جميعاً ،كانوا يعانون من أمراض ـ القلب، أو السرطان أو أمراض أخرى مستعصية الشفاءـ. ومنحوا جميعاً شهادات طبية بهذا المعنى. وقد جرى اطلاق سراحهم بهدوء، وظهروا في اسرائيل بدون اعلان عنهم. اما لوتس وزوجته فقد نقلا الى مطار القاهرة في ٤ شباط ١٩٦٨، ومن هناك استقلا طائرة ـ لوفتهانزاـ ٦٧٤ متجهة الى ميونيخ عبر اثينا ولكنهما لم يبلغا المانيا، ففي اليونان نقلا من الطائرة الى طائرة اخرى متجهة الى لندن برعاية من اشتبه في انهم من رجال الموساد الاسرائيلي. وبعد مرور ٤٨ ساعة وصل الزوجان تل ابيب، وهما يرتديان ملابس اشترياها من فرعـ ماربل ارشـ في محلاتـ مارك وسبنسرـ حيث اختلطا مع جمهور غفير من الزبائن العرب من بلدان الشرق الاوسط.

وعاش ولفغانغ وفالترود في منزل متواضع في ضواحي تل أبيب، ومن حين الى آخر كان يزورهما الهرـ اوتوـ والسيدةـ كارانويمان ـ، والدا فالترود اللذان طارا اليهما من منزلهما في مدينةـ هايلبرونـ الالمانية.

وبعد سنوات قليلة انقلب الزمن على الزوجين، وأدار لهما ظهر المجن، فاعتلت فالترود فجأة وقضت نحبها، وكان رفاق ولفغانغ في السجن، من أمثال مارسيل نينيو وفيكتور ليفي وفيليب ناتانسون، يكثرون من زيارته لمواساة قلبه الكسير. وما زال ولفغانغ حتى هذا اليوم يتساءل ان كانت صحة زوجته قد داخلها الوهن من جراء العامين اللذين قضتهما في السجن بمصر.

ومنذ وفاةـ فالترودـ لم يقر لولفغانغ قرار، ومنيت مدرسة الركوب التي انشأها في اسرائيل بالفشل. وفي عام ١٩٧٤ سافر الى الولايات المتحدة لجمع بعض المال، كما قال، فلم يكن في اسرائيل ذلك العدد من الزبائن الاثرياء الذين اعتاد ان يقابلهم بين اغنياء الالمان والمصريين على حد قوله.

واستقر لوتس أول الأمر فيـ لوس انجلوسـ ثم انتقل الىـ سياتلـ حيث عاش في شقة ذات تسع غرف مع زوجته الجديدة وهي امرأة اسرائيلية تدعىـ نأوميـ. وقد افتتح لوتس مع شريك آخر وكالة للتحقيقات الخاصة، فهو كما قال، يعرف شيئاً ما عن أمور الأمن.

ولكن تلك الوكالة انهارت عندما هربت زوجة شريكه ومعها صندوق مال الشركة. وفي كانون الثاني من عام ١٩٧٨ ذهب لوتس الى المانيا وليس معه سوى الفي دولار في جيبه، وفي مدينة ميونيخ اصبح بائعاً لأدوات صيد الأسماك في متجر كبير للبيع بالتجزئة. وقد تحدث لوتس عن المشكلات المالية التي نغصت عليه حياته فقال:

استخدمت كل رواتبي المتأخرة، والتعويضات التي دفعها لي الموساد، من اجل اقامة مدرسة لركوب الخيل في اسرائيل ولكنني خسرت كل شيء. أما الآن فإن الموساد يقدم لي تقاعداً شهرياً قيمته ٢٠٠ دولار، ولا اعتقد انه مبلغ سخي على كل حال.

وبعد ان قام الرئيس السادات بزيارة القدس، وبدا الصلح بين اسرائيل ومصر امراً محتمل الوقوع تضاربت الأمواج وتلاطمت في ذهن لوتس كما سماها:

لعلهم يسمحون لي بالعودة الى مصر، ففي ودي أن أقيم مدرسة لركوب الخيل على ضفة النيل. قد لا يسمحون لي بذلك، فقد استغفلتهم كثيراً، وما اظنهم يغفرون ذلك ابداً.

الباب الخامس
ايلي كوهين

استشاطت جماعة اليهود في فلسطين أو (اليشوف) غضباً في عام ١٩٣٩، ومعها الحركة الصهيونية، من جراء الكتاب الابيض الذي اصدرته الحكومة البريطانية، وهو يجمل سياسة تلك الحكومات في المستقبل في فلسطين، وستقوم بريطانيا بدعم استقلال تدريجي للدولة الفلسطينية، غير انها ستحدد عدد مهاجري اليهود اليها بخمسة وسبعين الفاً في السنوات الخمس الاولى، اما بعدها فينبغي ان تعتمد اية هجرة ممكنة على موافقة عرب فلسطين والدول العربية.

وفي المؤتمر الصهيوني الخامس والعشرين الذي عقد في جنيف في آب ١٩٣٩، كان الاتجاه العام هو اتجاه المعارضة النشيطة للبريطانيين. بيد ان ذلك الاتجاه كان قصير الأجل، فبعد أيام قليلة من انتهاء المؤتمر، قامت جحافل هتلر بغزو بولندا، ونشبت الحرب العالمية، وقد اعلن اليشوف من أقصاه الى أقصاه عن مساندته لجهود بريطانيا في الحرب ضد النازيين وبذل اليشوف جهوده للتعاون معها تعاوناً كاملاً. وقد ساهم في تقديم المهارات التقنية في عدد من المجالات. ومنها الاستخبارات، وحاول، دون أن يفلح كثيراً في محاولته ان يقيم قوته الضاربة الخاصة.

وانتفع البريطانيون اي انتفاع من عرض اليهود تقديم المساعدة العسكرية، عندما كانت جحافل الجنرال روميل، تتقدم نحو مصر بانتظام في ربيع عام ١٩٤١ وقد أقام الجيش اليهودي أي الهاغاناه، قوة ضاربة خاصة، تدعى البالماخ للقيام بعمليات خاصة، بل ان الآرغون ، وهي منظمة متطرفة تم تنظيمها للقيام بعمليات انتقامية ضد هجمات العرب قد تعاونت مع الانكليز ايضاً.

وطرأ تحسن على الوضع العسكري في النصف الثاني من تلك السنة، ولكن روميل عاد في بداية ١٩٤٢ فتقدم صوب الحدود المصرية، وتعرضت فلسطين لامكان وقوع الغزو، وهنا ايضاً تناست القوات اليهودية خلافاتها الداخلية، وخلافاتها مع البريطانيين، وقامت بعمليات التنظيم والتجنيد لتفادي امكان وقوع الغزو.

وقد أحبط ذلك الامكان في خريف ١٩٤٢ بعد النصر الحاسم في معركة العلمين. وعاد

الألمان لا يؤلفون خطراً على فلسطين، وعندئذٍ شرع الانكليز في اتباع سياسة اكثر حزماً تجاه المستوطنين اليهود فيها وبدأوا يصادرون الاسلحة حتى من الهاغاناه، الذين حاربوا معهم منذ بداية الحرب كما حاولوا فرض القيود على النشاط السياسي في البلاد. وقد تفاقمت المشاعر المعادية للانكليز، من جراء لامبالاة الانكليز الظاهر تجاه افناء يهود اوروبا، واصبحت انباء ذلك اكثر تواراداً وإلحاحاً في عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٣.

وفي هذا الجو العدائي، اتبعت بعض الجماعات المتطرفة، سياسة المعارضة المتطرفة، سياسة المعارضة العنيفة النشطة ازاء الانكليز وكان من طلائع هذه الحركة جماعة (لحي) بزعامة ابراهام شتيرن، التي انشقت عن منظمة الارغون في عام ١٩٤٠، وقد بقيت (لحي) هذه معادية للانكليز طيلة مدة الحرب.

والقى الانكليز القبض على شتيرن في شباط ١٩٤٢ ونفذوا فيه حكم الاعدام الفوري وبذلك قضي على جماعته قضاء فعلياً وإن بقي بعض اعضائها يقومون بشن هجمات يائسة على الانكليز، وقد انضمت الارغون الى هؤلاء في عام ١٩٤٣ واستبدلت بسياسة التعاون مع الانكليز سياسة التمرد ضد المحتل الانكليزي.

وبلغ التمرد ذروته في اعمال التطرف في ٥ تشرين الثاني ١٩٤٤ ففي ذلك اليوم قام شابان اعضاء (لحي) وهما الياهو بيت زوري والياهو حكيم بمطاردة وزير الدولة البريطاني لشؤون الشرق الأوسط، اللورد موين، واغتالاه خارج منزله في القاهرة، وادى حادث الاغتيال الى ارتفاع صيحات الاستنكار في مختلف ارجاء العالم، وثار الرأي العام الانكليزي والعالمي لذلك، وفي فلسطين ومصر ادان المسلمون والنصارى واليهود هذا العمل،وتعاون- اليشوف- ومنه الارغون تعاوناً تاماً مع البوليس البريطاني في اجراءات القبض على المتعاونين من جماعة (لحي).

وفي مصر عمت مشاعر القلق السكان اليهود البالغ عددهم حوالى ٣٠٠ ألف نسمة، لما قد يترتب على حادث الاغتيال من آثار على وضعهم الذي لا يدعو الى الارتياح، وطوال الثلاثينات والاربعينات من القرن الحالي ادت الاصطدامات التي وقعت بين المسلمين واليهود في فلسطين الى تنامي مشاعر العداء في مصر إزاء السكان اليهود فيها، ولما حاول الصهاينة الاستعانة بيهود مصر قوبل طلبهم بالرفض والاستياء معاً.

وحين قامت احدى العميلات وهي روت كليفر بزيارة احد التجار البارزين في منزله قال لها وهو يعظها: خير لليهود التزام جانب الهدوء. والبقاء في منأى عن عيون الناس. كما قال لها ان الكلاب سوف تتعقبها اذا هي حاولت التماس المساعدة مرة اخرى.

بيد أن الحال ما لبثت ان تغيرت، عندما مثل الشابان، عضوا جماعة ـ لحي ـ اللذان اغتالا لورد موين، للمحاكمة، وقد خلف سلوكهما انطباعاً عميقاً حتى لدى من كانوا يعارضونهما اشد المعارضة .ونقل رجال الصحافة انباء شجاعتهما واخلاصهما بإعجاب ،وكثيراً ما قاطع هذان الشابان الاجراءات القانونية ليدليا بخطابات سياسية، وهما يدعيان ان عملهما كان واجبا وطنياً، وأنهما قد لجآ الى العنف لأنه الوسيلة الوحيدة التي تمكن وطنهما من الظفر بحريته،وكرر هذان الرجلان اتهامهما للحكومة الانكليزية بتركها الوف اليهود يتعرضون لخطر الموت في معسكرات الاعتقال النازية وذلك بمنعهم من الهجرة الى فلسطين.

ومع هذا كله، حكم على القاتلين بالاعدام شنقاً وتم تنفيذ الحكم في ٢٢ آذار١٩٤٥ .وقد خلقت دراما تنفيذ حكم الاعدام انفعالات عميقة في نفوس العديد من يهود مصر، كائنة ما كانت معتقداتهم السياسية والدينية، وكانت نقطة تحول حاسمة في موقفهم تجاه فلسطين والصهيونية.

وكان من هـؤلاء اليهود شاب يبلغ الحادية والعشرين من عمره، يدعى الياهو كوهين.

ولد ايلي كوهين في الحي اليهودي بالاسكندرية في ١٦ كانون الاول ١٩٢٤، وكان ابواه شاؤول وصوفي كوهين قد هاجـرا من مدينة حلب السورية الى مصر، وكان شاؤول يكسب قوته مما يبيعه لبعض الزبائن الاثرياء من ربطات عنق، تصنعها الايدي من الحرير الخالص، المستورد من باريس، وقد استقامت امور العائلة ولكنها لم تكن تعيش في يسر وبحبوحة من العيش، وقد بلغ عدد اطفالها ثمانية.

وقد نشأ ايلي، شأنه شأن أخوته واخواته، ليصبح يهودياً مستقيماً، ولكنه اختلف عنهم، في مراعاته التامة للدين، وفي حين كان اخوته يتخلفون عن صلواتهم ويقضون النصف الثاني من نهار السبت مع اصدقائهم، كان ايلي يحل في الكنيس، وفي اثناء الأعياد الدينية، كان ايلي يُرى دائماً يتعبد مع اشياخه.

وتفوق ايلي في المدرسة، وظفر بمنحة دراسية مرموقة للتعليم في مدرسة الليسية الفرنسية، وكان احد الطلاب اللامعين، وفي وقت مبكر أصبح يتكلم الفرنسية والعبرية بطلاقة في كلتيهما، وكان في اوقات اللعب يؤثر القراءة والانكباب على الدرس، على المشاركة في الألعاب، وقد درس التلمود، وحفظ بعض النصوص الكبيرة عن ظهر قلب وكانت له ذاكرة مدهشة، يجب أن يمتحنها، فكثيراً ما جلس في شرفة شقته، يسجل ارقام السيارات المارة في الشارع تحته، ثم يقدم قائمة الارقام الى ابويه أو الى واحد من اخوته، ليذكر له تلك الأرقام جميعاً، دون ان يرتكب أي خطأ فيها.

وكان ايلي اول صفه في كل موضوع، كما قال احد زملائه في المدرسة. بيد انه لم يكن يثير مشاعر الغيرة او الاستياء التي تقترن باصحاب الانجازات الكبيرة من امثاله، وكان ايلي رياضياً قوي البنية، يمضي في كل يوم للسباحة في مياه البحر الابيض المتوسط، ثم يسير مسافات طويلة على الشاطىء سابقاً في كثير من اليسر من أراد أن يباريه من رفقائه، وفي الصيف كان يقدم يد العون لصحبه بالمكتب وذلك بإحالة مذكراته فيما بينهم، أو يتركهم يطلعون على ما خطت يداه في هذا الامتحان او ذاك.

وفي احتفال بارمتسفا- عيد البلوغ لدى اليهود- اهداه والده آلة تصوير كوداك، وأصبح التصوير شغله الشاغل وأخذ يطوف شوارع المدينة وهو يلتقط الصور، ثم يلصقها بعناية في دفتر خاص بالصور والقصاصات، وقد قرأ عشرات الكتب عن فن التصوير وأصبح خبيراً في شؤون التحميض والطبع، وكان يزجي كل دقيقة من أوقات فراغه في الغرفة السوداء.

وادت ميوله في البحث، واهتمامه العميق باليهودية، الى ارساله اول الأمر الى مدرسة- ميمون- في القاهرة ثم الى - مدارس رامبام- وهو مركز لدراسة التلمود، يشرف عليه- موشه فنتورا كبير حاخامي الاسكندرية، وهناك برهن ايضاً على انه من التلاميذ المتفوقين.

وفي الوقت نفسه افتتن ايلي بنمط حياة رفاقه المصريين من يهود وغيرهم، وكان يطوف في احياء المسلمين، ومعه آلة التصوير، يتحدث الى الناس، ويلتقط صوراً لهم، ولم يكن يعاني اية مصاعب في الانسجام مع كل من قابله من الناس، على انه كان في صميمه متوحداً لم تربطه صداقة وثيقة العرى بكثير من زملائه في الصف ويبدو انه كان يؤثر الوحدة او البقاء في البيت مع أهله.

ولعل السبب في ذلك ما عانته اسرته من ضيق ذات اليد فنادراً ما استطاع والداه ان يقدما له مصروف الجيب، وفي ايام العطل كان ايلي يمارس اي عمل يعرض عليه لإصلاح الخلل في ميزانية الاسرة وكان يقدم كل قرش يكسبه الى والديه.

وبين العاشرة والعشرين من عمره، تحول اهتمامه عن الموضوعات الدينية الى الرياضيات والفيزياء ولذلك تخلى عن الخطط التي اعدها ليصبح حاخاماً ، وصمم على خوض غمار العلم بدلاً من ذلك، وقد أسف الحاخام الذي درّسه من قبل لهذا القرار أشد الأسف، ولكنه اكتفى بأن قال: ان له ذهن عبقري، وقد كان في وسعه ان يصبح واحداً من كبار دارسي التلمود.

ولما عرفت مصر الحرب في عام ١٩٤٠، اكتسب ايلي هواية جديدة ألا وهي الأسلحة، وكان مشغوفاً بوجه خاص بمختلف انواع الطائرات التي اخذ يلصق صورها بدفتر صوره

وقصاصاته. وحين كان الطيارون الالمان يحومون بطائراتهم في غارات القصف، التي ترمي الى تدمير خطوط المساندة الخلفية للبريطانيين كان ايلي كوهين يتجاهل النداءات الموجهة اليه بالذهاب الى الملجأ، ويظل في الخارج، وهو يحاول تحديد هوية الطائرات. أما محاولاته في تصوير المعارك بين الطائرات فكانت تنتهي لسوء حظه بالفشل، اذ لم تكن الكوداك الصغيرة قادرة على تحقيق مثل تلك المهمة.

بيد ان بعض الآثار الأخرى التي تفرعت عن الحرب قد تمكنت من الاستحواذ على اهتمام ايلي آنذاك.

وكان ايلي، اليهودي المتدين يعتبر نفسه مصرياً صميماً. ويتعاطف مع القضية الوطنية المعادية للانكليز، بل انه انضم الى المتظاهرين ضد السادة الاجانب، وقد حذره ابواه من ذلك النشاط أشد التحذير فلم يكونا يرغبان شأنهما شأن معظم كبار السن من يهود مصر، في ان تلتفت اليهما الانظار، ويعني هذا فيما يعنيه من أمور تجنب المشاركة في الصراع الذي يدور في فلسطين المجاورة، وكان ايلي يعلم علم اليقين ذلك الصراع، ولكن الأمر قد بدا له ضعيف الصلة بنفسه، كان مصرياً، وطنه الاسكندرية، ولم يكن ما يجري في فلسطين يهمه في شيء.

ولكن محاكمة قاتلي لورد موين، وتنفيذ حكم الاعدام فيهما اديا الى قلب هذا التصور رأساً على عقب.

أحس ايلي برباط وصله بالارهابيين الشابين، فقد كانا في مثل سنه تقريباً، وكان كلاهما سمياً للنبي العظيم ايليا مثله، وقد فتحت الشجاعة التي واجها بها الموت عينيه على اهمية قضيتهما، ودفعته الى البحث عن اسلوب فعال في التعبير عن تعاطفه مع القضية الصهيونية.

ولم يطل عليه الأمد في ذلك فقد انشىء لاستخبارات «علياه بيت» التابعة للموساد، فرع يعمل في مصر منذ عدة سنوات، وكانت «علياه بيت» المذكورة تنظيماً اقيم في فلسطين، من اجل تهريب المهاجرين اليهود من مراقبة السلطات البريطانية، وقد كانت هذه المجموعة التي اقامتها «روث كليفر» واشرفت على تنظيمها، تستخدم السفن والشاحنات والجمال ايضاً في نشاطات التهريب التي تمارسها. وعمل ايلي مع هذه الجماعة في مصر، بصفته ساعياً في بعض الاحيان وذلك ضمن نشاطاته في حركة شبان يهود مصر المسماة «هاشيروت».

بيد ان زعماء استخبارات الهاغاناه قرروا في عام ١٩٤٤ توسيع شبكة استخباراتهم في مصر، وعندما لاحت في الأفق بشائر انتهاء الحرب تطلعوا الى استئناف كفاحهم طيلة الوقت لتحقيق قيام الدولة المستقلة، واقتضت زيادة حدة المشاعر اللاسامية في مصر مضاعفة حملاتهم

لإخراج اليهود منها، وكانوا يرغبون كذلك في الاستحواذ على اكداس الاسلحة التي جمعها الحلفاء في مصر.

وكانوا، بصفة عامة، في حاجة الى معلومات، فالقاهرة مقر الانكليز العام في الشرق الاوسط، وهي بذلك خير مكان يستشف منه ما يخبئه الانكليز من خطط للمنطقة، ومن الممكن تحري مواقف زعماء العرب فيها: ما هي وجهات نظرهم إزاء إقامة دولة يهودية في فلسطين، وما الذي سيفعله هؤلاء الزعماء اذا قامت الدولة اليهودية فعلاً؟.

وكان الرجل الذي اختاروه للقيام بهذه العملية الموسعة، والاشراف على تنظيمها واحداً من كبار العملاء واسمه «ليفي افراهامي»، وهو من مواليد فلسطين، وقد ارسل الى مصر في ربيع عام **١٩٤٤** متنكراً بصفة ضابط انكليزي.

وكان اول مكان قام هذا العميل بزيارته هو منزل امرأة مصرية بارزة تدعى «يولاندة غاباي» وتنحدر يولانده هذه من عائلة يهودية غنية من سكان الاسكندرية، وقد عاشت في باريس ردحاً من الزمن، وتخلقت بأخلاق الغربيين، ولم تكن صهيونية ولكنها كانت تنتشي بأعمال الجاسوسية، وكانت أهم خصائصها لدى «ليفي افراهامي» وفرة معارفها في الاوساط العليا من رجال سياسة وعسكريين مصريين.

وسرعان ما استأجر الاثنان دارة (فيلا) خارج الاسكندرية وادعيا انها مقر استجمام صحي لجنود الحلفاء، ولم تكن في واقع الامر سوى قاعدة لعمليات التهريب التي يمارسانها.

وبعد تنفيذ حكم الاعدام في قاتلي اللورد موين عمل ايلي مع ليفي ويولاندة، في شبكتهما السرية لغاية جديدة، ولم يعد ذلك الساعي البسيط، بل قام بأعمال اكثر اهمية وخطورة من ذلك.

ومن أجل تسهيل هجرة يهود مصر الى فلسطين اقيمت وكالة سفر تدعى وكالة سفر غرونبرغ ومهمتها الوحيدة هي الحصول على تأشيرات خروج، واذون من الشرطة، وإعفاء من ضريبة الدخل، وكان هذا كله محظوراً على اليهود.

وقد أنيطت بايلي مسؤولية تقديم الرشاوى الى الموظفين المحليين لتأمين تعاونهم، وقد استغل اتقانه للغات التي شملت آنذاك على الايطالية والالمانية فضلاً عن الفرنسية والعربية، في تقديم الرشاوى الى موظفي السفارة والسلطات المصرية المحلية.

وفي عام ١٩٥٠، هاجرت اسرة ايلي الى فلسطين، ورتب هو لها خطة السفر الكاملة، وقدم جميع الوثائق اللازمة لها، وقد رفض ان يصاحبها ولكنه وعد باللحاق بها عما قريب.

على انه لم ير اسرته إلا بعد مرور ست سنوات. والتحق ايلي بجامعة الملك فاروق، بالرغم من معارضة المسؤولين وعدائهم، وصمم على اكمال دراسته ولكنه لم يمكث طويلاً بها، فقد طرد اخيراً طرداً لا رجعة فيه وعمل ايلي عندئذٍ فيما اتفق له من اعمال، ووقف نفسه على مساعدة رفاقه اليهود في الهجرة الى فلسطين ولم يبق من ٣٠٠,٠٠٠ يهودي كانوا يقطنون مصر عشية حرب عام ١٩٤٨ سوى أقل من الثلث في عام ١٩٥١.

وفي تلك السنة ذهب واحد من كبار عملاء اسرائيل الى مصر لتوجيه عمليات التجسس وجهود الهجرة وكان اسمه « ابراهام دار» ولكنه تنكر باسم «جون دارلنغ» ومن اولى مهمات هذا العميل تجنيد الشبان المثاليين من يهود مصر للقيام بأعمال تجسسية خطيرة.

وكان اول من جندهم، بطبيعة الحال، ايلي كوهين. ومنهم ايضاً شابة في الرابعة والعشرين من عمرها من المشتركات في المباريات الاولمبية، وتدعى «مارسيل نينيو» وكانت تربطهما علاقات صداقة مع كثير من ضباط الجيش المصري، ممن قابلت في الحفلات التي اقامها بعض الاصدقاء من الاغنياء البارزين في المجتمع، وقد احبت مارسيل «ابراهام دار» كما احبها، وساعدته في العثور على مجندين آخرين، منهم ايلي كوهين، وتم ارسال خمسة مجندين الى اسرائيل، لتعلم مساق مستعجلٍ في مبادىء اعمال الاستخبارات وفنون التخريب حيث مكثوا ثلاثة اشهر، ولم يروا فيها أحداً سوى مدربيهم ثم اعيدوا الى مصر.

وعندما رجعوا، خضعوا لقيادة عميل حنكته التجارب، يدعى الكابتن « ماكس بينيت »، وقد ولد هذا العميل في كولونيا، وكان يمتاز بأنه لا يختلف عن الآريين في مظهره حتى انه لم يكن مختوناً وكان والداه قد هاجرا الى فلسطين وهو بين العاشرة والعشرين من عمره، وقد انضم الى الهاغاناه على الفور، وبعد ان تدرب على اعمال الجاسوسية، تم ارساله في مهمةَ كبيرة الى العراق، حيث اشرف على عمليات الهجرة زمناً ما.

وكان ايلي كوهين، قد تلقى تدريبه ليصبح عامل الراديو في جماعة التجسس، وقام بوظيفته خير قيام، ولم يكن أي بث يشرف ايلي عليه، يحتاج الى الاعادة مرة ثانية، وكثيراً ما أرسلت قيادة الموساد تهانيها له ولرفاقه.

وفي الوقت نفسه، وقعت في مصر تغيرات أدت على نحو غير مباشر الى وضع نهاية كئيبة لعملياتهم التجسسية الناجحة.

ففي تموز ١٩٥٢ قاد الجنرال محمد نجيب انقلاباً عسكرياً ادى الى خلع الملك فاروق وإلغاء الملكية وإقامة حكم جمهوري في مصر، وشرع الحكم الجديد على الفور تقريباً في مضاعفة السياسات

المعادية لاسرائيل، فشدد الحصار في قناة السويس على شحن البضائع من اسرائيل وإليها وتزايدت هجمات العرب على سكان اسرائيل.

وفي الوقت نفسه اخذت بعض التطورات في المسرح الدولي تسبب القلق للاسرائيليين، فبعد أن اطاح البكباشي جمال عبد الناصر بالجنرال نجيب في شتاء ١٩٥٤، وافقت الحكومة البريطانية على سحب قواتها من منطقة قناة السويس مما يضمن فرض الحصار المحكم التام على شحن البضائع من اسرائيل وإليها، وتزويد سلاح الطيران المصري بطائرات جديدة، وكان دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة يحث الرئيس ايزنهاور على تبني سياسة مناصرة للعرب.

وفي ذلك الحين كان رئيس الاستخبارات العسكرية هو بنيامين غيبلي الذي كان واحداً من قضاة المحكمة العسكرية غير الرسمية التي حاكمت مئير توبيانسكي في عام ١٩٤٨ وقد اقتنع غيبلي هذا بأن ما جد من تطورات في علاقات مصر مع الدول الغربية يعرض اسرائيل لتهديد خطير. وقرر أن الدبلوماسية العادية لا تكفي للقضاء على ذلك التهديد، ووضع خطة من عنده للكفاح المباشر.

وكانت هذه الخطة بسيطة، وحشية، غير مشروعة بتاتاً. فسيقوم عملاء الموساد بنسف المنشآت البريطانية والامريكية في القاهرة والاسكندرية، وستلقى تبعة الارهاب على الشيوعيين أو جماعات المسلمين المتطرفين، وسيؤدي ذلك الى إثارة مشاعر الضغينة ضد مصر لدى لندن وواشنطن.

وسيشرف على ادارة هذه العملية اثنان من رجال الجيش السابقين، احدهما موردخاي بن تسور، والآخر عميل انتحل شخصية باسم (باول فرانك) وقد عمل فرانك هذا في مصر منتحلاً شخصية ضابط سابق في س. س. ونجح في ذلك نجاحاً باهراً حتى انه اصبحت تربطه عرى صداقة متينة مع رجال من امثال وزير الداخلية وآمر البحرية في مصر، أما النازيون السابقون الذين كانوا يعيشون في مصر بصفة مستشارين للحكومة فقد أولوه ثقتهم المطلقة.

وعندما اخبر فرانك فريقه من الشبان المصريين اليهود عن المهمة التي سيقومون بها، لقي منهم مقاومة ملحوظة في بادىء الأمر، فقد كانوا مصريين مثلما انهم يهود، وكانت فكرة القتل بدون تمييز لابناء وطنهم تثير حفيظتهم، كما انهم كانوا يخشون من أن تحدث هذه الحملة انعكاسات سياسية على
وطنهم تثير حفيظتهم، كما انهم كانوا يخشون من أن تحدث هذه الحملة انعكاسات سياسية على
اسرائيل.

بيد ان الكولونيل غيبلي في تل أبيب، الح على ان تطاع أوامره فأطاعوها، وانطلق الشبان والشابات فزرعوا القنابل في مكاتب استعلامات الولايات المتحدة في القاهرة والاسكندرية وانفجرت اجهزة اخرى في غرفة الطرود بمكتب البريد العام، ولحقت أضرار بالمطاعم المركزية ايضاً.

وسواء أكان ذوق اعضاء الفريق نافراً من اعمال التخريب هذه، أم أنهم كانت تنقصهم الخبرة في

تنفيذها، سرعان ما ارتكبوا خطأ أدى الى سقوطهم وافتضاح امرهم.

فقد وقع احدهم وهو فيليب ناتانسون في قبضة البوليس المصري، الذي حبطت جهوده في محاولة التعرف على هوية المسؤ ولين عن حوادث القنابل وكان ناتانسون يركض من احدى دور السينما ومعطفه يشتعل، وألقى البوليس القبض عليه واخمد النيران المشتعلة واكتشفت في جيب معطفه علبة صغيرة ملأى بالمتفجرات.

وقد اعتقل ناتانسون وفتشت شقته وهناك عثر البوليس على حشد من الوثائق والقنابل التي تعد في البيوت، وفي غرفة سوداء للتصوير مجاورة، تم اكتشاف مسودات وصور لجسور ومنشآت عسكرية وأهداف عسكرية وأهداف محتملة أخرى للتخريب.

وانقضت أيام، والبوليس المصري، وضباط الاستخبارات المضادة يسومون ناتانسون أشد العذاب وانقضت أيام وهو يرفض أن يتكلم، متمسكاً بروايته الاصلية في انه شيوعي يتلقى اوامره من خلية سرية من عملاء دربتهم موسكو، واخبر المصريون ناتانسون ان امه رهن الاعتقال وستطلق عليها النار، وعندئذٍ انهار واعترف بكل شيء.

وشرعت السلطات ومعها قائمة كاملة بأسماء شركائه في التفتيش عنهم. اما مارسيل نينيو الشابة، فقد استطاعت بفضل اتصالاتها الممتازة ان تنجو من الأسر فترة ما ولكن ضعف خبرتها، مكن الاستخبارات المصرية من تعقبها قبل القبض عليها، وكانت مارسيل قلقة مترددة فيما ينبغي ان تفعل فقررت اخيراً ان تذهب الى شقة ماكس بينيت كبير العملاء، والمسؤول الاعلى عن جميع عمليات الاستخبارات الاسرائيلية في مصر.

وعندما اقتحم المصريون شقة ـ بينيت ـ ضبطوا عنده جهاز الارسال اللاسلكي مجمع الاجزاء وقد تأهب لارسال تقرير الى تل أبيب. ولقد كان لمخاوفه من العمل مع ـ الهواة ـ ما يبررها ويسوغها.

ومثل ناتانسون، ذاق بينيت عذاباً غير ممنون، عدة أيام، ولكنه خلافاً لناتانسون رفض أن ينهار واخيراً خشي من أن يحمله التعذيب على الانهيار فقدم الرشوة الى سجان وهي نصف دجاجة مسلوقة بعثتها له زوجته، وحصل على سكين حلاقة.

وكتب ـ بينيت ـ بسرعة بالغة رسالة الى زوجته، يرجوها ان تتزوج مرة أخرى، كما طلب أن تزرع شجرة باسمه في اسرائيل، ثم جرح معصميه بالسكين جراحاً قاتلة، وسقط صريعاً على أرض زنزانته.

أما ايلي كوهين، مثله مثل مارسيل نينيو، فقد تمكن من تجنب الاعتقال الى حين، ولكنهم القوا القبض عليه اخيراً، غير انه كان قد اعتقل من قبل في عام ١٩٥٢، وأصبح خبيراً في الصمود لدى

الاستجواب وفي الواقع مكنته خبرته الممتازة من اقناع مستجوبيه بأنه يجهل كل ما يتصل بحلقة التجسس تماماً، وتم اطلاق سراحه اخيراً.

واشتم كل من ابراهام دار-جون دارلنغ-وباول فرانك امر التفتيش قبل ان يتمكن البوليس من اعتقالهما فاختفيا عن الانظار وتمكنا من الهرب عن مصر دون ان يكتشف امرهما احد.

ولم يفلح افراد الجماعة الآخرون، وعددهم ١١ عضواً في احراز نجاحات مماثلة، فقد ظلوا طيلة صيف ١٩٥٤، يستجوبون ويبلون العذاب، وقد حاولت مارسيل نينيو الانتحار مرتين وفي المرة الثانية افلحت في القاء نفسها من النافذة في غفلة من المستجوبين، ولكن الطبيب انقذها، لتعود الى التعذيب مرة اخرى.

واخيراً انهار افراد الحلقة في اجسادهم وأرواحهم، فاعترفوا بحقيقة كل ما أتوه من نشاطات وأخبروا المصريين كيف تم تجنيدهم وتدريبهم بأيدي رجال الموساد والاستخبارات العسكرية الاسرائيلية وكيف انهم تجسسوا على وطنهم اكثر من عامين من الزمان. وكيف استهدفت تشويه صورة مصر في نظر الديمقراطيات الغربية.

وفي اثناء محاكمة افراد المجموعة في عام ١٩٥٤، ابدوا تعاوناً تاماً آملين في ان تخفف احكامهم وادعوا انهم قد كانوا دمى يحركها سادتهم الاسرائيليون. وكانت مارسيل نينيو الاستثناء الوحيد، فقد بقيت على تحديها وكبريائها طيلة جلسات المحكمة بالرغم من المخاطر التي واجهتها.

وحكم على مارسيل وعلى طالب اسمه (روبرت داسا) بالسجن مدة ١٥ عاماً، وعلى فيليب ناتانسون وشاب آخر بالسجن مدى الحياة وعلى سائر افراد المجموعة بأحكام اخف من الاحكام السابقة.

وقد حكم على اثنين منهم بالاعدام شنقاً وهما شموئيل عازار والدكتور موسى مرزوق وتم تنفيذ الحكم في ١ كانون الثاني ١٩٥٥ في ساحة سجن باب الخلق.

وبين جمهور يقدر عدده بمئتين من المفجوعين كان ايلي كوهين واقفاً يراقب في صمت، مرزوق وعازار وهما يلبسان ثوب الاعدام التقليدي: قميص اسود وسروال احمر، نسوة ارجوانية، وتلا ايلي كوهين صلاة حين وضعت القلنسوة على رأس كل منهما.

وفارق الاثنان الحياة.

كانت هذه هي المرة الثانية التي يفجع فيها ايلي كوهين بشبان يهود يعدمون شنقاً، وأدت حملة التخريب وما أعقبها من كوارث الى حدوث فضيحة في اسرائيل دعيت فضيحة لافون نسبة الى وزير

الدفاع الاسرائيلي- بنحاس لافون- الذي اعتبر مسؤولاً عما حدث، وقد اقيل الكثيرون من مناصبهم وتعرض بن غوريون نفسه لانتقادات شديدة، ومرة اخرى خيم شبح الاتهام على الموساد بأنه غير مشروع وليس له ما يسوغه ويبرره، وقد وجه اليه لوم واسع بشأن المهمة التي اسيء الاعداد لها.

ومما زاد الطين بلة، اكتشاف ان- باول فرانك- العميل غير العادي الذي ساعد في إدارة العمليات، قد كان عميلاً مزدوجاً، وعندما غادر مصر تمت ترقيته وارسل الى المانيا، وهناك تبين انه كان يتصل سراً بأحد اصدقائه القدامى في القاهرة، وهو الاميرال سليمان، بالرغم من أن الأوامر التي تلقاها تقضي بتجنب مقابلة أي شخص كان قد قابله في مصر مهما كلفه ذلك.

واعيد باول فرانك الى اسرائيل حيث اعتقل وقدم للمحاكمة بتهمة الخيانة. وفي اثناء المحاكمة كشف فرانك النقاب عن انه قد خان مهمته ونقل اخبارها للمصريين وحصل في مقابل ذلك على مبلغ ٤٠ ألف مارك الماني، كما تبين في اثناء التحريات التي اجريت في اسرائيل بشأن فضيحة لافون انه قدم معلومات زائفة ادت الى ايقاع اللوم على كاهل بنحاس لافون الذي اضطر الى الاستقالة من جراء ذلك.

وحكم على باول فرانك بالسجن اثني عشر عاماً، وكان ذلك يوماً من أسوأ الأيام في تاريخ الموساد.

اما اليهود المتبقون في مصر وكان عددهم أقل من ٤٥ ألف نسمة آنذاك، فقد هربوا من البلاد عن طريق شبكة غوشن السرية. وقام اجانب آخرون ومنهم الكاثوليك- والأرمن والأقباط ببيع ممتلكاتهم وغادروا البلاد، وحظي العديد منهم بمساعدة عملية من غوشن في تحقيق ذلك.

وفي الاسكندرية بقي ايلي كوهين يقوم باعمال التجسس ومعه جهاز الراديو الذي زودته به اسرائيل وكان يرسل الى تل أبيب أية معلومات يتمكن من الحصول عليها مهما كانت ضئيلة.

وبلغ الوضع أقصى غايات التأزم بعد حملة السويس في تشرين الأول ١٩٥٦ حين قامت اسرائيل مع بريطانيا وفرنسا بغزو مصر.

وفي الأسابيع التي اعقبت حملة السويس، قامت- عملية غوشن- بحملة جديدة محمومة لتهجير اليهود الى اسرائيل، وقد غادر مصر في ذلك الوقت حوالى ١٠ آلاف يهودي، أما الذين عارضوا الهجرة فكان اكثرهم من اليهود كبار السن الذين لم تطاوعهم انفسهم على ترك مصر وطنهم ومسقط رأسهم.

وفي تشرين الثاني اعتقل كوهين مرة اخرى، وكان متأكداً وهو في زنزانته من انه سيعدم هذه المرة، فقد انقضت سنوات وهو يعمل من اجل قضية الصهيونية، ولم يكن بد من ان تتبين حقيقة ما مارسه من نشاطات.

واستطاع ايلي كوهين خلال المدة التي قضاها في السجن ان يحفظ بما اتصف به من حضور الذهن الذي انقذه في فترتي استجوابه السابقتين. وتمكن على نحو ما من اقناع مستجوبيه بانه صهيوني في معتقداته فقط، ولم يتمكنوا من العثور على أي دليل على ممارساته لأية نشاطات صهيونية.

ولكنهم أخبروه بأنه سيطرد من مصر بالرغم من كل شيء، ومرة اخرى، اذهل ايلي كوهين السلطات المصرية حين خرج عن طريق رفاقه من يهود مصر، وطلب تمديد مهلة بقائه في البلاد.

ورفضت السلطات غاضبة ذلك الطلب، وأمرته بالسفر في أول سفينة تبارح الموانىء المصرية.

وفي ٢٠ كانون الأول ١٩٥٦، وجد ايلي كوهين نفسه على ظهر سفينة ـ مسير ـ وهي سفينة للاجئي الصليب الأحمر في ميناء الاسكندرية، وكانت معه حقيبة ملابس صغيرة، وذلك المبلغ الزهيد من الجنيهات المصرية الذي سمحت قوانين العملة للمطرودين بأخذه معهم، وكان جواز سفره مختوماً بعبارة لا يحق له العودة الى مصر.

وسافرت السفينة الى نابولي، حيث نزل الركاب في انتظار السفن التي تقدمها لهم حكومة اسرائيل.

وكان عدد المهاجرين كبيراً مما اضطرهم الى الانتظار طويلاً حتى تأتيهم السفن، وفي غرفة حقيرة في أحدى الفنادق قضى أسبوعاً من الزمن، ولكنه شعر بالرغم من مرارة الانتظار، كما قال من بعد، بأنه أهدأ بالاً بدون شك.

وأخيراً تيسر لأيلي مضجع في سفينة شحن ايطالية اسمها ـ فيليب غريموني ـ ونشرت السفينة قلاعها في بداية شباط وبلغت ميناء حيفا في ١٢ شباط. لقد هاجر آلاف من اليهود الى اسرائيل بفضل نشاطات ايلي كوهين، وها هو ذا قد انضم اليهم اخيراً.

بيد ان مهمته الكبرى لم يحن أوانها بعد.

تسلم ايلي مثله مثل سائر المهاجرين الجدد في ميناء حيفا الوثائق التي تشهد بأنه مواطن اسرائيلي، ولكن هذه المواطنة لم تكف وحدها لجعل أيامه الأولى هنا اكثر راحة وهدوءاً. فقد كان يشعر وهو في الثانية والثلاثين من عمره آنذاك بأنه غريب في وطنه الجديد.

وفي مصر، كان ارسال خطاب الى اسرائيل يعتبر جريمة يعاقب عليها بالموت، فلم يكتب ايلي الى اسرته في السنوات الست التي قضتها الاسرة هنا، ولم يكن يعلم شيئاً عن مكان اقامتها.

ولكنه توصل الى معرفة عنوان اخيه موريس في ـ رامات جان ـ وهي احدى ضواحي تل أبيب، فذهب الى هناك، ولم يكن موريس في المنزل آنذاك، ولكن احد الجيران ارشد ايلي الى شقة والديه في

قضاء ـ بات يام ـ التي تقع على الكثبان الرملية جنوب المدينة ، في منطقة اكثر سكانها من اليهود المصريين والمغاربة .

وتوقف ايلي في ـ بات يام ـ عند نهاية الشارع الذي يسكن فيه والداه ، في مبنى ابيض حديث من الباطون ، وكان اسم ذلك الشارع ـ شارع شهداء القاهرة ـ نسبة الى رفاق ايلي الذين كان بعضهم قد قضى نحبه آنذاك ، وبعضهم يقبع في سجون مصر . وسيبقى هذا الاسم يذكّره على الدوام بالماضي الذي خلفه وراء ظهره منذ وقت قريب .

واقترن وفود ايلي الى المنزل بالحلاوة والمرارة معاً فقد فرح والداه كثيراً لرؤيته ، ووجها اليه الكثير من الاسئلة عما كان يفعله من قبل ، أما اخوه الصغير افراهام الذي يصغره بعشرين عاماً فقد حدق اليه بنظرة لا تدل على الادراك وسأل :

من هذا الرجل؟ .

كان ايلي شخصاً غريباً حتى عند سائر افراد العائلة ، فلم يكن من اولئك الاشخاص الذين يظهرون حقيقة مشاعرهم لاصدقائهم أو أسرهم ، وقد عززت سنوات العمل السري في مصر ما في شخصيته من تكتم طبيعي . ومن الجلي انه لم يكن يرغب في التحدث عما كان يقوم به من الأعمال في مصر .

وتحدث موريس كوهين عن اخيه ذات يوم فقال :

كان ايلي مثل الكتاب المقفل ولم يحدثنا ولو مرة واحدة عن عمله بصفته جاسوساً ، ولم نكن نعرف شيئاً منه . . . كان يغلق السدود على افكاره كما يغلق صاحب البنك الخزانة الحديدية على ثروته .

وعرف ايلي فترة طويلة وشاقة في محاولة التكيف مع وطنه الجديد ، فقد حيرته اسرائيل وخيبت منه في كثير من الأمور .

كان ايلي قوي الايمان فدهش أشد الدهشة لما رآه في العديد من الاسرائيليين من الأمور المخالفة نلدين ، وكانت صهيونية مثالية تعمر وجدانه ، فصعق لاكتشافه ما لدى بني وطنه اليهود من عيوب ونقائص . وقد أثار حفيظته انه رأى يهوداً يرتكبون الآثام ويمارسون المكر والخداع وهم يتكلمون لسان التوراة . ولم يكن الكثيرون منهم يلقون بالتعظيم حرمة السبت أو الاعياد الكبرى ، ومع ذلك كانوا يهوداً يعيشون في وطن اليهود ، وكان ذلك كله امراً يعسر عليه فهمه .

ولم يكن ايلي راضياً عن الاجحاف الذي يحل باليهود الذين ينتمي آباؤهم الى بلدان الشرق الاوسط ، فقد عرف وهو المصري الأسمر اللون ، هذا الاجحاف معرفة شخصية وأثار ذلك فزعه ،

وزلزل كيانه. والحق ان هذه المسألة ما زالت تعم المجتمع الاسرائيلي حتى يومنا هذا، ولكنها كانت تثير اضطرابات خاصة في نفس ايلي التقي الورع.

اما مشكلاته الاخرى فكانت أكثر اتصالا بالجوانب الشخصية، فقد بلغ ايلي الثانية والثلاثين وهي السن التي يكون فيها اكثر الناس قد بنوا اسرهم وزاولوا مهنهم أو كلا الأمرين معاً، أما هو فلم يفز بشيء من هذا أو ذاك.

وقد شاطر ايلي اخاه البالغ ١١ عاماً من العمر غرفته، مضطراً الى الاعتماد على عائلته في الحصول على المال، الذي لم توفره له ألا بشق الأنفس، اما امجاده الماضية فلم تنفعه بشيء هنا، لأن احداً لم يسمع عنها، وكذلك ذهبت وعود صباه سدى فيما يظهر.

وكان ايلي نهباً للكآبة والاضطراب، فلجأ الى الدرس يسلو به عما هو فيه، وفي مصر لم يترك العمل السري له متسعاً من وقت للدرس، فاعتزم ان يعوض عما فات، ودرس العبرية الحديثة واليونانية، وسعى الى تحسين معرفته بالالمانية والايطالية، وعاد اليه حبه الأول للرياضيات والالكترونيات فمضى يقرأ طائفة من الكتب في كلا المجالين، وفي زاوية من زوايا شقة أبويه اعد غرفة سوداء واستأنف التصوير الفوتوغرافي.

بيد انه بقي مضطرب النفس وكان اخوته يتحدثون اليه في اعتزاز عن الحياة التي عاشوها في جيش الدفاع الاسرائيلي، وهو يستمع اليهم في صمت، عارفاً انه عاجز عن مشاطرتهم مشاعر الافتخار فقد عاش حياته متوحداً واحس بانه غريب في ألفة الحياة العائلية الحميمة.

وقضى ايلي عدة اشهر وهو يتطفل وحيداً على السيارات، ويطوف بها في ارجاء اسرائيل، وفي أواخر عام ١٩٥٧، أي بعد حوالى عام من وصوله الى اسرائيل، عرض عليه عمل في وزارة الدفاع الاسرائيلية.

ولم يكن ذلك مستغرباً ولا عن مصادفة، فقد كانت الاستخبارات تعرف عنه اكثر مما تعرفه عائلته عنه وهي قد تفرست فيه بشائر مجند ملائم ولكنها تركت له وقتاً للتكيف مع ظروفه الجديدة.

وعمل ايلي في الاستخبارات المضادة، وكان عليه أن يقرأ الجرائد العربية ويترجمها الى العبرية وان يحللها للبحث عن اية اشاراتٍ يستدل منها على تغير في السياسة. وكان عليه أيضاً ان يكتب تقارير تحليلية عن شخصيات صانعي السياسة العرب؛ بالاعتماد على تقارير الصحف من جهة، وعلى معرفته بالسيكولوجية المصرية من جهة اخرى، وقد أبدى ايلي تفوقاً في عمله، ولكنه سرعان ما تبرم به كما يتوقع المرء ان يكون حال من تدربوا على الاعمال السرية، ولم يستطع الصمود في رتابة حياة المكاتب وتواترها. وبعد برهة من الزمن أخذ يدرس التسويق والمحاسبة ليزجي أوقات فراغه ولكن الاضطراب ادركه بعد

حوالى عام من العمل المكتبي ، فمضى الى رؤ سائه وابلغهم برغبته في ممارسة عمله السابق . وكانت اجابتهم له نموذجية تماماً. فبالرغم من توافر جميع مقومات العميل من الطراز الأول لديه كان دأب الموساد وغيره من دوائر الاستخبارات الاسرائيلية اتباع سياسة دقيقة تقضي برفض المتطوعين للعمل الميداني، وقد وضع هذه السياسة ايسر هرئيل، ولم يكن بالامكان الالتفاف من حولها، وقيل لايلي بحزم: لا نريد أي مغامرين.

واستاء ايلي لهذا الرفض كل الاستياء، وبدا الأمر بمثابة صفعة له : الم يجازف بحياته في مصر وهو يعمل لحساب دولة اسرائيل؟ او لم يقض سنوات شبابه في اعمال الاستخبارات؟.

وأحس ايلي بالمهانة وسوء التقدير فتخلى عن عمله، وانصرف الى دراسة الأعمال التجارية بحماسة جديدة، وحصل على الدبلوم في زمن قياسي ، وسرعان ما اصبح محاسباً في شركة ذات سلسلة حوانيت لبيع الأغذية. واذا لم يتمكن من الرقي في عمل الاستخبارات فما عليه إلا أن يجرب شيئاً سواها.

واظهر ايلي تفوقاً في عمله هذا ايضاً، وسرعان ما اصبح مفتشاً يجوب البلاد من مخزن الى آخر وهو يراقب العمليات المالية. وفي عمله هذا ايضاً حافظ ايلي على تكتمه وسريته ، وكان لطيف المعاشرة للجميع، ولكنه لم يوثق علاقاته مع أحد، ولم تقم ارتباطات وثيقة بينه وبين أي من المستخدمين الآخرين. وكان الجميع يلحظون ما عنده من مطامح، ويتوقعون ان يرقى في سلم وظائف الشركة.

وفي اوائل عام ١٩٥٩ قابل ايلي امرأة عراقية تدعى ناديا في نادي الجنود بتل أبيب، وكانت ناديا هذه ممرضة في مستشفى هداسا، وهي فتاة جميلة سمراء، ذات عينين بنيتين داكنتين ولم تكن تلتزم بالشكليات، فقالت له انها تريد مقابلته مرة اخرى، وقبل انقضاء اقل من اسبوعين وهما يسيران معاً على شاطىء هرتسليا قر رأيهما على الزواج. وحددا يوماً من أيام شهر آب موعداً للزفاف، وقد احتفلا بهذا الحادث احتفالاً تقليدياً بهيجاً.

وقد واتت ايلي الظروف ففاز برحلة لاثنين الى ايلات، وهي مدينة استجمام تقع على لسان البحر الاحمر الشمالي، وهناك قضيا شهر العسل يسبحان بين التشكيلات المرجانية الوفيرة التي يشتهر بها البحر الاحمر، ولم يطل بهما الأمد حتى انتقلا الى الشقة التي اشترتها لهما اسرتاهما.

واستقر ايلي، وشعر أنه قد بدأ بعمل ايجابي في حياته باسرائيل. واخذ يتقدم في عمله تقدماً منتظماً، ويتقاضى اجراً حسناً. ومضى يخطط مع زوجته لبناء اسرتهما، واصبح من انصار كرة القدم المتحمسين، بل انه حاول ان يصبح صاحب يخت. كان ايلي كوهين مواطناً اسرائيلياً متوافقاً مع ما حوله.

وفي وقت مبكر من عام ١٩٦٠ كان ايلي يسير في شارع قريب من منزله بتل أبيب، عندما واجه رجلاً كان قد عرفه اثناء عمله بوزارة الدفاع، ولم تكن عرى الصداقة تربط بين الرجلين، ولكن علاقاتهما كانت ودية على كل حال. واقترح زميل ايلي القديم ان يذهبا للتريض منحدرين مع الشاطىء وان يثرثرا معاً بعض الوقت. وبالرغم من الضغينة التي كان ايلي ما يزال يكنها لوزارة الدفاع، وافق على ما عرضه عليه ذلك الزميل.

وسرعان ما انتقلت المحادثة الى موضوع خروج ايلي من وزارة الدفاع، ولم يكن هذا الرجل يعرف سبب خروج ايلي منها، فسأله بدون مواربة، وعندئذٍ طفا غضب ايلي وهو يجيبه عن سؤاله بقوله:

لقد كنت أضيع وقتي سدى، فأي غناء في محاولة التقاط المعلومات من كلام محرري الصحف العربية، في حين أنني أستطيع القيام بعمل يفضل ألف مرة واحصل على المعلومات الحقيقية شخصياً؟

وكان مستخدم وزارة الدفاع يستمع الى ظلامات ايلي متعاطفاً معه، متفهماً لشكواه، وقال له انه يدرك ما حدا به الى الخروج من الوزارة، وتحدث الرجلان بعدئذٍ عن أمور اخرى كتكاليف المعيشة وكرة القدم وما الى ذلك من لغو الحياة ثم افترقا ومضى كل منهما لبيته وايلي مسرور بهذه المناسبة التي افسحت له المجال للتنفس عما يعتمل في صدره من كروب واحزان. ولم يدر في خاطر ايلي شيء بشأن ذلك الحادث قبل مرور اسابيع قليلة حين كانت ناديا خارج البيت واذا بزميله السابق يقدم لزيارته وقد أسر له هذا الزميل اسمه الحقيقي وهو اسحاق زلمان، وكشف له عن هويته الحقيقية فهو احد كبار ضباط الموساد وسأل ايلي ان كان معنياً بالسير على الشاطىء مرة اخرى، وقال ايلي الذي ارتبك لما يلف الأمر من غموض انه يرغب في ذلك.

وبينما كانا يسيران في محاذاة الشاطىء اخبر زلمان ايلي ان رجال الموساد راقبوه منذ وطأت قدماه ارض اسرائيل وانهم كانوا يعلمون ما فعله في مصر، وأرادوا أن يعمل معهم مرة اخرى، ولكن، ربما كانت الفترة التي تعقب الهجرة الى اسرائيل غير خالية من الصعوبات، وقد ارادوا التأكد من انه يعرف اين يضع قدميه، اذا صح التعبير، قبل ان يفكروا في تفويضه بهذا العمل من اعمال التجسس أوذاك. وهم بعدئذٍ قد اضطروا الى اختبار صلاحيته للأعمال المكتبية وهو اجراء معياري يتخذونه مع جميع الجواسيس المحتملين. وتابع العميل قوله: لقد رفضنا طلبك الأصلي بالعمل بصفة عميل لأسباب عدة أهمها ما تعرفه، وكنا نراقبك منذئذٍ، أما الآن فأنت جدير بأن ينظر في شأنك.

واذا كنت مستعداً للعمل في الاستخبارات فإن طلبك سيحظى بالاعتبار.

وبالرغم من سجل ايلي الطويل الحافل بالمآثر، توجب عليه ان يخضع لاشد الاجراءات دقة وصرامة.

وأخيراً قال له ضابط الموساد ، لقد اعتبرت واحداً من الطبقة الاولى وفي وسعك ان تلتحق بالموساد اذا رغبت في ذلك. وعاد ايلي كوهين الى ممارسة عمله مرة اخرى.

وشرح لايلي شروط العمل ، فسيحصل على راتب كامل منذ ذلك اليوم ، حتى في اثناء تدربه فجميع العملاء تلقوا التدريب نفسه ، ولو كانوا من امثال ايلي اصحاب الخبرة السرية السابقة ،وتابع الدرويش حديثه قائلاً :

في نهاية فترة التدريب سيكون لك الحق في تبديل رأيك بشأن العمل في التجسس وسيبقى هذا الأمر صحيحاً دائماً : أي انك تستطيع ان تتركنا ودياً في أي وقت تشاء . ولا تعتبر العلاقة بيننا زواجاً كاثوليكياً ، فالطلاق مسموح به بيننا ، وهو سهل ايضاً ، أما الشرط الوحيد الذي نلح عليه فهو الا تخبر احداً عن طبيعة عملك الحقيقية ، ان ادنى اشتباه في انك قد اخللت بهذا الوعد سيؤدي الى الفصل الفوري .

وكان ايلي صادقاً في اتباع التعليمات فلم يخبر ناديا شيئاً عن وظيفته الجديدة ، وقال لها انه قد تخلى عن وظيفة المحاسب من اجل العمل في فرع تجاري من فرع الخدمة المدنية،واشتبهت ناديا في ان الأمر ابعدمن ذلك عندما وجهت اليه بعض الاسئلة ولكنها لم تظفر بغير اكثر الاجابات غموضاً ، ولكنها تعلمت ألا تلح عليه في المسألة ، بل انها لم تسأله شيئاً حين اخبرها بأنه مضطر للسفر والى مغادرة البيت عدة اشهر لقضاء بعض الواجبات الخاصة .

وشرع ايلي عندئذٍ في دراسة مساق مكثف يستغرق ستة اشهر في مختلف فنون مهنته الجديدة وبقي طيلة مدة تدريبه تلك ، ساكناً في شقة استأجرها الموساد بتل أبيب لتكون مركزاً للتدريب وهي ما تزال كذلك حتى يومنا هذا ولم يكن يسمح له بمغادرة الشقة بدون اذن ، وفي العادة لم يكن يخرج إلا للسير في المساء بصحبة الدرويش .

وقام ايلي ، طيلة فصلي الربيع والصيف من عام ١٩٦٠ بدراسة جميع مناهج الموساد وقد علمه خبراء مجربون في فنون التخريب كيف يصنع المتفجرات والقنابل الزمنية الموقوتة من أبسط مركباتها كما أُخذ ايلي الى معسكرات الجيش ليرى كيف تستعمل اجهزة التفجير المختلفة في نسف الجسور والمنشآت .

وقام خبراء في فنون المعاركة والمصارعة بتعليم ايلي كيف يناجز خصمه وهو اعزل ، كما علمه آخرون كيف يستعمل طائفة متنوعة من الاسلحة الصغيرة ولم يحسوا بالقناعة والرضى حتى اصبح هدافاً من الطراز الأول ، وكذلك تعلم ايلي كيف يميز على الفور مختلف اصناف الاسلحة والطائرات

والسفن الغربية والسوفياتية وتلقى تدريبات في اقتحام المنزل وفتح أي قفل أو خزانة بسرعة وبدون احداث أي صوت.

وكانت فنون جمع المعطيات وتحليلها تؤلف جزءاً مهماً من منهاج الدراسة، وأصبح ايلي استاذاً في كتابة الرسائل بالشيفرة وفي فك رموزها ايضاً، وتوجب عليه ان يفكك جهاز الراديو الصغير الى اجزاء ثم يصلحه، كما تعلم كيف وأين يخبئه اذا كان في بلد معادٍ، وكان من ضمن المنهاج ايضاً استعمال الحبر السري، وهي وسيلة فعالة وان كانت من طراز قديم، كما تعلم طريقة كتابة الخطابات بها واخفائها في مغلفات عادية، أما معرفته في التصوير الفوتوغرافي فقد جرى تحديثها بالتدرب على استعمال الافلام الصغيرة، وكان الخبراء يقومون باختباره مرة بعد اخرى لتقييم ما حصله من تلك المهارات.

والحق ان ايلي قد ادهش معلميه دائماً لما ابداه من فهم سريع متمكن في كل ما تعلمه، وكانت ذاكرته الجبارة التي الفت حفظ نصوص التوراة وارقام السيارات، مثاراً للدهشة والاستغراب. وفي نهاية اشهر العزلة الستة، لخص تقرير ختامي وضعه بإيجاز بأن: لديه، وعلى نحو وفير، كل ميزة ينبغي توافرها في عميل من عملاء الميدان.

ولما فرغ ايلي من تدريبه الاساسي، قضى اسبوعين من الزمن وهو يمارس لعبة ما في شوارع تل أبيب، فقد كان يتعقبه اثنان أو ثلاثة من المجندين الجدد من امثاله وهم يسمون الظلال وكان عليه التنقل من مكان الى آخر محاولاً التعرف عليهم وعليه بعدئذٍ أن يحاول الافلات منهم بدون أن يطرأ تغيير ملموس على طراز شخصيته، وقد كانت هذه مهمة عسيرة الاتقان، قضى ايلي عدة اسابيع في ممارستها.

واخيراً انعكست الادوار، واصبح ايلي هو المطارد الذي يحاول المجندون الآخرون الافلات منه، وبعد ذلك، أعاد التجربة نفسها مع عملاء مجربين، وقد اعتبر القيام بالتجربة في بيئة ودية - في شوارع تل أبيب التي تكتنفها الاشجار - امراً يؤدي الى وقوع المصادفات ولكن المدربين تمكنوا من الحفاظ على توتر ويقظة دائمين لدى مجنديهم، وكانوا يكررون القول دائماً بأن المجندين ربما نجوا من الموت في يوم ما، اذا هم اتقنوا فن تعيين الظل، وربما مكنتهم القدرة على تتبع الآخرين بدون ان يكتشف امرهم من التوصل الى رجل مهمته القضاء عليهم. وكان اتقان هذه المهارات امراً اساسياً، وقد بقي المجندون الجدد يمارسونها الى ان اصبحت جزءاً آلياً من كيانهم. ولم يكونوا يشاهدون بعضهم بعضاً إلا عن بعد، وهم يمارسون لعبة المطاردة في شوارع تل أبيب المزدحمة وكانوا يخضعون جميعاً لأدق الانظمة في أثناء التدريب، ولم يقتصر الأمر على منعهم من التجول بدون مرافقين، بل لم يكن يسمح لهم برؤية عائلاتهم أو الاتصال بها كذلك، وفي اثناء تلقي ايلي تدريباته توثقت بينه وبين المدرب الذي اصبح يناديه باسمه الأول اسحاق، عرى صداقة متينة، وقد كانت هذه الصلة القلبية ضرورة من الضرورات التكتيكية ايضاً. فالرؤساء يعلمون أن عميل الميدان الذي يحيا حياة عزلة وخطر في مدينة معادية، ربما اعتمدت

كفاءته ومعنوياته اشد الاعتماد على رئيس القسم الذي يعمل فيه. ولو لم يقم التعاطف والاحترام المتبادل بين الرجلين، لأصبح لإيلي مشرف جديد.

وكان على ايلي كوهين اجتياز فحص آخر قبل ان يشهد له بالاستعداد بالقيام بعمل ميداني، يتمتع بالأهمية القصوى، بمساهمة غير مقصودة من قبل رجل أعمال فرنسي يدعى مارسل كوان. ومارسل هذا من مواليد مصر ولكنه يقيم الآن في البروفانس الفرنسي، وقد سافر في رحلة عمل الى اسرائيل في أواخر صيف عام ١٩٦٠، ومما اثار سخطه واستيائه ان جواز سفره قد فقد في غرفته بالفندق بعد وقت قصير من وصوله الى تل ابيب. وجن جنون الرجل عندئذٍ، واتصل بالبوليس وبالسفارة الفرنسية التي اصدرت له جواز سفر مؤقتاً ليتمكن من السفر في رحلته المزمعة الى شمال افريقيا.

ولكن مارسل قضى عدة ساعات في شوارع القدس المزدحمة يسير كما يفعل غيره من السياح، فقد كان يحب المزارات الدينية، والأماكن الاثرية، ومحلات بيع الملابس والتحف التذكارية.

واوضح مارسل كوان لاصحاب الحوانيت انه يعيش بالقرب من مرسيليا، وان كان قد ترعرع في مصر، مما يفسر تمكنه وطلاقته في اللغتين العربية والفرنسية. وقد مكنته طلاقته هذه التحدث الى اي شخص كائناً من كان.

وعندما رجع الى الفندق اخبر موظف الاستقبال بانه يفكر في الهجرة الى اسرائيل، وانه يبحث عن زبائن من تجار يتصل بهم، وقد دل هذا الموظف لتقديم المساعدة، الرجل الفرنسي على المقاهي التي يرتادها رجال الاعمال في العادة، عند تناولهم وجبة الغداء ظهراً، بل انه اعطاه اسماء بعض الاصدقاء العاملين في الادارة المدنية ممن يمكنهم تقديم المساعدة له.

وبعد ان جمع السائح تلك المعلومات، ذهب الى مطعم «فيينا» لتناول الغداء، وكان بطبيعته ودوداً منبسط المزاج، فما اسرع ما اتصل حديث عميق بينه وبين رجل غريب يجلس بجواره الى المنضدة، وقد تفاهم الاثنان كل التفاهم، حتى ان الاسرائيلي، الذي تبين انه موظف في احدى وزارات الحكومة، دعا مارسل كوان الى بيته لتناول العشاء معه في تلك الليلة.

وكان بين الضيوف الآخرين في ذلك المساء احد رجال المصارف ذوي الشأن، وسرعان ما تودد السائح الى هذا الرجل، وعبر له عن رغبته في الانتقال الى اسرائيل وسأله عشرات الاسئلة عن تحويل رأس المال ومعدلات الفائدة وغير ذلك من الشؤون المالية، ودعا رجل المصارف المتلهف للحصول على زبائن جدد، كوان لمقابلته في اليوم التالي. وقضى الاثنان ساعات وهما يتباحثان لا في ترتيبات كوان المصرفية الشخصية فحسب، بل في مناخ البلاد الاقتصادي عامة،

وقد طال بينهما الحديث وامتد، مما اضطر رجل المصرف الى توديع ضيفه من الباب الخلفي، وكان قد حل موعد تناول الغداء وغادر الموظفون المكتب. وقد وعد الفرنسي بالزيارة مرة اخرى.

وفي الأيام التالية قام كوان بزيارات مماثلة لعشرات التجار ورجال الاعمال، يستنصحهم بشأن العثور على شقة، وتخير الاستثمارات، والحصول على نصائح قانونية ومالية.

وعندما لحق كوان بالقطار وهو راجع الى تل أبيب، كان قد وعى من الحقائق عن القدس وعن شؤون الأعمال في اسرائيل، ما وعاه أي رجل اعمال عاش هناك سنوات طوالاً، وفي الحق انه قد كون اتصالات قيمة مع بعض الاشخاص كالمصرفي الذي كان يأمل في أن يراه مرة اخرى.

وخاب ظن ذلك المصرفي، فلم يرجع كوان اليه ابداً. ولما وصل كوان الى تل أبيب، ذهب الى شقة صغيرة بمقربة من شارع اللنبي الذي يعج بالأعمال في قلب المدينة، حيث قوبل في الداخل بالترحيب والحفاوة، عندما طرح جواز سفره على المنضدة، واستعاد هويته الحقيقية: ايلي كوهين عميل الموساد.

وطلب الضابط من ايلي الجلوس الى منضدة، وفتح ملفاً ضخماً، كانت فيه عشرات الصور لمارسل كوان واصدقائه الجدد في المدينة المقدسة، كما كانت فيه ايضاً قائمة مطبوعة طباعة انيقة بجميع النشاطات التي قام بها، حتى حساب المبالغ التي انفقها في المقاهي وحوانيت التحف التذكارية.

وانقضت ساعات والرجلان يدرسان وصف ايلي لتحركاته، ويقارنان ذلك بما ورد في الملف وقد لاحظ ايلي ان العميلين اللذين تعقباه قد اغفلا اسم المصرفي الذي قابله، وأضاف بابتسامة باهتة: حسناً لا أرى أية فائدة في محاولة تزييف حساب نفقاتي.

وعندما رجع مارسل كوان الحقيقي الى تل أبيب وجد رسالة في انتظاره تدعوه الى زيارة مركز البوليس المحلي، وهناك تسلم جواز سفره باحترام وقيل له: كن اكثر حذراً في المرة القادمة. ونصحوه بأن يحتفظ بوثائق سفره معه، ولا يلقي بها هنا أو هناك في غرفته بالفندق. وما يزال مارسل كوان يتحدث منذهلاً عن كفاءة البوليس الاسرائيلي.

أما المجندان اللذان كانت مهمتهما مطاردة ايلي كوهين والتقاط الصور له بكاميرات مصغرة فقد هنأهما المدربون لنجاحهما، ولكنهما قصرا في امر واحد. فقد فاتهما حديث ايلي الطويل مع المصرفي، واعترفا بأنهما اضاعا تلك الفرصة وحدها.

وأما ايلي نفسه فقد اجتاز اختبار القدرة على تبني شخصية منتحلة بتفوق. وقال الضابط في تقريره الرسمي عن التمرين فيما قاله ان لهذا العميل شخصية متعددة الجوانب، وإن له ذهناً وقاداً

وتفكيراً سريعاً، ولديه القدرة على الاختلاط بجميع قطاعات المجتمع، والاندماج في اية بيئة يجد نفسه فيها.

ان اليسر الذي يجده ايلي في التكلم بسهولة بعدة لغات، وما يبديه من هدوء تحت أي ضغط، وما له من قدرة على اتخاذ قرارات سريعة في ضوء الظروف المتغيرة، كل ذلك يشير الى ان في وسعه ان يصبح عميلاً ناجحاً جداً في المشروع الذي نتصوره له.

ولم يكن ايلي يدرك آنذاك شيئاً عن طبيعة هذا المشروع وفي ايلول ١٩٦٠ منح ايلي اول اذن له بالذهاب للبيت منذ بدأ التدريب المكثف، وكانت زيارته مفرحة حقاً؛ رأى فيها ابنته الوليدة: صوفي لأول مرة، بيد ان الزيارة كانت قصيرة الأجل، وسرعان ما عاد المتدرب الى العمل- في مدينة الناصرة العربية هذه المرة، وتم تقديمه الى الشيخ محمد سلمان بهويته المزورة بوصفه طالباً في جامعة القدس، يريد ان يدرس الدين الإسلامي،- وكان ايلي قد عرف الكثير في بلدته الاسكندرية بهذا الشأن، ولكن هذا الجاسوس المتدرب يتجه الآن الى التعمق في دراسة الاسلام، ولم يكتف بحفظ نصوص كبيرة من القرآن عن ظهر قلب، بل عرف ما يقوم به بالضبط حين يؤدي الصلوات الخمس كما تفرضها الشريعة الإسلامية في كل يوم.

ومن اجل استكمال شخصيته المنتحلة قام بزيارة جميع المساجد في اسرائيل في أيام الجمع حين كان المؤذن ينادي المؤمنين للصلاة بكلماته التقليدية (لا اله إلا الله، محمد رسول الله).

وكان ايلي يركع ويصلي مع ابناء دينه وسرعان ما اطمأن تماماً الى ان شيئاً من الاضطراب او الارتياب لن يشي بتنكره في هيئة مسلم حتى اذا تعرض لأشد الضغوط.

وعندما رجع ايلي الى تل أبيب فاجأه مدربه بقوله:

نحن في عطلة، وسآخذك بالسيارة الى الحدود السورية، وسرعان ما ركبا سيارة جيب واندفعا صوب مرتفعات الجولان وعرف ايلي من تقارير الاخبار ان قذائف المدفعية السورية من مواقعها المطلة على المستوطنات في الجليل الاعلى، قد بقيت تتساقط على كيبوتس تل كاتسير عدة اسابيع وأتلفت الاملاك والمحاصيل وسقط العديد من المزارعين بين قتلى وجرحى. واخيراً تحرك الجيش الاسرائيلي، وفي ليلة ما عبر لواء غولاني الضارب، الحدود السورية، تحت جنح الظلام، وتسلل بهدوء الى مواقع المدفعية الراسية في قمم تلال التوافيق.

ولم يكتشف احد امرهم حتى اعتلوا اهدافهم وفي معركة ضارية امتدت حتى الصباح، قتل الاسرائيليون بعض الجنود السوريين ونسفوا اكثر من خمسين منزلاً من منازل القرية المبنية من الحجارة.

وبعد انتهاء الغارة الانتقامية عادت وحدة غولاني، ومعها كميات مما استولت عليه من اسلحة.

واظهر الضابط تلميذه على غنائم الحرب المتجمعة، وتباحث معه في شأن بعض الجوانب الفنية للتجهيزات السورية.

لم نأت هنا في حصة لدراسة الاسلحة وإنما جئت لكي اوضح لسببين: احدهما ان اوضح لك كيف استولى لواء غولاني على قاعدة المدفعية المشددة الحراسة هذه بنجاح. برغم المقاومة الضارية.

أما السبب الثاني في قدومنا هنا، فهو القرب الى ما انت فيه، اذ انه سيقوم المزيد من المعارك في هذه المنطقة، وفي وسعنا التأكد من ذلك، وربما كانت نتائج مثل هذه المعارك هنا متعلقة بك انت.

ستذهب انت للعمل في سوريا.

لم يتمكن ايلي من معرفة القرار الذي اتخذه الموساد بارساله الى سوريا قبل عدة اشهر، فقد رأى مدربوه فيه عميلاً من الطراز الأول، صالحاً لأكثر المهمات خطورة واقتضاء اعمال وكانت أُلفَتُه لطرائق الحياة عند العرب، تجعل منه مرشحاً مستوفياً الصفات اللازمة للعمل السري في احد البلدان العربية.

وفي ذلك الوقت كانت مصر وسوريا تمثلان اكبر خطرين تواجههما اسرائيل... فمنذ ١٩٥٨ اتحد البلدان في الجمهورية العربية المتحدة، وأصبحت لهما قيادة عسكرية مشتركة وذهب عدد كبير من المصريين للعمل بصفة مستشارين في سوريا.

وقد الح بن غوريون على ايسر هرئيل في تعزيز جهاز جمع المعلومات في دمشق، وحث رئيس الموساد في شيء من التأنيب الضمني قائلاً: ان اللامبالاة هي شر اعداء امن الوطن.

وعرف ايسر هرئيل ان لديه حلاً لهذه المسألة في شخص ايلي كوهين. وفكر رؤساء ايلي كوهين في إرساله اول الأمر الى سوريا منتحلاً شخصية مواطن من اسبانيا أو أمريكا الجنوبية، ولكنه يبدو بالغ الشبه بالعرب يتكلم العربية بطلاقة، فاختاروا له شخصيةعربيةينتحلها. وفي الحق ان المجتمع السوري اكثر انغلاقاً من المجتمع المصري، وسيكون من الصعب تقبل ايلي فيه مهما كانت ذريعة ذلك.

وفي الوقت نفسه، تقرر ارسال ايلي الى دمشق على مسؤوليته الخاصة، وقد كان لذلك

سببان: احدهما صغر حجم الموساد، الذي لا يقدر على توفير سوى النزر اليسير من الأشخاص ويرى في الاحتفاظ بشبكة كبيرة من العملاء ترفاً لا طاقة له به، ولم يكن قد انقضى وقت طويل على عملية ايخمان ، التي قيدت نشاطات العديدين من عملاء الموساد عدة أسابيع. وقد ذكّرت هذه العملية الموساد بضيق موارده المحدودة.

اما السبب الآخر الذي جعلهم يقررون ارساله الى دمشق على مسؤوليته الخاصة فكان ما ـ من انه بذلك يقوم بدوره على خير وجه، فقد تبين ذلك منه اثناء تدريبه، ولا سيما في تمثيلية مرسل كوان في القدس، ثم انه اعتاد ذلك منذ طفولته، فقد كان يعمل في مصر منفرداً في معظم حالات وأغلب الظن ان ذلك سيجعله أقل تعرضاً للمخاطر اذ لن يقع ضحية طيش من رفيق أو خطأ منه، وإنما يكون سقوطه أو صموده رهنا به هو.

وعرف الضابط في اثناء تدارسه المهمة مع ايلي، انه راضٍ عن قرار رؤسائه ولو شعر ايلي بشيء من الريبة في ذلك، لأمكن اعادة النظر في الخطة بتمامها. فالموساد لا يتوقع من عملائه طاعة العمياء، وإنما يتوقع منهم التساؤل والانتقاد وتقديم الاقتراحات، وبالطبع ينبغي اتباع القرارات في ساعة الحسم ولكن كل شيء يظل خاضعاً للنقاش حتى بلوغ تلك المرحلة.

بدأ أيلي فترة من الدراسة المكثفة، بعيد رجوعه من الحدود السورية الى تل أبيب ودرس مساقاً مستعجلاً في تاريخ سورية، وتطورها الاقتصادي، وحكومتها، وجغرافيتها، وطوبوغرافيتها. ونظراً لأن اللهجة المصرية التي وعاها في صغره، كان عدد من المدرسين، منهم استاذ في اللغويات من مواليد دمشق، يفدون الى شقته لتعليمه اللهجة السورية. وكان يستمع الى محطات الاذاعة السورية ليلاً ونهاراً لاستيعاب النطق السليم من جهة وللبقاء على اتصال دائم مع الأحداث الراهنة من جهة اخرى.

ووضع في شقة ايلي جهاز سينما مصغر، وعرض الخبراء عليه افلاماً عن سوريا، تشتمل على لقطات عن وحدات الجيش السوري، والمنشآت العسكرية السورية، وكان معظم هذه المواد قد تم تسجيله نقلاً عن اذاعات التلفزيون السوري من دمشق، فيما يبذله الموساد من الجهود لمراقبة كل بث يصدر من كل بلد من البلدان العربية.

ولم يكتف رجال الموساد بالمساق المستعجل الذي تلقاه ايلي عن سوريا واللهجة العربية السورية، فألزموه فوق ذلك بتعلم كل ما يقدر عليه من معلومات عن الأرجنتين... ودرس مساقاً مماثلاً عن تاريخها وسياستها وجغرافيتها وصقل لغته الاسبانية، ونظم كيف يتكلمها، على احسن وجه ممكن، باللهجة الارجنتينية.

ودهش ايلي لهذا الواجب الاضافي، فسأل الضابط عن الغاية منه، فأخبره بأنه سيقضي بعض الوقت في الارجنتين قبل سفره الى سوريا. واحس ايلي بالقلق إزاء هذه الانباء، فقد كان يريد الشروع في عمله الحقيقي في سوريا. واجابه بحدة: اغتبر نفسك حسن الحظ، فأكثر العملاء انما يتنكرون بشخصياتهم الجديدة، بعد تشاور مستعجل في تواليت احد المطارات، ويتوجب عليهم تعلم كل شيء في غضون ساعات قلائل، اما أنت فدونك شهران لتحقيق ذلك.

والحق ان الموساد كان يوارب ويتحين الفرص، فلم يكن يريد ان يدخل ايلي الى سوريا، في حين ما تزال بها اعداد غفيرة من المصريين، ولكنه لم يرد ابلاغ ايلي بالحقيقة. وانكب ايلي على دروسه من الصباح الباكر الى وقت متأخر من الليل، وكان مدربوه يفرضون عليه العزلة التامة، عن عمد، ليتمكنوا من اجراء تقييم اضافي لقدرته على احتمال الاجهاد. وقد صمد ايلي لذلك صموداً حسناً، ولكنه كان يتطلع محزوناً من نافذته حين كانت الشوارع تكتظ بالمارة.

وقال ايلي ذات ليلة:

انني ابدو شبحاًبين مفقودين. ولكنه لم يعد للشكوى بعدئذٍ، وعندما ذكره احد مدربيه بأن في وسعه التخلي عن العمل في أي وقت يشاء، لم تبد منه أية اشارة تنم عن الضعف.

وكان رؤساء ايلي يتحينون الفرص، في أثناء ذلك وهم يراجعون بالتفصيل جميع جوانب التغطية ـ الشخصية المنتحلة ـ التي اعدوها له، كما كانوا ينتظرون اللحظة المواتية لبعثه الى الميدان.

واخيراً اعطوه اشارة الانطلاق، وذلك في حوالى مستهل السنة الجديدة ١٩٦١، فقد حان الوقت لارساله الى العمل.

وذات مساء، بعد حوالى اسبوع، اعتزم بعض عملاء ايسر هرئيل الاحتفال، بإقامة مأدبة عشاء صغيرة، وكان هؤلاء هم الرجال الذين طاروا من بيونس ايرس، قبل حوالى سبعة اشهر، بعد ان اختطفوا ادولف ايخمان.

وسألهم الضابط، وهو احد المدعوين، ان كان في وسعه اصطحاب تلميذه المؤتمن، الذي كان يتلقى التدريب آنذاك، ولم يعترض احد على ذلك، فرافق ايلي كوهين معلمه في تلك المأدبة.

وجلس ايلي طوال العشاء، في صمت وقور، فقد كان يجلس مع صفوة رجال الموساد، ويصغي الى حديثهم عن الطريقة التي اختطفوا بها المجرم النازي سيىء السمعة. وفي اليوم التالي قال ايلي لرئيسه:

لقد بعث الرجال الذين قابلتهم ليلة امس روحاً جديداً في كياني، وافعموا نفسي

بإحساسات الشجاعة والبسالة وانا مطمئن حقاً لمعرفة انهم سيشدون ازري في العمل الذي يتوجب علي القيام به.

الأول من آذار ١٩٦١ وصلت طائرة «سويس أير» القادمة من زيوريخ في الوقت المحدد، ودرجت نحو الطرف الرئيسي في مطار «ازيزه» في بيونس ايرس. وكان من اول الركاب الذين نزلوا منها رجل اعمال حسن الهندام، أنيق الملبس، كان يجلس من قبل بهدوء في حجرته بالطائرة، وهو يقرأ الصحف والتقارير المالية بعدة لغات. ولم يقابله احد في المطار، وبعد أن فرغ من اجراءات الجمارك والهجرة غادر المكان واستدعى سيارة اجرة.

واوضح رجل الاعمال للسائق انه غريب في المدينة، وطلب منه ان يشير عليه بفندق ينزل فيه، ومضى السائق به الى عنوان معروف في شارع «افنيدا نويفي دي جوليو» في قلب المدينة.

وعندما وصل رجل الاعمال الى الفندق كتب اسمه في السجل: كامل امين ثابت، المهنة: تاجر تصدير، وكان جواز سفره يدل على انه سوري، وفي خلال دقائق معدودات خرج ثابت يتجول في شارع تموز، وقد اخبره موظف الاستقبال باعتزاز ان الرئيس بيرون قد شيد هذا الشارع على غرار الشانزليزيه بعد ان زار باريس مع زوجته ايفا.

وشغل ثابت نفسه في الاسابيع الأولى من فترة اقامته في بيونس ايرس، وكان يغادر الفندق مبكراً في الصباح، ويعود اليه في وقت متأخر. وبعد ايام قليلة من اقامته في الفندق صرح بأنه وجد مأوى جديداً، وانه منتقل إليه، فقد استأجر شقة ذات اجرة مرتفعة في ١٤٠٥ شارع تاكوارا غير بعيد عن الفندق، ومن هناك كان ثابت التاجر يدير جميع اعماله.

ومثلما يتوقع المرء من مسافر في بلدٍ اجنبي، سارع ثابت الى اكتشاف المطاعم والمقاهي التي يؤمها ابناء بلده في بيونس ايرس ولم يكن ذلك من الأمور الصعبة في الارجنتين ففيها حوالى نصف مليون من العرب ومعظمهم في بيونس ايرس. وكان مما أثار حفيظة السكان المحليين هناك ان العرب لم يبذلوا ادنى جهد للاختلاط مع غيرهم، وانما آثروا البقاء في مجتمع خاص بهم له ثقافته المستقلة الخاصة.

وكذلك كانت المدينة حافلة بالاندية التي يؤمها السوريون واللبنانيون، وغيرهم من رعايا بلدان الشرق الاوسط، حيث يجتمعون في كل مساء للتحادث ولعب النرد، واستطاع ثابت بعد استفسارات ان يختار المكان الذي ارتآه ملائماً، وبعد ان تناول عشاءه منفرداً مضى الى ذلك المكان في مساء يوم من أواخر شهر آذار.

من سجايا العرب الأصيلة الود والضيافة، وسرعان ما تبادل ثابت اطراف الأحاديث مع

طائفة من الناس، طلبوا من هذا القادم الجديد التعريف بنفسه، ولم يقتضِ الأمر الكثير من تشجيع الحاضرين حتى قص عليهم ثابت سيرة حياته.

فقد غادر والده امين وأمه سعيدة بلدهما سوريا قبل سنوات ليجربا حظهما في العاصمة اللبنانية المزدهرة، بيروت، وهناك ولد كامل واخته- عينا- التي توفيت وهي طفلة صغيرة.

ولم تجر الرياح بما اشتهت العائلة، فانتقلت الى مصر، واستقر امرها في الاسكندرية اخيراً، وهناك قضى كامل اكثر ايام طفولته، وكان والده يلح على ان تحتفظ العائلة بالجنسية السورية، وهو الذي غرس في كامل حباً عميقاً لبلده. وقال كامل لمستمعيه انه اقسم حين كان والده في النزع الاخير بأن يزور سوريا في يوم من الأيام.

وذات يوم بعد أن استقرت اموره في الارجنتين حضر اليه احد عملاء الموساد ويدعى اسرائيل زالنجر لتفقد ما اذا كانت امور ايلي تسير على ما يرام. وبعد أن اتصل به واستفسر عن اموره طلب اليه ان يسافر معه الى زيوريخ في سويسرا لتسوية بعض الأمور والتعرف على بعض المصانع والشركات التي من المفروض ان يكون ايلي يتعامل معها. وقد سافر بالفعل ووصلا اليها على متن احدى طائرات الطيران السويسري - سويس اير - مساء.

واخذ زالنجر ايلي في جولة الى حوانيت زيوريخ، وزوده بطاقم كامل من احسن الملابس من البدلات حتى المناديل، وقد حصل ايلي على رقم صندوق بريد في زيوريخ يستطيع بواسطته الاتصال مع زالنجر وارسال الخطابات الى ناديا فلا ينبغي ان تصل شقتها رسالة تحمل دمغة ارجنتينية.

وأخرج زالنجر من حقيبة ملابس في شقته طائفة من الصور الفوتوغرافية لتعزيز- تغطية- ايلي من البداية الى النهاية. وكان معظم هذه الصور عبارة عن تأليفات- مونتاجات- تم تركيبها بمهارة فائقة، وفي وسعها الصمود لأكثر الفحوص دقة.

واخيراً، بينما كان ايلي في طريقه الى المطار للحاق بالطائرة التي ستقله الى بيونس ايرس، استبدل بجواز سفره الخاص وثيقة مزورة باتقان تحمل اسم كامل امين ثابت، وهنا بلغ التحول في شخصيته غايته.

وبعيد وصول ايلي الى الارجنتين، اتصل بعميل يعرفه باسم ابراهام. وتقابل الاثنان كما اتفق عليه سلفاً في مقهى كورتيناس غير بعيد من الفندق الذي يقيم فيه ايلي. وقد زود ابراهام ايلي بمكاتب مستأجرة وقرطاسية وتجهيزات وشقة جديدة وزوده بالمال ايضاً، وبقائمة باسماء اشهر العرب المقيمين في المدينة، ومعلومات عن الأمكنة التي يجدهم فيها.

غير ان جانباً معيناً من تدريب ايلي لم يحز على اعجاب ابراهام فقال للوافد الجديد ان لهجته لا تنطبق على الارجنتينية تماماً، وأرسله الى معلم محلي مؤتمن لصقل تلك اللهجة، وأبى ابراهام على ايلي الاتصال بأي كان غيره، حتى يتقن الاسبانية الارجنتينية.

اما بعد ذلك، فلم يلتق الرجلان إلا نادراً. ومنذ الليلة الاولى في المدينة اصبح ايلي شخصية شعبية في دائرة المهاجرين السوريين الواسعة من المقيمين في بيونس ايرس. وكثيراً ما دعا الاصدقاء الى شقته حيث قدم لهم المشروبات بسخاء حاتمي، وتحدث اليهم عن الوطن الذي يغلبهم الحنين اليه، وكان ايلي يعرض على كل من يأتي هناك، صوراً تفصيلية تظهره في لقطات مع ؤ نديه في الاسكندرية وبيروت وبيونس ايرس.

وكان ايلي وحده بينهم، يعلم ان هذه الصور ما هي إلا مونتاجات قام الموساد بتجميع بعضها الى بعض.

وعرف ايلي ان ـ نادي الاسلام ـ وهو مطعم ومركز اجتماعي هو خير الأمكنة التي يلتقي فيها ذوي النفوذ من ابناء الدول العربية، فأخذ يقضي وقتاً طويلاً هناك، وهو يقرأ صحف القاهرة ودمشق. وذات يوم اتصل الحديث بينه وبين رجل اصلع، متوسط السن، قال لايلي ان اسمه عبد اللطيف الخشن وانه محرر اكبر جريدة عربية في الارجنتين، وكان الخشن هذا وطنياً مخلصاً، اطلعه ابن بلده الذي يصغره سناً على مكنونات فؤاده، وأسر اليه: إنني أحب ان أعود الى وطني فأنا واثق من انني سأسدي اليه خدمة ما. ولكنني لا أعرف احداً هناك مما يملأ نفسي البؤس والأسى. وسر الخشن لعثوره على مواطن مخلص في بيونس ايرس، فقلما كان يقابل شخصاً في مثل ذكائه، وحبه لبلده، واهتمامه بشؤونه، ولم يقدم الخشن ايلي الى الشخصيات العربية البارزة في بيونس ايرس فحسب بل قدمه الى الدبلوماسيين ورجال المجتمع الاغنياء كذلك.

وقد جعلت ايلي معرفته بالشؤون العربية، ضيفاً يقابل بالحفاوة والترحيب في المآدب الرسمية وحفلات الكوكتيل التي تقيمها السفارة، وفي احد تلك الاجتماعات قابل الماجور امين حافظ الملحق العسكري بالسفارة السورية، وسرعان ما أولى ثقته هذا الشاب المتحمس.

وقال الحافظ لايلي في احدى المآدب بالسفارة:

لا ينبغي ان اتحدث في شؤون السياسة، ولكني امحضك النصح بالايمان بمبادىء حزب البعث وفي نهاية هذا العام، عندما تنتهي مدة عملي هنا، وأصفي اعمالي، سأعود الى دمشق، فلماذا لا تنضم الينا هناك؟ نحن في حاجة الى رجال عندهم ما عندك من ثقافة واخلاص للوطن.

واجاب ايلي في تواضع وحكمة:

سيدي الجنرال، لو كنت في مكانك لفعلت ذلك. من يدري؟ فلعلي اجد في نفسي الشجاعة واحتذي حذوك.

وقابل الحافظ هذه الاجابة بالامتنان، ولا سيما اذ خاطبه ايلي اللبق الحصيف محترماً إياه باستعمال لقب «الجنرال» وكان الحافظ كلما التقى بإيلي بعد تلك الحفلة يوجه اليه السؤال:

- آه، يا صديقي، متى تعتزم الذهاب الى دمشق لتساعدنا هناك؟.

اما الاستخبارات العربية في بيونس ايرس، فلم تقتنع بمشاعر كامل امين الوطنية، بمثل تلك السرعة.

وبعد حادث اختطاف ايخمان من بين ايديها، اصبحت تنظر بحذر بالغ الى كل من يتصل برجال من اولي الشأن امثال امين الحافظ وقد اخذ المكتب الثاني أي الاستخبارات السورية يقوم بتحريات حذرة عن أصل كامل امين ثابت. ووجد رجال الاستخبارات السورية ان كل ما تحدث به الى اصدقائه الجدد مطابق للواقع، فقد ولد شخص مسلم بهذا الاسم في لبنان وانتقل من بعد الى الاسكندرية وبيونس ايرس، وعمل في جميع الامكنة التي عمل فيها ايلي «كامل» وهو في سن ايلي بالضبط.

ولكن التحريات لم تتوقف عند هذا الحد. فقد اكتشف ايلي عند عودته الى شقته ذات يوم ان البوم صوره الشهير قد عبث به، ومن الواضح ان بعضهم قد اقتحم الشقة، وأخذ نسخاً عن بعض الصور التي في الالبوم.

وكان ايلي يعلم ان هذا الأمر واقع لا محالة، فتعمد ألا يكتم عنوانه ورقم هاتفه عن احد من معارفه وكان يترك البوم صوره في غير اكتراث على منضدة غرفته الامامية.

وبعد ان انتهت التحريات، اقتنع رجال المكتب الثاني بصدق كامل، فقد كانت التغطية التي صنعها زملاؤه له في تل أبيب تجعل من المستحيل على احد كائناً من كان تكذيبها.

ولما شهد لايلي بالصدق والأصالة تابع عمله بنشاط في توسيع دائرة معارفه بين اصحاب الشأن من السوريين المقيمين في بيونس ايرس. وكان يبدو جذاباً، خبيراً بفنون المجاملة، اذا دعي الى منازلهم أو الى السفارة. كما كان حكيماً لا يرتكب ادنى هفوة في صلته بعشيقاتهم. وكان كل منهم يحبه ويثق به، ويحترم مشاعره الوطنية التي دأب على المناداة بها.

وكذلك لم يستغرب احد، عندما زار ايلي كل صديق من أصدقائه في أواخر ايار ١٩٦١، ليزف لهم بالبشرى بأنه يعد العدة للسفر الى دمشق، وعندئذٍ أمطروه بوابل من اسماء معارفهم

وعناوينهم من رجال اعمال، وموظفي حكومة، وأصدقاء شخصيين ووعده الجميع بأن يكتبوا الى دمشق ليضمن هذا الوافد العائد الى وطنه الحصول على كل مساعدة ممكنة للاستقرار هناك.

واقع الأمر، ان قيادة الموساد اصدرت الأوامر الى ايلي بالاستعداد للرحيل، وكان ابراهام ينقل اليهم أولاً بأول انباء نجاح ايلي في بيونس ايرس، وعندما حل شهر ايار، بعد ثلاثة اشهر فقط من وصوله الى هناك، قررت قيادة الموساد انه حقق غاياته وينبغي له ان يعود الى تل ابيب فور حصوله على خطابات التوصية جميعاً، ودون ان يثير ضجة كبيرة حوله بالطبع.

أما التأشيرات الضرورية فتم الحصول عليها بسرعة من كل من القنصلية اللبنانية وقنصلية جمهورية العربية المتحدة. وفي آب ١٩٦١، عشية سفره بالطائرة اقام اصدقاؤه حفلة وداع مفجئة له، وفي اليوم التالي ذهب العديدون منهم لتشييعه في المطار وهو في طريقه الى ميونيخ، التي سيتوقف فيها قبل أن يستأنف سفره الى بيروت.

وهبط ايلي من الطائرة في ميونيخ، ولحق بأول طائرة متجهة الى زيوريخ، حيث وجد سرائيل زالنجر في انتظاره. وفي غرفة الفندق المعزولة في قلب المدينة، عاد كامل امين ثابت فأصبح ايلي كوهين كما كان، وسلم ما معه من وثائق الى زالنجر، واسترجع وثائقه الحقيقية ثم تجرد من كل ملابسه الارجنتينية والسويسرية، وارتدى ثيابه الاسرائيلية القديمة، وقام زالنجر بحزم كافة الاشياء الاخرى في حقيبة للملابس.

وبعدما نقل ايلي الى زالنجر تفصيلات وافية عن فترة إقامته في بيونس ايرس، تصافح الرجلان ثم غادرا الفندق بعد خمس دقائق، ووجد ايلي وقتاً كافياً لشراء بعض الهدايا لزوجته وطفليه قبل ان يرجع على عجل الى المطار ليلحق بالطائرة التي ستتجه الى تل أبيب.

وعندما وصل ايلي الى مطار اللد، ذكره رجال الموساد بسرعة، ان كان بحاجة الى الذكرى ان الموساد يعمل كل ما في وسعه لتخليص عملائه من الفكرة القائلة بأن العملاء يعيشون حياة بذخ وترف، ففي المطار قابله عامل الراديو الشاب جدعون الذي مضى به في السيارة قبل سفره الى اوروبا، واجلس هذا العامل ايلي في شاحنته المقفلة التي تلقت العديد من الضربات ومضى به مباشرة الى منزله في بات يام حيث ينبغي له أن يستريح بضعة أيام قبل أن يبدأ العمل الجاد في استخلاص المعلومات التي حملها في عودته لدى قيادة الموساد.

بعد ان قضى ايلي كوهين اجازة قصيرة بين أهله في تل أبيب، حان وقت عودته للعمل وقد زوده رؤساؤه في الموساد بالأدوات والتجهيزات الالكترونية ومواد التصوير ومواد تساعده على صنع متفجرات وأقراص سم يستعملها عند الضرورة القصوى وهي على هيئة اقراص اسبرين. كما

كـان معـه مواد كيماوية لصنع المتفجرات الشديدة، اودعها في أنابيب معجون الأسنان ، وعلب صابون الحلاقة وكانت مجموعة تجهيزات الكاميرا اليابانية الممتازة التي معه تشتمل على ادوات لصنع مسودات الافلام المصغرة. بهذه التجهيزات، انطلق ايلي في رحلته المنفردة، ولم يتحدث هو وزالنجر قبل فراقهما إلا قليلاً.

ومضى ايلي من ميونيخ الى مدينة جنوا، ومن هناك، في الاول من كانون الثاني، أقلع كامل امين ثابت في حجرة من الدرجة الاولى على ظهر الباخرة الايطالية سونيا الى بيروت. كان ذلك اليوم نقطة البدء في عملية تجسس لم يسبق لها مثيل.

شرع ايلي في تمكين نفسه بصفة عضو بارز في صفوة السوريين، حتى في اثناء رحلته بالسفينة من جنوا.

فبعد اقلاع السفينة بوقت قصير، اتصل الحديث بينه وبين رجل سوري عريض الجاه والثراء يدعى مجدي شيخ الأرض، وقد برهن هذا على انه حلقة وصل ممتازة، فقدم ايلي الى عدد من أولي الشأن في سوريا وساعده بغير علم منه، بأن اخذه في سيارته من الميناء الذي القت فيه السفينة مراسيها الى دمشق. وقد تمكن ايلي بالسفر في سيارة هذا الرجل الخطير من عبور الجمارك دون ادنى تفتيش.

وكان اول بند في قائمة اعمال ايلي في دمشق، البحث عن مكان يأوي اليه، وقد استقر به الأمر في شقة فسيحة بالدور الرابع من مبنى حديث في حي «أبو رمانة» التجاري المزدهر وكان ذلك المكان مريحاً فاخراً، ولكن الراحة والترف لم يكونا شيئاً كبيراً عند ايلي، بقدر ما اتصف به المبنى من اهمية لمواجهته مقر قيادة الاركان السورية.

وكان العمل الثاني في قائمة اعمالي ايلي تكوين شركة استيراد وتصدير ، شهدت نجاحاً فور انشائها تقريباً. وقد أدار ايلي العمل بكفاءة، وحقق ارباحاً حسنة لكل من اتصلوا به ومنهم الموساد ومهما كان حجم الكميات التي يرسلها من سوريا من اثاث قديم، وطاولات نرد، ومجوهرات، وتحف فنية، كان ايلي يجد المشترين لتلك السلع جميعاً.

وكان مجهزو ايلي بالبضاعة يعجبون به للسرعة التي كان يسدد بها حساب فواتيره، ويقدرون له استعداده لايداع شيكاتهم في حسابات مرقمة بالبنوك السويسرية التي ساعدهم على فتحها فيها. وكانوا يجلسون معه بسرور بالغ لتناول أقداح القهوة التركية في سوق الحميدية في دمشق القديمة.

ولم يكن هؤلاء يعرفون ان محادثاتهم الودية مع ايلي كوهين، تزوده بالخلفية الاقتصادية الى

قيادة الموساد في تل أبيب، ولم يكن في وسعهم كذلك الاشتباه بأن زبونهم المحبوب هذا قد كان يخبىء الأفلام المصغرة في الفراغات السرية التي جهزها في المناضد وطاولات النرد التي كانوا يبيعونها له.

وكان ايلي اذا عاد الى شقته في الليل، يخلع عنه ثياب تاجر التصدير الغني، ويعود ايلي كوهين الجاسوس، فبعد اغلاق الابواب اغلاقاً مزدوجاً، وإسدال الستائر، يتناول جهاز الارسال المصغر الذي خبأه في قدح نحاسي للزينة في داخل ثريا بلورية كبيرة، ويمضي بذلك الجهاز الى غرفة نومه، حيث يكتب رسائله ويترجمها بالشيفرة، ثم يبدأ نقرها بسرعة ودقة الى تل أبيب، وبين هذه هوائيات التلفزيون البسيطة على سطح شقته ركز هوائي الارسال، ولم يكن بحاجة الى بث الرسالة الواحدة مرتين.

وفي الأيام التي كان ايلي يلتقط فيها الصور، كان حمام شقته يتحول الى غرفة سوداء، يجري فيه بعض العمليات على المسودات، ويختزلها الى افلام مصغرة، وفي الغد كان ايلي يخبئها في القواعد المموهة أو السيقان المجوفة في هذه السلعة أو تلك من سلع التصدير.

وفي زيوريخ كانت الافلام المصغرة تستخرج بعناية، ويتم ارسالها في طرق خاصة الى تل أبيب. اما الرجل الذي كان يتسلم بضاعة ايلي ويبيعها للتجار السويسريين المتهافتين فلم يكن سوى اسرائيل زالنجر عميل الموساد المعروف، وكانت تقارير ايلي وافلامه المصغرة تشتمل دائماً على صور تهم رؤساءه من أوسع الناس نفوذاً في اوساط الحكومة والعسكريين السوريين، ومن بين اصدقائه هؤلاء اللفتنانت معز زهر الدين ابن أخ رئيس الاركان عبد الكريم زهر الدين ومنهم جورج سيف المسؤول عن الاذاعة في وزارة الاعلام السورية، والكولونيل سليم حاطوم قائد لواء المظلات الممتاز.

وكان حاطوم هذا متميزاً بمعاداته الشديدة للصهيونية، يقضي ساعات متصلة وهو يلقي محاضرات على رفاقه، متهماً رجال السياسة في سوريا بانهم يجبنون عن خوض المعارك مع اسرائيل وكان ايلي يستمع اليه متعاطفاً معه، ويمتدحه لصلابة مشاعره الوطنية.

وقد اختار ايلي شقته بمثل ما اختار به اصدقاءه من عناية فقد كان يتمكن بعد الاضواء المشتعلة في مقر القيادة في الجانب الآخر من الشارع من تقدير إمكان نشوء أزمة بين العسكريين، وكانت التحركات الكثيرة وغير العادية لسيارات الليموزين وسيارات كبار الضباط من المبنى واليه، كثيراً ما تكون نذيراً بتدبير هجوم جديد على اسرائيل.

وفضلاً عن ذلك اشتمل الجوار على اثنتي عشر دار سفارة وعلى المقر العام لقوة حفظ السلام

التابعة للأمم المتحدة، ويعني هذا قيام بث لاسلكي نشيط في المنطقة، مما يزود باعث الاشارات الوحيد في شقته بالدور الرابع بتغطية ممتازة، فلم يكن من المحتمل ان يكتشف احد دفقات الشيفرة التي يبعث بها ايلي.

وبعد انقضاء شهرين على حلول ايلي هناك، تبين ان تكهناته باختيار المكان الملائم قد اتت ثمارها. فعلى اول رسالة مهمة بالفعل ابلغ ايلي تل أبيب انه: بقيت الأنوار مضاءة ثلاث ليال متتالية، في مقر القيادة العسكرية العامة حتى الفجر. ليس من المتوقع حدوث انقلابات وسبب النشاط المحتمل: القيام بعمليات ضد القوات الاسرائيلية. الصحافة والراديو والتلفزيون معادية للصهيونية بوجه خاص، في الأيام القليلة الماضية قامت تحركات كبيرة للقوات في الشوارع.

ونقل تقرير ايلي على الفور الى جميع مراكز القيادة في طبريا، المطلة على الحدود السورية، وفي خلال ٢٤ ساعة تأكدت صحة ذلك التقرير، فقد كانت طوابير من السلاح المدرع الثقيل قادمة في طريقها من دمشق.

وهنا أمرت اسرائيل بشن هجوم انتقامي مفاجىء على قاعدة النقب السورية، فقامت الطائرات والمدفعية بتدميرها تدميراً تاماً.

وتحققت الوحدات المدرعة السورية من أن اسرائيل في حالة التأهب القصوى، فعادت ادراجها الى قواعدها.

وبذلك برهن ايلي كوهين على الفكرة القائلة بأن: العميل الجيد يعادل فرقة من الرجال. وفي الاستخبارات السياسية والعسكرية على حد سواء، كان ايلي يزود تل أبيب بمعطيات لا تقدر بثمن. وكان في تفسيراته للتغييرات السياسية في دمشق من الدقة واستباق الحوادث الفعلية ما يجعل الموساد يقوم بإرسالها الى رئيس الوزراء خلال ساعات قليلة من وصولها إليه، وكثيراً ما اتخذ بن غوريون قرارات مهمة في السياسة، وهي قرارات قد تفصل بين الحرب والسلم، بناء على برقيات ايلي كوهين الموثوق بها.

وفي تموز ١٩٦٢، بعد مرور ستة اشهر من وصول ايلي الى دمشق، استدعي للرجوع في اجازة الى تل أبيب، فقد أراد له رؤساؤه في الموساد التخفيف من عناء العمل بشخصية منتحلة في مدينة معادية، ولكنهم أرادوا فوق ذلك ان يوجهوا اليه المزيد من الاسئلة عن المعلومات التي بعث بها إليهم.

وكذلك، تركوه وشأنه مع عائلته بضعة أيام، فقد كان ايلي مشتاقاً للاجتماع بناديا وصوفي ولم يكن رؤساؤه هؤلاء رغم كثرة طلباتهم، يحلمون بحرمانه من ذلك.

على ان ايلي، عاد بعد هذه الايام القليلة جاسوساً كما كان، وقامت هيئة من رؤسائه بتوجيه الاسئلة اليه بدقة للحصول على المزيد من التفصيلات بشأن الخطط والتحليلات التي أرسلها في افلام مصغرة او كتبها بالحبر السري في غمرة مراسلات العمل التي بعث بها من دمشق، ونادراً ما عجز من اشباع شهيته التي بدت شرهة للغاية لجمع المعلومات، وقد مكنته ذاكرته المدهشة من استرجاع خطط وافية، ومحادثات بتمامها مما كان قد اطلع عليه في ثوان معدودات فحسب. وقد جعل ايلي تلك الانجازات تبدو ميسورة سهلة أمام مستجوبيه، ولكنهم كانوا يعرفون الحقيقة مغايرة، فسوريا من اكثر البلدان العربية تعصباً في معاداتها لاسرائيل، وفي الحق ان لدى السوريين ميلاً للارتياب في أي اجنبي كائناً من كان، بل ان المستشارين الروس الذين هناك كان يجري فحصهم بحذر عن جمهور السكان المدنيين الذين كانوا يدعون دائماً الى اخذ حذرهم من العدو في الداخل.

وقد حذر ايلي رؤساؤه قبل عودته الى دمشق من القيام بأية مغامرات غير ضرورية. وأخبروه انه حر تماماً في رفض أي طلب بالراديو بشأن الحصول على معلومات معينة اذا شعر ان الحصول عليها قد يعرضه للأخطار.

واستجاب ايلي لهذا التحذير بما يتسم به من ثقة بالنفس بقوله لن يدري احد من انا. وكان لحماسة ايلي جانب لا يتصل بالمهنة أيضاً، فقد بقي واحداً من كبار انصار لعبة كرة القدم ، وكان يحب الاستماع الى القسم العربي من الاذاعة الاسرائيلية في جهاز الاستقبال الذي في شقته، وحدث ذات يوم ان تمكن فريق زائر من هزيمة الفريق الاسرائيلي في تل أبيب ، وفي اليوم التالي قرر ايلي الخروج على القاعدة الصارمة التي تقضي ببث ـ العمل فقط ـ ودهش الرجل الذي يتصل به من تل أبيب أبلغ الدهشة حين وصلته الرسالة التالية :

ألم يحن الوقت لأن ننتصر في ملاعب كرة القدم؟ ابلغ الفريق الخاسر عن انهم قد جلبوا لنا الخزي والعار.

وفي مناسبات اخرى بعث ايلي برسائل قصيرة من مثل: ارجو ابلاغ زوجتي تحياتي للذكرى السنوية ـ أو عيد ميلاد سعيد لابنتي. وكانت هذه الرسائل لا تغيظ الموساد إلا قليلاً، فقد كانت المعلومات القيمة التي يرسلها ايلي تجيز له ما لا يجوز لغيره من الخروج على القواعد.

وفي دمشق كان لايلي مشكلاته الشخصية مع شيخ الارض الذي ضاق ذرعاً برفض صديقه الزواج، وقد قدم الشيخ الثري ايلي الى عشرات من الشابات الصالحات وبذل جهوداً جبارة لحمله على الزواج من ابنة مالك ارض كنيته ابو محمود وقد وقعت ابنته في حب ايلي ولكنه حاول ان يثنيها عن هذا الدرب بما استطاع من كياسة ولطف.

وكانت الضغوطات الموجهة الى ايلي شديدة جداً مما جعله يتجه الى رؤسائه في الموساد يستنصحهم في امره وكانت إجابتهم الوحيدة هي: ماطل ما استطعت، وانتهى ذلك الى استياء الفتاة وعائلتها اشد الاستياء منه.

أما اصدقاؤه الآخرون فلم يعيروا كبير اهتمام لوضعه العائلي، ولعلهم كانوا يفضلون ان يبقى اعزب في دخائل نفوسهم، فربما ادى وجود الزوجة الى وضع حد للكرم البالغ الذي كانوا يجدونه في شقته دائماً. ولعل أصدقاء ايلي من ذوي الشأن كانوا يستعملون شقته بقدر ما كان يستعملها هو، وكثيراً ما اقيمت فيها حفلات الانس والسمر، التي تقدم فيها الراح والمأكولات الثمينة وافخر اصناف الحشيش وكان ايلي يتظاهر بالمشاركة في القصف واللهو، في حين يصغي باهتمام الى كل ما يتفوه به اصدقاؤه هناك.

وحين كانت قائمة الضيوف تشتمل على شخصيات بارزة من امثال ظلي، وهو احد الضباط اللامعين في الجيش السوري، حينئذٍ كان ايلي يلتزم البقاء في مرمى السمع منه طيلة السهرة.

وفضلاً عما اتصف به ايلي من كرم الضيافة، كان اصدقاؤه يشكرون له ما يظهره من تساهل في علاقاتهم غير الزوجية، فقد كان الوضع الاجتماعي في سوريا خاضعاً لقواعد دينية صارمة جداً. ويعتبر الرجل المتزوج الذي له علاقات غير زوجية، مقترفاً لجريمة اجتماعية خطيرة، ولا مندوحة له من ان يخسر وظيفته وان ينبذ مذموماً مدحوراً من المجتمع، ولم يكتف ايلي بالترحيب بعشيقات اصدقائه وقبولهن قبولاً حسناً في حفلات الانس والسمر التي كان يقيمها، بل كان يترك بلباقة مفتاح الباب الامامي في صندوق البريد في اسفل المبنى كلما كان لاحدهم لقاء حساس، يقتضي الخلوة والانفراد، وكان يشجع أصدقاءه على اعتبار شقته مفتوحة دائماً لما تريده قلوبهم من لهو ومجون وكثيراً ما أتوا بالفاتنات الساحرات لمضيفهم الكريم، ولكنه لم يكن ينسجم مع أي منهن فقد كان يؤثر ان يظل في خلفية الصورة، حريصاً على التقاط «اطايب» المعلومات التي تند من أفواه اصدقائه في ساعات غفلتهم. وذات مرة اعتزم السفر الى «رحلة عمل» في اوروبا، فسأله الكولونيل صلاح ظلي، إن كان في وسعه ترك مفاتيح شقته من بعده. ووافق ايلي على ذلك في الحال.

وقد ارتاع رؤساؤه في تل أبيب لذلك، ولكنه رأى في ذلك امراً يستحق المجازفة. فقد كان رفاقه السوريون يجزونه عن احسانه اضعافاً مضاعفة بما يقدمون له من معلومات. اما اجهزة التجسس فقد كان يخبئها بعناية تامة، ولا خوف من ان يكتشفها احد في اثناء غيبته.

وكان من الاصدقاء الذين قدروا استعمال شقة ايلي تقديراً خاصاً جورج سيف الذي كثيراً ما نزل فيها مع سكرتيرته ريتا الخولي بعد الظهر وفي مقابل ذلك جعل سيف مكتبه بيت ايلي الثاني

وكثيراً ما كان يدخل عليه المكتب بعد الظهر لتناول قدح من القهوة وتبادل الاحاديث الودية، ولم يطل الوقت على الحراس، لفرط ما اعتادوا رؤية ايلي هناك، حتى كفوا عن سؤاله عن أوراق هويته. وكان سيف مسؤولاً عن جمع الوثائق الحكومية التي تستعمل لاغراض الدعاية، وكثيراً ما كانت الوثائق الرسمية السرية ترى ملقاة على منضدته كيفما اتفق لها، وكان سيف يظهر ايلي عليها، فيتظاهر هذا بالقاء نظرة عابرة فحسب في حين انه كان يستظهر محتوياتها في واقع الأمر. وذات مرة ارتاع ايلي عندما دخل احد كبار الموظفين على سيف في مكتبه ، وصعق لمشاهدة شخص غريب يطلع على تقرير سري جداً . ووجه الموظف الكبير انتقاده الى سيف على تساهله المفرط علانية ، وأجاب سيف :

آه، انه صديقي يا اخي، ولا يختلف الحال عن اطلاعي انا على الوثيقة.

وفي مرات عديدة اخرى، كان عميل الموساد يدخل مكتب سيف، وهو غائب، فينتظره هناك، وفي اثناء ذلك يصور بهدوء كل ما يجده من وثائق ملقاة على مكتبه، وكانت الكاميرة لا تفارق ايلي تحسباً لسنوح مثل تلك الفرصة.

وسجل ايلي اصابة من خير اصاباته في لعبة التجسس، مستفيداً من صلته بواحد من صدقائه الاعزاء وهو اللفتنانت معز ابن اخ رئيس الاركان السوري عبد الكريم زهر الدين، فقد كان ايلي ومعز يحبان الخوض في مناقشة الأمور العسكرية، وكان ايلي يظهر اهتماماً بالغاً، وهو في ظهره اهتمام الهواة، وبالطبع كثيراً ما برز موضوع علاقات الحدود بين سوريا واسرائيل في اثناء محادثات، وسأل ايلي صاحبه كيف تمكن السوريون من تحصين الحدود بنجاعة، وقاموا بهجماتهم الرائعة على المستوطنات الاسرائيلية دون ان يلحق بهم سوى القليل من الاصابات، وكان ايلي الداهية يتظاهر بانه لا يعلم شيئاً عن الغارات الانتقامية الاسرائيلية ضد سوريا.

واخيراً عرض اللفتنانت معز المتلهف على اشباع فضول صديقه، عرض على ايلي ان يصعد معه في سيارته مرتفعات الجولان، ويطوف به هناك بنفسه، ولم يكن يتاح لأي مدني آخر دخول تلك المنطقة. وكان كل من دخلها بدون اذن تطلق عليه النار في الحال.

وفي احدى المرات وعده سامي الجندي وزير الاعلام السوري ان يصطحبه الى مكتب رئيس الجمهورية الرئيس امين الحافظ.

وعندما وصل ايلي برفقة سامي الجندي وزير الاعلام، حيّاه الرئيس الحافظ بحرارة وكان الحافظ يكن تعاطفاً خاصاً لابن وطنه وصديقه الشاب الذي تخلى عن اعماله الناجحة في اميركا الجنوبية ليمد يد العون الى بلده في فترة من فترات الاضطراب السياسي والاقتصادي. والح

الرئيس على أن يقوم مصور خاص بالتقاط صورة لهما معاً، وهمس الحافظ لايلي وهو يأخذه بين ذراعيه بقوله:

ان زوجتي تشكرك على معطف الفرو الذي تفضلت بإرساله اليها.

وانحنى المواطن الشاب بتواضع، وهو يعلم أن الدولارات الألف التي انفقها الموساد ثمناً لذلك المعطف ستكون استثماراً جزيل النفع.

ولما فرغ المصور من عمله، طلب ايلي منه نسخة للصورة التي التقطها، واستدار نحو الرئيس الحافظ وقال: سأحرص على هذا الذخر الثمين ما حييت.

في تلك السنة التي غاب فيها ايلي عن اسرائيل، نمت اسرته وعندما وصل تل ابيب وقعت عيناه للمرة الاولى على ابنته الثانية- ابريت- التي كانت في الشهر الثالث من عمرها.

وكانت هذه الأيام ايام بهجة في حياته. فقد كان يقضي الساعات يومياً مع ناديا وابنتيه الصغيرتين، يسيرون فيما يواجه البحر من المدينة، أو يتجهون الى الشاطىء، بل ان العائلة قضت اجازة قصيرة معاً، وتباهى ايلي امام رفاقه في الموساد- بالنساء الثلاث في حياته- وكان يحمل محفظة صغيرة ممتلئة بصورهن، ويعرضها على كل من اظهر ادنى اهتمام بالأمر، وعلى غير اولئك احياناً.

حتى في هذا الفاصل الزمني القصير من ايام السعادة المنزلية، لم ينعم ايلي بهدوة البال وراحة النفس،فمنذ الأيام الأولى لتمثيله شخصية كامل أمين ثابت، وجد بعض الصعوبات احياناً في التحول الى شخصيته الحقيقية مرة اخرى. وها هو ذا قد عاش شخصية كامل امين ثابت ١٨ شهراً، وهو يجد الآن التحول الفوري عنها اكثر صعوبة من ذي قبل واسر ايلي لصديق بقوله: انني أكد ذهني كثيراً في تذكر اسمي الحقيقي.

ومع ذلك ارتفعت معنويات ايلي بعد قضاء شهر في اسرائيل واصبح مستعداً لاستئناف مهمته.

وجد ايلي بعيد رجوعه الى سوريا في آب ١٩٦٣، ان الالسن تتناقل اسمه بوصفه من المع الذين تعقد عليهم الآمال لزعامة سوريا، وكان يحظى بالثقة والصداقة لدى العديد من أقوى الشخصيات في الدوائر العسكرية والسياسية على حد سواء، وكان يحظى بالاحترام في اوساط رجال الاعمال، وبدا مرشحاً طبيعياً لاحد المناصب الحكومية.

ومن قبل كان اسمه قد رشح ليخلف وزير الاعلام السوري، اما الرئيس الذي ازدادت عرى الصداقة وثاقة معه فقد كانت لديه فكرة افضل وهي: اعداد ثابت ليكون وزير الدفاع بتعيينه نائباً للوزير الحالي.

وقدواجهايلي كل ذلك بهدوء، فقد كان عليه انتهاز ما يلوح له من فرص، في غير اسراف في السرعة، وقال ايلي للحافظ في تواضع انه ما زال دون تلك المنزلة، وهو قد انضم الى البعث منذ وقت قريب، ولا يرى نفسه أهلاً لتقلد منصب حكومي بالرغم من نشاطه.

وتقدم ايلي باقتراح آخر، ففي وسعه القيام برحلة لاغراض الدعاية في بيونس ايرس حيث يساهم في كسب التأييد وجمع التبرعات لامين الحافظ وحزب البعث من الجماعة السورية الغنية هناك،وسارع كامل الى القول بأنه سيقوم بتلك الرحلة على حسابه الخاص.

وتأثر الحافظ أيما تأثر باخلاص صديقه ووافق على اقتراحه مسروراً. وذات مرة ذهب ايلي مع احد المسؤولين الى المناطق العسكرية القريبة من القنيطرة وشاهد مخططات مشروع تحصينات دفاعية والذي يتضمن جزءاً من مشروع تحويل المياه من نهر الاردن الذي كانت اسرائيل تقوم بتحويله الى النقب. وقد عرض على المقاول الذي يقوم بالتنفيذ مشاركته في العمل.

وشجع هذا الحافز المقاول فسمح للزائر المعروف، بأخذ خطط المشروع معه الى البيت، ليتمكن من دراستها في أوقات فراغه، وتحديد افضل مواقع المنطقة للاستثمار.

وقام ايلي بتصوير احدث ما وقع في يده من أوراق، وفي خلال ثلاثة اشهر بعث الى قيادة الموساد بمعلومات وافية عن المشروع من حيث مواقع قنواته وترتيباته الدفاعية والمواعيد الدقيقة لانتهاء مختلف مراحله، بل انه قدم لهم تفصيلات عن جانب لم يسمع به الموساد وهو: محطات الضخ العملاقة التي ستعجل العمل في المشروع.

وهكذا علم رؤساء ايلي انه كان مستحقاً تماماً لعطلة تريحه من عناء العمل، عندما زار اسرائيل للمرة الثالثة، وذلك في عام ١٩٦٤ وكان قد انقضى اكثر من عام على زيارته السابقة.

وفي هذه المرة شارك ايلي اسرته في الاحتفال بمولد طفله الثالث وهو شاؤول، الابن الذي ترقبه بفارغ الصبر، ولم يتمكن الاب الفخور من السيطرة على احساسه بالسعادة التي بعثها ابنه شاؤول في نفسه فأراد أن يدعو كل من عرف في الموساد لحضور احتفال ختان الطفل ولكنهم اقنعوه بلباقة بأن مشهد جماعة من الغرباء، محتشدة في احتفال صغير في بيته تتصف بالثرثرة والقيل والقال لن يكون من الحكمة في شيء.

بالرغم مما اتصف به ايلي من اعتداد ابوي، كانت علامات الاجهاد المحقق غير خافية في مظهره، ولا ينبغي ان يغيب عن البال انه كان يدير عملاً كاملاً في دمشق فضلاً عن واجبات التجسس. وكان عليه بعد شغل يوم كامل ان يجمع ما تيسر له من معلومات ويقضي الساعات في اعداد التقارير وتلخيصها، ثم يترجمها الى رسائل شيفرة ويبثها الى تل أبيب. وكثيراً ما كان يعمل

حتى الفجر في غرفته السوداء وهو يعد نسخ التصوير المصغرة (الميكروفيلم) وكان عليه ايضاً ان يحافظ على جميع ما له من اتصالات مع اصدقائه فيقيم الحفلات ويذهب لحضورها، ويعد الهدايا واللطائف التي تجعله قريباً من قلوبهم دائماً.

ولم يكن في حياته في دمشق شيء من السحر والجاذبية، وكثيراً ما استغرق عمله ٢٤ ساعة من يومه، والواقع ان الارهاق الذي اقترن باجهادنفسي بالغ، ناجم عن العمل وحيداً في بلدٍ معادٍ، قد ادى الى احداث تغير حاسم في شخصيته،ولاحظ جميع افراد عائلته ما اصابه من تغير، وذات يوم سألته امه ان كان يريد ان تعد له احد اطباقه المفضلة وهو طبق سوري مما عرفت في اثناء طفولتها في مدينة حلب فرد ايلي باقتضاب: إنني اتناول هذا الطعام دائماً. وقد كانت هذه النزوة منه امراً خارجاً عن طبيعته تماماً، فقد عرف عنه الهدوء واعتدال المزاج. بل كان جوابه هذا زلة لسان سيئة، فكيف يتناول ذلك الطعام السوري دائماً اذا كان يحيا في اوروبا كما قال لعائلته. ان زلة لسان من هذا القبيل في غير موضعها ربما كلفته حياته ثمناً لها.

وذات يوم، زار اخاه موريس، وقدم لاحدى بناته لعبة من «غاليري لافاييت» في باريس، وسأله موريس في حسن نية منه:

هل كنت في باريس مؤخراً؟ ونسي ايلي نفسه، وقال انه لم يكن هناك منذ اشهر، واثار هذا الجواب عجب موريس واستغرابه فسأله:

حسناً، كيف اذن حصلت على هذه الهدية الباريسية؟ وصرخ ايلي عندئذٍ: هل تتهمني بالكذب؟ هل تختبرني أم ماذا؟ فكر فيما يعنيك فقط؟.

وكان من الممكن أن يؤدي انفجار الغضب المعارض هذا الى ايذاء موريس في مشاعره ولكنه كان يشتبه من قبل بحقيقة العمل الذي يقوم به أخوه. فقد شاءت المصادفة ان يعمل موريس بصفة عامل راديو للموساد، وبطبيعة الحال عرف ان للموساد عميلاً اعلى في دمشق، يبعث بتقارير قيمة الى قيادة الموساد، ولكن احداً لم يخبره شيئاً عن هوية ذلك العميل شأنه في ذلك شأن جميع رجال الموساد ما عدا نفراً قليلاً منهم.

وبعد برهة من الزمن، دهش موريس لبعض المصادفات الغريبة، فكلما ارسل العميل من دمشق رسالة شخصية، كالتمنيات بعيد ميلاد سعيد لابنته، كان الموعد يطابق يوم ميلاد احدى ابنتي اخيه. وبعد أن جمع موريس هذه المعلومات بعضها الى بعض تأكد له فحواها بالصمت المطبق من دمشق في اثناء الأسابيع القليلة التي قضاها ايلي في اسرائيل ولم يبق لديه ريب في ان اخاه هو الجاسوس الاسرائيلي الأعلى.

وعندما استيقن موريس من حقيقة امر أخيه تأثر لذلك تأثراً يجل عن الوصف. كان دائماً يعجب بايلي ويكن له الاحترام، اما الآن فقد تضاعف اعجابه به وأصبح يتحرق شوقاً لابلاغه بأنه يعرف كنه أمره، ولكنه التزم الصمت ولم ينبس ببنت شفة، فلم يكن ليفعل ما يمكن أن يضعضع ثقة ايلي بنفسه.

وقد خمن اخ آخر، هو افرايم، الحقيقة ايضاً. كان ايلي قد اهداه زوجاً من الاحذية غالي الثمن، ولاحظ افرايم ان ارقام قياسه بالعربية ولم يقنعه ما قاله ايلي من انه اشتراه من تركيا، ولكنه التزم الصمت مثل اخيه موريس.

وفي اثناء اجتماع العائلة ذات يوم، تكشف سر ايلي بطريقة لم تخطر على بال احد، فكثيراً ما كانت العائلة تتحادث بالعربية، وهي لغتها الأصلية، ومن المعلوم ان الناطقين بالعربية بالغوا الحساسية ازاء فروق اللحن فيها. وقد لاحظ الجميع ان ايلي يتكلم باللهجة السورية اكثر مما يتكلم بالمصرية التي رضعوا لبانها اطفالاً. وكانت امه اول من لاحظ ذلك فيه، ولكنها لم تتحدث بشيء عنه لأحد، شأنها شأن أخويه. أما ناديا فلاحظت اكثر من سواها ما طرأ على شخصيته من تغير، كان مرهقاً مكدوداً ترين عليه الكآبة في احيان كثيرة، وهو يبدو وحيداً شارد اللب اذا اجتمعا معاً، وكانت ناديا قد قدرت منذ وقت بعيد حقيقة امره على نحو ما، ولكنها لم تبح بشيء عن ذلك شأنها شأن أخويه. أما الآن فقد دفعتها رغبتها الملحة في اقناع ايلي بثقتها به ومحاولتها للكشف عن اسراره:

لقد عرفت ما انت فيه حتى قبل سفرك الى بيونس ايرس، ولكني لم أرغب في ازعاجك، واضافت وهي تبتسم: ثم انني مواطنة اسرائيلية صالحة ايضاً.

وشاهد رؤساؤه في الموساد ما يعانيه من اجهاد فمنحوه اجازة اخرى، واخبروه انهم لن يعترضوا اذا طلب القيام بمهمة اخرى، ولم يختر الرجوع الى دمشق، فقد فعل اكثر مما يتوقعه الناس من كائن بشري مثله.

بيد أن ايلي كان يشعر بأن واجبه يطغى على سائر الاعتبارات فقال لرؤسائه:

يجب علي ان اعود هناك مرة اخرى، فما زال لدي عمل أقوم به في دمشق، وسأرجع حين افرغ منه.

وعندما اذنت اجازة ايلي على الانتهاء، ذهب ومعه ناديا الى مدينة قيسارية الواقعة على شاطىء البحر، وفي الليلة الاخيرة التي قضياها معا تناولا عشاءهما في مطعم ستراتون المطل على البحر الابيض، وهناك اخبر ايلي زوجته بقراره الاخير:

لقد اضناني البعد الدائم عنك وعن الاطفال، ولكن علي الاغتراب مرة اخرى، وأنا اعدك بأنني حين اعود لن أبرحكم ولو يوماً واحداً!

وبعد ان افترقا في اليوم التالي ذرفت ناديا دموعاً مريرة. كان المطر ينزل رذاذاً عندما قهر الفجر جحافل الظلام في ليلة من ليالي كانون الثاني ١٩٦٥، وكان ايلي كوهين مستلقياً على فراشه الى جانب جهاز الارسال اللاسلكي وهو ينتظر اجابة من تل أبيب عن الرسالة التي فرغ من تقديمها.

فقد علم من صديقه الحميم سليم حاطوم الذي تناول العشاء معه في المساء، ان الرئيس الحافظ، ورؤساء المخابرات السورية قد اتخذوا قراراً استراتيجياً جديداً، طوروا خطة لتوجيه الجماعات المتشظية بين النشيطين من اللاجئين الفلسطينيين، ولخلق منظمة متآزرة واحدة، وسيتم تدريب الرجال في قواعد الجيش سراً، ثم يرسلون لشن حرب عصابات ضد اسرائيل.

قال حاطوم:

سنفعل مثلما فعل المناضلون في الجزائر ونجلي اليهود كما فعل اخواننا بالمستوطنين الفرنسيين في شمال افريقيا.

وفي خلال ٢٤ ساعة من اتخاذ القرار، قام ساعٍ خاص بنقل تفصيلاته الى رئيس الوزراء الاسرائيلي.

ولمح ايلي ساعته التي كانت تشير الى الثامنة، وادار مفتاح جهاز الارسال الى النقطة الدقيقة التي تصله منها اشارات قيادة الموساد بوضوح تام كما اعتاد ان يفعل.

وفجأة سمع طرقاً عنيفاً على مدخل شقته. وقبل ان يجد وقتاً للتصرف تحطم خشب الباب الصلب، واقتحم الغرفة رهط من ثمانية رجال مسلحين، وقد شهروا مسدساتهم وكانوا يلبسون زي المدنيين،.وفي حين غطى كامل جهاز البث بدون وعي كان رجلان يصوبان مسدسيهما الى رأسه وصاحا به:

لا تتحرك.

واندفع رجل يلبس بزة عسكرية صوب الفراش وعرفه ايلي في الحال، انه الكولونيل احمد سويداني رئيس شعبة الاستخبارات المضادة.

وانتهت اللعبة.

وفيما بعد تحدث الكولونيل سويداني في مقابلات مع الصحف اللبنانية فادعى أنه كان قد

اشتبه بكامل امين ثابت قبل وقت ما، وقال:

لقد امرت بتعقبه، واجراء مراقبة دقيقة للذاهبين الى شقته والخارجين منها، وأنا شخصياً شاهدت هوائي جهاز الراديو الذي يستعمله فوق سطح المبنى. وقد علمت من قائمة اسماء معارفه من اصدقاء ورجال اتصال خطيرين انه كان جاسوساً خطراً، وكان هاتفه ورسائله خاضعة للمراقبة.

والواقع ان احداً لم يشتبه ادنى اشتباه في صدق التغطية بإيلي طيلة السنوات الثلاث التي قام فيها بعمليات التجسس في دمشق، ولم يتعرض أي من اصدقائه للتعقب أو الاعتقال بل لم تقم اية مراقبة كائنة ما كانت.

ولم يكن لاعتقال ايلي اية صلة بيقظة الكولونيل، أو باخطاء معروفة ارتكبها الجاسوس وإنما تصل ذلك بالشكاوى التي دأب عاملو الراديو في السفارة الهندية المجاورة على رفعها الى السلطات السورية، فقد اخبروا السوريين ان بعض الاضطرابات تؤدي الى تشويش ما يبعثون به من رسائل بالراديو الى نيودلهي. وحاولت السلطات السورية العثور على مصدر الاضطراب، ولكنها لم تكن تملك الاجهزة المتطورة الكافية.

ولا يدري احد حتى الآن تفصيل ما وقع بعدئذٍ، ولكن سرعان ما تبين لسوريا ان شخصاً ما يبعث برسائل راديو غير مجازة، في جوار السفارة الهندية.

وهكذا قامت القوات السورية في الليلة التي سبقت اعتقال ايلي بمحاصرة المبنى المجاور الذي بدا مصدر الارسال المحتمل وفتشته من اعلاه الى اسفله.

ولم يكن ايلي كوهين يعلم شيئاً عن ذلك، ولعله كان اقل يقظة مماينبغي له ان يكون، فلو رجع الى الوراء لما اعياه تبين النذر، وكان ايلي قد اشتكى في رسالة الى تل أبيب قبل ليلتين من اعتقاله، من متاعب في الارسال ناجمة عن انقطاع غير مألوف للتيار الكهربائي، وقد تمكن من مواصلة البث في اثناء انقطاع التيار باستعمال البطاريات.

وفي صباح يوم اعتقاله، حدث انقطاع آخر في التيار واستعمل ايلي البطاريات ايضاً للقيام بالبث، ولم يكن لديه أية فكرة عن انقطاع الامدادات الكهربائية مجدداً. لقد كان تحديد موقعه سهلاً وميسوراً، فجهاز ارساله هو جهاز الراديو الذي واصل البث هناك.

وحين تعرفوا بالأدلة الايجابية على منزل ايلي كوهين، بوصفه مصدر البث، اشاروا على رجال الاستخبارات السورية المضادة، بفحص سطح المنزل، وعندئذٍ عثروا على هوائي جهاز ارسال الراديو الذي كان يؤدي الى شقة ايلي مباشرة.

نقل الكولونيل سويداني انباء ما وقع الى الرئيس الحافظ، فذهل واضطرب أمره لهذا الصديق الثقة- كامل- الذي كان يخونه في الخفاء.

واقترح سويداني ان يبقى الجاسوس خاضعاً للمراقبة بضعة ايام، فقد أراد أن يكسب الوقت ليضبطه متلبساً بالجريمة مع حلقة المتآمرين معه. كان الكولونيل متلهفاً على ان يجني ما استطاع من ثمرات انتصاره.

وادرك الحافظ، على عجل المخاطر السياسية التي تهدده اذا هو اطلق لسويداني العنان فأمر باعتقال ثابت على الفور بيد ان نبأ اعتقاله يجب الا يعلن مؤقتاً، وحذر الحافظ بقوله: سيكون ذلك في غير صالح الوطن.

وهكذا، لم تكن لدى العقيد سويداني، عندما اقتحم شقة كوهين، ادنى فكرة عن هوية الجاسوس الحقيقية، او من يعمل لصالحهم، وان لم يكن من العسير تخمين، انه من مأجوري تل أبيب.

وعندما وقف سويداني بالقرب من سرير اسيره، قال وصوته مفعم بالغضب والغرور، ضبطناك أيها الخنزير، فمن أنت؟ وما اسمك الحقيقي؟ ولصالح من تتجسس؟.

وكانت الاجابة هادئة تماماً! انا كامل امين ثابت، عربي من الأرجنتين.

ورد صوت رئيس الامن المتوعد: سنحقق في ذلك.

وصاح الكولونيل: انتظر، وسترى، بل سوف تلقى مصرعك، ولعمر الحق سوف تتكلم قبل ذلك، وتخبرنا بكل اسرارك، وبأسماء المتآمرين معك، وسوف تتمنى أن امك لم تلدك.

وفي اثناء ذلك، كان رجال الكولونيل يفتشون الغرف الخمس في شقة ايلي. وصدرت صيحة انتصار، حين عثروا على جهاز الارسال الآخر، ثم شقوا قطع صابون- بارولي- للحمام، ووجدوا فيها مسحوق المتفجرات وأدوات التفجير المصغرة، وأقراص السم، كما تم العثور على العديد من أصابع الديناميت وعلى مواد تجسس اخرى.

وكان التعليل الوحيد الذي حصل عليه حاطوم، من ايلي هو:

لم آتِ بهذه المتفجرات لاعمال التخريب، بل كانت الغاية منها تدمير جهاز الارسال، لو كان لدي الوقت لذلك.

وفي الاثنين والسبعين ساعة التالية فكك رجال الامن شقة ايلي تفكيكاً، بالمعنى الحرفي للكلمة، وقام عشرات الرجال بتمزيق الملابس والنسيج، وتهشيم الاثاث، وشق السقف

والجدران، وهم يبحثون عن قائمة باسماء زملاء ايلي من الجواسيس التي اعتقدوا انه يخفيها في مكان ما.

ولم يتعرض العميل الاسير للتعذيب في هذه الفترة، التي استجوبه فيها سويداني ونائبه عدنان طبارة بقسوة ساعة بعد اخرى.

وعندما سئلي ايلي: اين اجهزة ارسالك الأخرى؟ اجاب بقوله: ليس عندي سوى جهازين وهما يفيان بالغرض تماماً.

كان المسدس مصوباً الى عنق ايلي، وفريق من الفنيين يقف الى جواره للتأكد من انه ينفذ التعليمات بصدق، عندما طلب منه الاتصال بتل أبيب في مساء اليوم الذي القي عليه القبض فيه. وكانت في يده رسالة املاها الكولونيل سويداني، الذي كان يفكر في تزويد تل أبيب بمعلومات كاذبة اما لتضليل الاسرائيليين أو للتغرير بهم وحملهم على الكشف عن اسماء جواسيس آخرين في شبكة التجسس في سوريا.

وعلى كل حال، فعل كامل ما طلب منه. وكان خبراء الاذاعة السورية يراقبون كل حركة يقوم بها ايلي وهو ينقر الرسالة بأصابعه، للتأكد من انه يتبع تعليمات الكولونيل سويداني بدقة. وكذلك فعل. وبعد لحظات جاء الرد من قيادة الموساد بأنهم تسلموا الرسالة وسر السوريون من انطلاء خدعتهم على الاسرائيليين.

ولكنهم لم يفلحوا في تبين التغير الدقيق في السرعة والايقاع اللذين ادخلهما ايلي في نقره للرسالة. ولم يكن هذا يعني شيئاً لدى السوريين أما الاسرائيليون ففهموا منه شيئاً واحداً وهو: لقد وقعت في الأسر.

ومرة بعد اخرى قام العاملون في قسم الاتصال بالموساد بتشغيل الرسالة المسجلة التي بعث بها الجاسوس الكامل. واستدعي صديق له من منزله فور وصول الرسالة فقال: ربما كنتم مخطئين.

ولكن حكم الخبراء كان قاطعاً فقد وقع إيلي اسيراً في قبضة السوريين، وكان التغير في ايقاع نقر الرسالة متعمداً على نحو واضح وقد أراد به تحذير القيادة من انه هالك لا محالة. وتلقى رئيس الموساد تحذيراً بذلك، وأرسلت رسالة في الحال الى- فيلا- ليفي اشكول الذي خلف بن غوريون في رئاسة الوزراء، وكان في فراشه آنذاك، ولكن زوجته مريام نقلت اليه نبأ وقوع كوهين في الاسر على الفور.

وفي صباح اليوم التالي حمل سويداني اسيره على ان يبعث رسالة بالشيفرة الى تل أبيب مرة

اخرى، وجاء الرد الذي اقنعه بأن الاسرائيليين قد وقعوا في الفخ.

كانت الرسالتان اللتان بعثت بهما في الليلة الماضية وهذا الصباح غير واضحتين الرجاء إعادة بثهما في هذا المساء.

وكان ايلي كوهين يعرف الأمر خلاف ذلك. فقد كان الاسرائيليون يخبرونه بذلك انهم وعوا منه تحذيراته، وهم يحاولون كسب الوقت. فلم يحدث ان كانت رسائله مشوشة من قبل، ومن المؤكد ان التشويش لم يصل بها الى ما يقتضي اعادة رسالة بتمامها. وأما الكولونيل فكان مسروراً بتلك الذريعة التي أراد لها ان تستمر اسابيع عديدة، في حين أراد الرئيس الحافظ ان يبت في امر الجاسوس بسرعة وان يشرف هو بنفسه على ذلك، فقد كان سويداني منافساً خطراً محتملاً له، ولا بد لهذا المنافس من ان يستغل الصداقة التي قامت بين الجاسوس وبين دوائر الحكم في سوريا ليتربع هو على كرسي الرئاسة. وصدرت الأوامر الى الكولونيل بإيقاف اللعبة.

وفي صباح ٢٤ كانون الثاني امر كوهين ببث الرسالة التالية:

الى رئيس وزراء اسرائيل ورئيس جهاز الاستخبارات في تل أبيب، كامل ورفاقه ضيوفنا في دمشق، وسنخبركم عن مصيرهم قريباً. التوقيع: الاستخبارات السورية المضادة.

وبطبيعة الحال اغتم قادة الموساد لهذا النبأ، ولكن العديدين من اولي الشأن في سوريا ايضاً، ارتعدوا منه خوفاً على حياتهم، وفكر الرئيس الحافظ في حماية نفسه وأصدقائه فأرسل سليم حاطوم وصلاح ظلي الى شقة كامل للمساهمة في عملية الاستجواب وحين قال لهما الحافظ بخشونة: لعلكما تعرفان الشقة اكثر من أي شخص سواكما في دمشق، كان على علم تام بالعربدة التي كان ضباطه المؤتمنون يمارسونها في شقة كامل امين ثابت.

ولم يكن العقيد سويداني سعيداً بهذه المساعدة- فقد تحولت مباهاته- بالضربة الكبيرة- الى صمت وغيظ عندما قرر العقيدان نقل الاسير من شقته في مساء ٢٤ كانون الثاني الى مقر القيادة العسكرية للواء السبعين المدرع في خارج دمشق.

وبعد ساعات قليلة، توجه الحافظ بالسيارة الى القاعدة العسكرية وعندما وصل اليها امر الكولونيل سويداني اسيره بالمثول امامه.

ولم يكن الزعيم السوري في حاجة الى التعريف، فمن دونه وقف العربي الارجنتيني الذي صادقه في بيونس ايرس. والذي اولاه ثقته الغالية في دمشق.

وكانت زوجته ما تزال ترتدي المعطف الذي عاد به كامل من احدى رحلاته في اوروبا،

وكثيراً ما حل هذا الخائن ضيفاً في مقر الرئاسة في مناسبات عديدة، وكان يعامل معاملة الأخ، وقد رتقى الى اعلى المناصب حتى اوشك ان يصبح وزير دولة في الحكومة السورية، بل كان الحافظ يفكر في تهيئته ليصبح خليفته في يوم من الأيام.

ونظر الرجلان، احدهما الى الآخر، في صمت. وكان الجاسوس اول من تكلم منهما: انا يلي كوهين من تل أبيب، جندي في الجيش الاسرائيلي.

بينما كان العقيد سويداني يحاول اسقاط خصومه السياسيين في دمشق بالمقابلات بالافتخار وكشف الاسرار، التي اجرتها معه احدى الصحف اللبنانية، لجأ الرئيس الحافظ الى الوسيلة نفسها لتحويل شبح الاتهام عنه وعن اصدقائه. ففي مقابلة خاصة بصحيفة اخرى اعلن الحافظ عما يلي: قمت انا شخصياً بمقابلة الاسير، وفي البدء اعتقد رجال الامن عندنا انه عربي حقيقي يحمل سم كامل امين ثابت، وانه قد جنده عملاء اسرائيل في الارجنتين للتجسس علينا. عندما نظرت في عينيه ادركت انه يهودي على الفور.

واوضح الجنرال كيف استطاع ان يوقع الجاسوس في الفخ حين طلب منه قراءة سورة الفاتحة.

لقد تردد وعلمت انه ليس عربياً، وعندئذٍ سلمته الى ضباط الامن، واوضحت لهم مجرى التحريات اللازمة. ونقل ايلي الى سجن مدني بعد الفراغ من تعذيبه وبالرغم من المعاملة القاسية، كانت مشاعر حراسه تجمع بين الاحترام والبغضاء لهذا الرجل الذي كان يسمى- شيطان الاسرائيلي-.

وادى اعتقال ايلي الى القبض على حوالى ٥٠٠ رجل وامرأة في سوريا في تلك الفترة وكان منهم سكرتيرات في الحكومة ومضيفات طيران. ونساء أخريات ممن شاركن في حفلات المجون التي كانت تقام في شقة ايلي، أما الرجال من امثال معز زهر الدين وجورج سيد وشيخ الأرض فقد زج بهم في السجن.

وكانت جريدة الحياة البيروتية هي التي لخصت المشاعر السائدة في العالم العربي آنذاك فحواها: - كانت دمشق تتخذ القرارات في اجتماع مجلس الوزراء في الصباح وايلي كوهين ينقلها الى تل أبيب في المساء-.

ولم يسمح لأي صحفي عربي بمقابلة الجاسوس، سوى صحفي لبناني، فقال عنه قوله: ذهبت الى سوريا للعمل من اجل بلدي، من اجل مستقبل شعبي وزوجتي واطفالي الثلاثة ويهمني ن يعرف الناس انني لم اخن اسرائيل قط.

وحاول رئيس وزراء اسرائيل انقاذ حياة كوهين، فطلب شخصياً من محرري الجرائد في اسرائيل التهوين من اهمية الحادث واوضح قائلاً:

- لم تعد البلدان المتحضرة في عصرنا الحاضر تعدم الجواسيس، وهي عموماً أما تقايضهم بجواسيس آخرين، وأما تبقيهم في السجن الى حين ثم تطلق سراحهم بدون ضجة.

وقام مبعوثو اسرائيل بحملة دبلوماسية وسياسية واسعة لانقاذ حياة العميل، فطلبوا من السفراء وأصحاب المراكز الحكومية الحساسة، ورجال الاعمال، ورؤساء الدول أن يبذلوا جهودهم للتأثير على السوريين.

وتزايدت الضغوط عندما اقترب موعد انعقاد المحكمة العسكرية الخاصة التي ستنظر في قضية كوهين. وعرض محامون بارزون من مختلف البلدان خدماتهم على الحكومة السورية من أجل الدفاع عنه، وطار محاميان فرنسيان الى دمشق لحضور المحكمة بصفة مراقبين، وكان احدهما هو جاك مرسييه، الذي دافع عن العديد من الوطنيين الجزائريين في فرنسا حين كانت الجزائر تخوض حرب الاستقلال، ولم يكن في وسع السوريين اتهام هذا الرجل بأنه يضمر مشاعر الكراهية للعرب.

بيد ان الاسرائيليين عرفوا ان عميلهم هالك لا محالة، عندما انعقدت المحكمة فقد رفضت منحه الدفاع القانوني، ومنع مرسييه وزملاؤه من حضور المحاكمة بالرغم من التوسلات التي قدمتها حكومات اوروبية عديدة.

وأسوأمن ذلك، ما اعلن عنه من ان الكولونيل صلاح ظلي سيترأس المحكمة، وأن العقيد حاطوم سيكون واحداً من قضاتها الخمسة، فقد كان هذان الرجلان يعلمان ان سمعتهما رهن بما تتمخض عنه المحاكمة من نتائج وكذلك حال رئيس الجمهورية. ولم يكن في وسعهما التساهل مع رجل غرر بهما ايما تغرير، واستطاع ان يحصل منهما على معلومات بالغة السرية.

وقد جرت المحاكمة وراء الابواب المغلقة، وعرضت قطع مختارة منها على شاشة التلفزيون.

ولما سئل ايلي ان كان يعرف شخصي العقيدين ظلي وحاطوم اجاب بالنفي ومع ذلك، ذكر اسماء عدد كبير من السوريين الآخرين الذين اعترف بأنهم في عداد أصدقائه، وذلك امر غريب حقاً!

وسرت بارقة أمل في تل أبيب، فقد كان رجال الموساد يعرفون ما بينه وبين العقيدين من صلات، فهل عقد صفقة معهما؟ فهل كان سكوته بشأنهما ثمناً لانقاذ حياته؟ وسارع الى تأكيد هذه

النظرية المحاميان الفرنسيان اللذان طارا الى دمشق املاً في مساعدة كوهين، فقد اعتقدا من أقوال رجال الحكومة السورية ان ايلي لن ينفذ فيه حكم الاعدام حتى لو صدر هذا الحكم عليه.

اما مدى القلق الذي كان يحسه الجالسون على منصة القضاء فقد اتضح عندما استجوب جورج سيف بشأن زياراته المتكررة لشقة كوهين فقال:

لم اكن آخذ مفتاح الشقة من اجل التجسس لايلي وانما كنت آتي بالفتيات الى هناك.ونظر سيف مباشرة الى ظلي واضاف قائلاً:

لم اكن الوحيد الذي استعمل الشقة على كل حال.

وفي ٨ أيار اعلن عن صدور حكم الاعدام بحق ايلي كوهين وسيتم تنفيذ الاعدام شنقاً، اما شركاؤه من امثال شيخ الأرض فقد حكم على كل منهم بالسجن مدة خمس سنوات مع الاشغال الشاقة.

وتضاعفت عندئذٍ الجهود لانقاذ حياة ايلي، فذهبت ناديا كوهين الى باريس تلتمس المساعدة من سفير سوريا هناك ولكنه رفض مقابلتها، كما ناشد البابا بولس السادس والملكة اليزابيت والملكة الوالدة في بلجيكا، ورئيس وزراء كندا جون ديفينبيكر، ومنظمة الصليب الاحمر الدولي، وعشرات غيرهم من افراد ومنظمات، ناشد هؤلاء جميعاً السلطات السورية اظهار الرحمة بشأن ايلي كوهين.

اما الكاردينال الفريدو فيلكيوس فقد بعث من بيونس ايرس وهو على فراش الموت رسالة شخصية الى الجنرال الحافظ يرجو منه ان يعتبر التماسه بانقاذ حياة كوهين الرغبة الاخيرة لرجل محتضر. ولم تجد جميع التوسلات وتقرر اعدام ايلي.

وقد هرع الناس من جميع انحاء دمشق بعد ان نبههم راديو دمشق في الساعات القليلة السابقة الى ذلك، وكان منهم البسطاء من ابناء الشعب من احياء دمشق القديمة، والمنعمون الذين يرتدون الملابس الانيقة من الاحياء السكنية الاكثر اتصالاً بحضارة العصر. وكانت نسوة كثيرات يلبسن الحلي والجواهر ومعاطف الفراء الثمينة.

وكان السكون تاماً إلا ما نجم عن حركة أقدام بطيئة من اصوات، وفي مواجهة الجمهور وقف مئات الحراس من الجيش والشرطة ساكنين، ساكتين من وراء صفوف الاسلاك الشائكة. وكان كثيرون غيرهم من لابسي الزي المدني، أو من ضباط جهاز الامن يطوفون في المنطقة، وقد وقف جنود في حالة تأهب في كل مكان: على السطوح، ومداخل الفنادق، بل في... خفايا

المجاري تحت الارض، فقد كان السوريون يتحسبون من وقوع غارة انتقامية خاطفة تقوم بها اسرائيل.

وتقدم جلاد دمشق، أبو سليم، وهو عملاق، بطين، كث الشاربين، فلف ايلي بكيسه الابيض الخشن، ولم يطلق يديه اللتين اعيد ربطهما قبل مغادرته مركز البوليس، وانفتح باب المشنقة، ومات ايلي كوهين. كان هذا في الساعة الثالثة والدقيقة ٣٥ صباحاً.

وثبتت بالدبابيس في الكيس الابيض الذي يلف جسد ايلي ورقة كبيرة كتب عليها بالعربية تفصيلات حكم الاعدام.

وفي الساعات الست التالية، مرت آلاف مؤلفة من السوريين بمقربة من جسد ايلي المترنح واعاد تلفزيون دمشق مرات عديدة فيلماً يمثل اعدام ايلي تصاحبه موسيقى عسكرية، وكانت مكبرات الصوت تذيع وصفاً درامياً للحادث في جميع ارجاء سوريا.

ثم قطعت السلطات حبل المشنقة ونقلت جسد ايلي بهدوء حيث تم دفنه في المقبرة اليهودية بدمشق.

وفي اسرائيل تليت صلوات الحداد في كل كنيس وكنيس، وادى الحاخام الاكبر في الجيش صلاة على روحه في شقة ناديا كوهين. وقاد دافيد بن غوريون مظاهرة احتجاج في شوارع تل ابيب وفي كل مدينة ومستوطنة كبيرة اعيدت تسمية الشوارع باسم ايلي كوهين، وكذلك شأن الغابات والمنتزهات.

أما ناديا كوهين التي شاهدت في التلفزيون الجلاد وهو يضع الانشوطة حول عنق زوجها، فاضطربت وحاولت الانتحار لكنها نقلت الى المستشفى وأسعفت وتم انقاذ حياتها.

وتسلمت ناديا رسالة ايلي، وفعلت كل ما طلبه اليها، خلا شيء واحد: الزواج من بعده، وما زالت تحتفظ بتلك الرسالة الى الآن.

* * *

الباب السادس

اسرائيل بير
صديق بن غوريون

امتعض اسرائيل بير أو ببكه كما لقبه الناس اشد الامتعاض لاستدعاء ايسر هرئيل له، فقد كانت الرسالة التي تسلمها منه فظة غليظة: تعال الى مكتبي.

وكان بير الذي اشتهر بأنه خبير في الشؤون العسكرية وواحد من أقرب المقربين الى بن غوريون، شخصية بارزة في الحياة الاسرائيلية العامة.

وقد هاجر اسرائيل بير هذا من النمسا الى فلسطين، وانخرط في جيش الهاغاناه السري، وعمل بتفوق في الجيش عدة سنوات. وقد ساعدته قدرته الذهنية على التحليل، وما حظي به من تدريب عسكري أكاديمي على الرقي السريع في معارج الجيش، حتى اصبح برتبة كولونيل اخيراً. وفي اثناء حرب الاستقلال اختير اسرائيل بير لرئاسة قسم العمليات والتخطيط في مقر قيادة الجيش. وكان كثيراً ما يرى بصحبة رئيس الوزراء في المناسبات الرسمية.

وخرج بير من الجيش في عام ١٩٥٠ ليمتهن السياسة، ولكنه حافظ على اهتمامه بالأمور العسكرية وعلى صلته بها. وكان يحضر اجتماعات رئاسة الاركان البالغة السرية، ويحصل على ما يشاء من معلومات، وكانت خطط الجيش ومخططاته ووثائق الدفاع ذات الأهمية القصوى تجد سبيلها الى يده. وفي عام ١٩٥٥ طلب منه ان يكتب تاريخاً رسمياً لحرب الاستقلال، وخصصت له غرفة في وزارة الدفاع ليقوم بابحاثه فيها.

وشاعت شهرة بير بوصفه خبيراً عسكرياً حتى في خارج اسرائيل، وكان يلقي المحاضرات فيما يتصل بالحرب من موضوعات في العديد من البلدان الاوروبية، ولا سيما في المانيا، التي ترك فيها انطباعاً عميقاً لدى بعض الشخصيات البارزة كالسياسي فرانتس جوزيف شتراوس ورئيس جهاز الاستخبارات راينهاردت غيلهن. وكان بير في جولات محاضراته بالمانيا ينبه جمهور الشبان المستمعين اليه اشد التنبيه الى واجبهم تجاه وطنهم والى الحاجة لجعل المانيا دولة ديموقراطية قوية في مواجهة «الخطر الشيوعي القادم من الشرق».

واستحوذ بير على اعجاب قيادة حلف شمال الاطلسي- الناتو- في اوروبا للتحليلات

البارعة التي قدمها عن الاستراتيجية اللازمة في حالة نشوب حرب برية في اوروبا. وقد اثنى عليه سوظفو وزارة الدفاع الفرنسية علانية، لتفهمه الواسع المدى لمختلف الشؤون العسكرية.

ولم يكن من المستغرب اذن ان يمتعض بير عندما استدعاه ايسر بخشونة ذات مساء من خريف ١٩٦٠، اذ لم يبد هرئيل من الاحترام ما يتفق مع مكانته البارزة.

ولم يقم بير بأي جهد لإخفاء انزعاجه عندما مشى في مكتب ايسر والسيجار في فمه، ثم القى نفسه في الكرسي المقابل لمكتب رئيس الموساد، ونفض بير الرماد عن سيجاره بنقرة من ابهامه تدل على الازدراء، ثم انحنى في كرسيه الى الامام وقال ببساطة: لندخل في صميم الموضوع، فأنا مستعجل.

وحدق ايسر الى العينين اللتين لا تطرفان في رأس البروفسور الاصلع، وكانت جميع ملامح وجه الزائر، ذي الشارب الاصفر المميز الذي بدت فيه آثار رماد السيجار تشير الى الاحتقار الموجه الى هرئيل، ولكن هذا لم يكن ممن يفزعون بسهولة، فواصل التحديق الى وجه بير، وهو يوجه اليه سؤالين موجزين قصيرين:

لماذا واصلت زيارتك الى برلين الشرقية؟ ولماذا سافرت الى بولندا؟.

وظهر ايسر بمظهر الديكتاتور الذي يتخذه احيانا، ورفع صوته قائلاً: ألم أحذرك قبلاً من الاختلاط بالشيوعيين؟.

وضرب المنضدة التي امامه بقبضتي يديه بشدة وصاح: إنني احذرك يا بير، وامنعكِ من السفر الى اوروبا.

وعندئذٍ وثب البروفسور على قدميه غاضباً ،فلم يكن احد، حتى بن غوريون نفسه يجرؤ على التحدث اليه على هذا النحو، وأجاب صائحاً:

اهتم بشؤونك الخاصة، فسوف اشكوك الى رئيس الوزراء، بل سأشكوك الى الحزب ايضاً.

وعندئذٍ اندفع خارجاً من مكتب ايسر.

وانقضت عدة دقائق، ورئيس الموساد يفكر في صمت، فقد كانت الشكوك تساوره بشأن اسرائيل بير عدة سنوات. كان هذا قد كتب سلسلة من المقالات المعادية لامريكا في اثناء الحرب الكورية، وكان ايسر يعلم ان بير، برغم انضمامه الى حزب بن غوريون (الماباي) الآن، كان منتمياً فيما مضى الى جماعة المابام، وهي الجناح اليساري الاكثر تطرفاً. وكان للبروفسور نشاط

قوي في مناصرة الشيوعية آنذاك مما ادى به الى تلك الجماعة اخيراً. ولم ينضم الى التحالف الحاكم- برئاسة بن غوريون- إلا متأخراً، واصبح نهجه الجديد هو: قل يعيش بن غوريون، ثم افعل ما تشاء.

ولم يكن ايسر ليحارب بير على انتمائه السياسي، ولكنه كان يعجب لقدرة الرجل على تغيير انتمائه على ذلك النحو السريع الحاسم. اما رئيس الموساد فلم يكن منتمياً الى اي حزب ولكنه يعي ما يعتقده وعياً تاماً، وكانت انتهازية الرجل تثير الشكوك في نفسه.

وبعد رحيل الخبير العسكري المفاجىء، انزعج ايسر الجالس في مكتبه مرة اخرى لشيء قاله، الا وهو التحذير الذي وجهه بير حال مغادرته بقوله سوف اشكوك الى الحزب. فما الذي يقصده بذلك؟ كان بير يعلم ان ايسر لا ينتمي الى احزاب.

كان للطريقة الطائشة التي القى بها بير عبارته الغريبة الى ايسر ما لتلك العبارة نفسها من مفاجأة، وبدا ذلك التحذير ارتكاساً ذهنياً محضاً صادراً عن رجل اعتاد تمثيل شخصية المحلل المنطقي، البعيدة عن الانفعال، واذن، فقد وثبت الغريزة من مكمنها، وبرزت من قناع التعقيدات الفكرية الذي تميز به بير.

ومن قبل احس ايسر بالانزعاج بشأن بير، كما احس بضرورة اطلاع بن غوريون على ذلك، وقد نقل اهتمامه الى رئيس الوزراء، ولكن هذا كان يثق ببير اكثر من أي وقت مضى، لقد كان رئيس الوزراء يظن ان ايسر يصدر في امره هذا عن غيرة من شهرة بير ونفوذه. بيد ان ايسر لم يتراجع لذلك. فذهب في الحال لمقابلة رئيسه وطرح امامه جميع الأسباب الكامنة وراء الشكوك التي تساوره، وقال:

«يقوم بير منذ مدة بجمع معلومات عسكرية لا تتصل به في شيء، وهو يزور المدن الشيوعية في رحلاته الى اوروبا وتربطه صداقة- مسرفة- مع الدبلوماسيين الروس العاملين في اسرائيل الذين يقابلهم كثيراً».

وقد بدت في حياة بير الاجتماعية بعض الجوانب الغريبة مؤخراً، فهو ينفق اموالا طائلة، تزيد عما يكسب، في ملاهي تل ابيب. وعندما كان في ميونيخ مؤخراً دفع مبلغ ٢٠٠ دولار دون ادنى اهتمام. وقد كان يشتري لنفسه ولعشيقاته، ومنهن من يشك في سلوكهن، ملابس كثيرة غالية الاثمان. أما علاقاته مع زوجته رفكا فهي سيئة جداً. وهو يقضي لياليه يعاقر الراح في الخانات كحانة- أتوم- في شارع بن يهودا. وكان صوت ايسر مفعماً بالغضب لفساد اخلاق بير. فهو لم يعرف الانغماس في هذه الرذائل طيلة حياته.

وقال ايسر:

من الجلي عندي ، ان بير يعاني من اجهاد ما، هو اجهاد العميل الذي يمثل دورين في الحياة، ومنذ وقت قريب تورط في فضيحة عامة: فقد هاجمه زوج احدى عشيقاته، ووجه اليه لكمات في وجهه، وهشم بعض اسنانه.

وكان بير قد اخبر رئيس الوزراء بانه فقد تلك الاسنان في حادث سيارة واختار بن غوريون تعليله ذلك على ما قاله ايسر، وبقي راسخاً في عدم الاقتناع بدعاوى ايسر.

ورد بن غوريون بهدوء:

من واجبك ان ترتاب في كل شخص كائناً من كان، أما أنا فثقتي مطلقة بهذا الرجل.

وانتهت المقابلة بينهما بذلك، ولكن المسألة بقيت قائمة لدى ايسر، ومن مزايا هذا الرجل انه لم يكن إمّعة عند بن غوريون، ولو كانت شخصيته اضعف من حقيقتها لتحاشى انتقاد احد المقربين الى رئيس الوزراء، ولكنه اختار الجانب المضاد، فأمر عملاءه بتشديد الرقابة على بير. وأخذ فريق لأعمال التحري ينقب في ماضيه للتأكد من وجود جوانب مريبة، أو أنصاف حقائق في سيرة حياته كما خبر بها اصدقاءه وزملاءه.

كان ايسر يسعى للتحقق من واحد من ـ تخميناته ـ المشهورة.

سجا ليل ٢٨ آذار ١٩٦١، بعد حوالى ثمانية اشهر من المواجهة الدرامية التي تمت بين ايسر هرئيل وبين يسرئيل بير في مكتب رئيس الموساد. كان اليهود يحتفلون بعيد الفصح، وهو واحد من اخصب الاعياد واحبها الى اليهود، ففيه يحتفلون بالخلاص من ربقة العبودية في مصر، وفي منازل اليهود في جميع ارجاء العالم، تجلس العائلات حول الموائد لتناول ـ السيدير ـ وهي وجبة عيد الفصح التقليدية التي تتلى معها حكاية الخلاص.

في الساعة الثامنة من ذلك المساء، خرج رجل من شقته الواقعة في ٦٧ شارع برانديس في تل أبيب، وكان المساء دافئاً، ولكن النسيم البليل الذي يهب من البحر الابيض الى الشاطىء حمل ذلك الرجل الى تزرير معطفه، وكانت في يده حقيبة اوراق جلدية.

واسرع الرجل خطاه في الشارع الخالي من المارة، وهو يتلفت من حوله، كما لو أراد التأكد من ان احداً لا يقتفي خطاه واستدار الى شارع جانبي وتوقف قليلاً في ظل حجيرة للهاتف، وكان يلهث آنذاك بالرغم انه لم يبتعد اكثر من ٢٠٠ متر عن شقته التي خرج منها، وتوقف لحظات قليلة لالتقاط انفاسه، ثم تلفت من حوله مرة اخرى. ولما لم يلحظ احداً في الجوار انطلق منحدراً في الشارع الى مقهى صغير واقع في أقرب زاوية من زواياه.

وسعد صاحب المقهى الذي كان يجلس وراء الباب بمشاهدة اول زبون يراه في ذلك المساء وطلب هذا الزبون زجاجة كونياك، ومضى بها الى منضدة في زاوية الحانة، بعيداً عن اضواء الشارع الساطعة، ووضع حقيبة اوراقه الجلدية على مقعد مجاور. ولما حاول صاحب المقهى ان يفتتح مع الزبون محادثة ودية، اجابة هذا اجابة جافة، معبرة عن عدم رغبته في الحديث، ومضى يحتسي الكونياك في صمت. ثم اشعل الرجل سيجارة ونظر بقلق الى ساعته.

وبعد خمس دقائق، دخل رجل آخر المقهى، وكان يرتدي بذلة سوداء قاتمة، وعلى رأسه قبعة ذات حافة عريضة وبعد ان لوح بيده للزبون الجالس، اقترب منه وجلس على كرسي مقابل له حول المنضدة.

ولم يتبادل الرجلان شيئاً من الحديث، وبعد لحظات من الجلوس نهض الوافد وخرج من المقهى.

وفي يده كانت حقيبة اوراق الرجل الآخر.

وبعد ثوانٍ معدودات، نهض الزبون الاول، ودفع ثمن الشراب، وبدون ان ينبس ببنت شفة غادر المقهى، ليلفه الليل، في حين شرع صاحب المقهى في كنسه وتنظيفه.

وفي الخارج، تلفت الرجل الطويل حوله مرة اخرى، قبل أن يسير نحو منزله، وعاد ادراجه في الطريق الذي جاء فيه، وان كان صفر اليدين الآن.

وعندما بلغ الرجل الطويل باب المبنى، الذي تقع فيه شقته دخل منه دون ان يكلف نفسه عناء التلفت فيما حوله، كان مطمئناً الى ان احداً لم يتعقبه. وبعد ان صعد الدرج المؤدي الى شقته، دخل فيها واتجه صوب مكتبته، التي تعمر جدرانها كتب من عدة لغات، وهناك جلس يرتقب.

منتصف الليل. صوت سيارة مسرعة يمزق سكون الليل في ذلك الشارع. وعند رقم ٦٧ اوقفت السيارة ونزل منها الرجل الغريب ذو القبعة، وهو الرجل الثاني الذي زار المقهى القريب قبل بضع ساعات.

وكانت في يده حقيبة الاوراق التي اخذها من صاحبه وسار هذا الرجل الى باب المبنى رقم ٦٧، ودخل بدون ان يطرق الباب، ومن الواضح ان قدومه لم يكن مفاجئاً، وانه لم يتوقع المكوث طويلاً، فقد ترك محرك سيارته بدون توقف.

دق جرس الهاتف في منزل ايسر هرئيل وتناول ايسر السماعة على الفور، فقد كان ينتظر

هذه المكالمة، التي عرف فيها صوت واحد من كبار عملائه، ولم يكن من داع للاعتذار عن المكالمة في ليلة العيد تلك:

«جرت مقابلة بين رجلنا، وبين رجل الاتصال الروسي للمرة الثانية في هذا المساء، فقد تقابلا في المقهى الصغير الذي تعرفه، وكان مع رجلنا حقيبة اوراق سلمها الى رجل الاتصال، ثم افترقا.

وقمت بتعقب خطى رجلنا حتى المنزل، وأنا الآن في خارج المكان، وقد دخل الرجل الروسي قبل لحظات ومعه حقيبة الاوراق التي تسلمها في المقهى، وهو مع رجلنا الآن في الداخل».

وكان ايسر بالغ القلق، ولكنه لم يفاجأ بما حدث، فرقم ٦٧ شارع برانديس هو عنوان إقامة: يسرائيل بير.

قرر ايسر ان الوقت قد حان ليضرب ضربته. ولكن، ينبغي أن يتم كل شيء بطريقة صحيحة وبارعة، فالقاء القبض على البروفسور الآن وهو متلبس بتسليم الوثائق الى احد الدبلوماسيين السوفيات الذي عرف عنه انه اكبر جواسيس روسيا في اسرائيل، سيكون له انعكاسات دولية وربما ادى الى اسقاط حكومة بن غوريون.

وقرر ايسر الانتظار حتى يغادر الدبلوماسي منزل بير قبل الشروع في العمل، وفي اثناء ذلك طلب من عميله الحصول على امر بالتفتيش في منزل يسرائيل بير واعتقاله. ينبغي ان يتم كل شيء بصورة قانونية أو ألا يحدث البتة.

وبعد ان وضع ايسر سماعة الهاتف رفعها على الفور مرة اخرى واتصل ببن غوريون. لم تستغرق محادثتهما اكثر من عشر دقائق، قال فيها ايسر: سألقي القبض على اسرائيل بير هذه الليلة.

وتردد بن غوريون لحظة ثم قال: قم بواجبك.

وانتهت المحادثة بذلك.

كانت الساعة تشير الى منتصف الثالثة في الصباح ويسرائيل بير جالس يقرأ في مكتبته وحقيبة الاوراق ملقاة على المنضدة القريبة، في الموضع الذي تركها فيه بعد مغادرة زائره دون المساس بشيء من محتوياتها. وفجأة سمع طرقة على الباب.

وقبل ان يتمكن بير من اخفاء الحقيبة، او حتى النهوض من كرسيه العتيق، انكسر الباب وكانت ضربة۔ معلم۔ وحيدة كافية لخلعه من مفصلاته.

واندفع صف من سبعة رجال في داخل الشقة، ووقفوا من حول بير الذي كان يجلس منتصباً متجمداً في كرسيه، وقال له احدهم بهدوء:

إنك معتقل الآن، ولدينا امر بتفتيش الشقة.

وشاهد بير الضابط يوجه بصره الى حقيبته، واجاب بهدوء بتلك الكلمات التي تفوه بها بن غوريون قبل ساعات في المكالمة الهاتفية مع هرئيل: قم بواجبك.

وكان بير يعلم حق العلم من هو ضابط الاستخبارات المضادة الذي تحدث اليه، فقد كان يعرف اسمه الشخصي منذ عدة سنوات، ولم يزد على ان قال: هل تمانع في ان ادخن؟.

كان ضابط الموساد المسؤول عن اعتقال بير يعلم انه يتعامل مع رجل من ابرز رجالات ... فقد كان بير محاضراً في مدرسة الجيش التي يتدرب فيها الضابط، وكان كولونيلاً في الاحتياط ومستشاراً ناصحاً لوزارة الدفاع ورئيس الوزراء نفسه، وقد احس الحاضرون بالصدمة جميعاً. اذ لم يكن العملاء يصدقون ان الرجل الذي قدموا لاعتقاله انما كان واحداً من جواسيس السوفيات... الا يمكن ان يكونوا مخطئين في شأنه؟ لقد كانوا يتمنون ذلك...

بيد ان شكوكهم، مهما كان امرها، سرعان ما تبددت عندما فتح الضابط حقيبة الجلد التي كانت ما تزال ملقاة على المنضدة القريبة من بير. وفي داخل الحقيبة شاهد الضابط عدداً من الوثائق البالغة السرية ومنها قائمة مفصلة لمصانع الاسلحة الكبرى في اسرائيل، وفوق ذلك كله شاهدوا مفكرة بن غوريون الخاصة، التي استعارها البروفسور حين عبر له عن رغبته في كتابة سلسلة من مقالات عن فلسفة بن غوريون في القيادة والحكم، ولم تكن هذه المفكرة تحتوي على اكثر افكار بن غوريون خصوصية فحسب، بل كانت تحتوي فوق ذلك على عدد من أسرار الدولة التي كان وزراء الحكومة يجهلون بعضاً منها. عندما قدم ايسر هرئيل مفكرة بن غوريون اليه، علق رئيس الوزراء على ذلك متبرماً: كنت غارقاً في محيط من الاكاذيب. ومن الواضح الجلي ان الحادث كان سيء الوقع على نفسه. وقد احجم ايسر عن الاشارة الى انه اعرب عن ارتيابه من بير في وقت مبكر يعود الى ١٩٥٣، ومن الأمور التي تسجل له ولموشيه دايان ان كلاهما قد قاوم رغبة بير في الالتحاق بالجيش، وان بير قد اتكأ على صداقته مع بن غوريون في مقابل ذلك ليتم تعيينه مستشاراً رسمياً في وزارة الدفاع ليتسنى له الوصول الى جميع ما لها من وثائق.

اطمأن ايسر الآن الى ان بير قد كان يعمل لصالح موسكو عدة سنوات. ولكن هذا لم يعترف بشيء في ايام الاستجواب الاولى، وبقي يكرر تلك الصورة التي يرسمها لسيرة حياته أمام اصدقائه وزملائه عدة سنوات.

وفقاً لرواية بير عن سيرة حياته، ولد في فيينا عام ١٩١٢ وهاجر والداه الى الولايات المتحدة، ولكنهما عادا الى اوروبابعد وقت قصير،ودرس بير الانسانيات والأدب الألماني في جامعة فيينا حيث تتلمذ ـ كما زعم ـ على يد ماكس راينهاردت ، رجل المسرح المعروف ، وفي أثناء دراسته بالجامعة انضم الى الطلاب الذين تمردوا ضد الديكتاتور انغلبرت دولفوس، واشترك في حرب الشوارع ضد النازيين في عام ١٩٣٤ ، وتدرب بير في اكاديمية ـ فينز نويشتات ـ العسكرية، كما قال واصبح ضابطاً في ـ الشوتسباند ـ او حلف الدفاع النمساوي.

وفي عام ١٩٣٦ ، كما قال بير، ذهب الى اسبانيا للقتال الى جانب لواء الأمميين ضد الفاشيين في الحرب الاهلية الاسبانية، وقد خوله تدريبه العسكري ان يصبح مدرباً هناك، وتعرف بير على جميع كبار العسكريين الشيوعيين واشترك معهم في معركتي مدريد وغوادالجارا الشهيرتين وساهم بير ايضاً في معركة تيرول الضارية. وفي اوائل عام ١٩٣٨ ، حين تبين ان الحرب ستكون خاسرة، هرب من اسبانيا وطلب منه السفر الى موسكو ليتلقى تدريباً اضافياً. ولكنه بدلاً من ذلك، عاد الى فيينا، حيث تأثر بالفكر الصهيوني، وبعد وقت قصير صح عزمه على الهجرة الى فلسطين. وقال بير لآسريه متحدياً :

هذه هي قصة حياتي، مثلما تعرفون جميعاً.

وفي ذلك اليوم الرابع من بدء الاستجواب، زاره ايسر هرئيل وكان هذا يعلم ان الاسير لا يبدي أي تعاون من جانبه، فدبر شيئاً ما لمواجهته.

وحدق هرئيل الى عيني بير، كما فعل في لقائهما الأول، قبل عدة اشهر، وقال له في نبرة هادئة، وعنيدة في الوقت نفسه:

انا اعرف انك جاسوس سوفياتي، اخبرني بالحقيقة، اذا تعاونت معنا فسوف تسهل الأمر على الجميع، وعلى نفسك ايضاً. اخبرني حكايتك الحقيقية.

وفي مواجهة هذا التحدي، اعاد بير القصة ذاتها مرة اخرى حتى اذا فرغ منها قال له هرئيل بهدوء: «كذاب».

(لم نجد اي اثر لوالديك في النمسا، ولو كانا يهوديين نموذجيين، كما تدعي، فلماذا لا تكون مختوناً؟).

«لقد فحصنا جميع السجلات النمساوية، فتوصلنا الى انك لم تقاتل في متاريس الشـوارع، ولم تحصل على شهادة الدكتوراه كما تدعي، بل انك لم تدرس في الجامعة، ثم انك لم تذهب الى

لأكاديمية العسكرية، فقد كان هذا محظوراً على اليهود آنذاك. وقد طلبنا دراسة قوائم الاسماء فلم يعثر على اسمك فيها، وليس اسمك موجوداً في قوائم الشوتسباند كذلك.

«ونقبنا في سجلات لواء الأمميين، ولم نعثر على اسمك فيه، انك لم تحارب قط في اسبانيا، والواقع انك لم تساهم في اية حملة عسكرية في أي مكان من العالم.

«والآن قل لي: من انت؟ اخبرنا بالحقيقة».

واتضح لبير ان الموساد قد عرى زيف ادعاءاته، فانهار، وفي الأيام الثلاثة التالية أملى تقريراً وافياً بنشاطاته التجسسية.

وكان هرئيل قد اشتبه في ان موسكو قد ـ نشطت ـ بير بعيد حملة السويس في عام ١٩٥٦، وألحت عليه منذئذٍ في تقديم اية معلومات يمكنه الحصول عليها، وعندما كانت فرنسا تزود اسرائيل بالاسلحة نقل بير تفصيلات كمية ونوعية ما يصل الى اسرائيل منها، وكذلك فعل بصدد الأسلحة التي اشترتها اسرائيل من المانيا، كما انه جمع ما استطاع من المعلومات عن دور المانيا في حلف الاطلسي ـ الناتو ـ في اثناء سفره الى المانيا. وكانت ابحاث بير العلمية الخاصة، في التكنولوجيا النووية خصوصاً، احد الموضوعات التي يحتمل ان يكون رؤساء بير في موسكو قد طالبوه بتقديم معلومات عنها.

وبقي بير يمزج الحقيقة والوهم، حتى في اثناء بوحه باعترافاته، فقام عملاء الموساد وحلفاؤهم في اسرائيل واوروبا، ومنها البلدان الشيوعية بالتحقق من كل كلمة تفوه بها، واثبت البحث الدؤوب الذي قاموا به بطلان الكثير من ادعاءاته.

بدأت محاكمة بير في حزيران ١٩٦١ وادت طبيعة الكثير من الأدلة في قضيته الى بقائها سراً، ولكنك بقيت بعض اعترافاته بشأن الطريقة الدقيقة التي نقل بها المعلومات الى موسكو سراً مكتوماً حتى يومنا هذا، ومن المعلوم على كل حال، انه قد نقل للروس خططاً عسكرية تتصل بتكتيك القتال، كما نقل قوائم عن منشآت عسكرية سرية، فضلاً عن معلومات حول من يزودون اسرائيل بالأسلحة من الأجانب.

وفي اثناء المحاكمة، دافع بير عن نفسه بانه فعل ما فعله لاعتبارات وطنية، وقال:

ـ لقد شعرت بأن من واجبي المساهمة في انقاذ اسرائيل من الوقوع في قبضة القوى الغربية ـ.

ـ واعتقد ان على اسرائيل التحالف مع البلدان الشيوعية، وأنا لم أخن اسرائيل قط وإنما كانت جميع جهودي رامية الى ابعادها عن الطريق المؤدي بها الى كارثة سياسية.

واخيراً حكم على اسرائيل بير بالسجن مدة عشر سنوات واستأنف الحكم، ولكن عقوبته زيدت الى ١٥ سنة، وبينما كان بير يقضي في سجن شطه بغور الاردن، الف كتاباً يبرر فيه اعمال التجسس التي قام بها، على اسس ايديولوجية وادعى مرة اخرى انه كان يحاول خدمة اسرائيل بذلك. اما رؤساؤه في الاستخبارات السوفياتية، خلافاً لنظرائهم في اسرائيل، فلم يبذلوا أية محاولة لمساعدته او ضمان اطلاق سراحه. وبقي في السجن حتى أيار ١٩٦٨ عندما اصابته نوبة قلبية توفي على اثرها.

لم يكشف اسرائيل بير عن هويته الحقيقية قط، بل لم يعترف بأنه قد عمل لمصلحة الاستخبارات السوفياتية ك. ج. ب. في يوم من الأيام. ولكن الطريقة التي تم بها زرعه في المجتمع الاسرائيلي تطابق تمام المطابقة نموذج التجسس الذي صممه عملاء الاستخبارات السوفياتية في وقت مبكر يعود الى عام ١٩١٧ فقد قرر آنذاك جعل فلسطين الخاضعة للانتداب البريطاني، مركزاً كبيراً لاعمال الجاسوسية. وقد يسر تنفيذ هذه الغاية الاعداد الكبيرة من المهاجرين الروس والبولنديين في ذلك الحين، وكان كثير من المهاجرين مثاليين يجمعون بين الحماسة الصهيونية وبين حماسة مماثلة للاشتراكية. وتبين ان من السهل تسريب عملاء سريين عاديين في تلك الحركة الجماعية، او اقناع بعض المهاجرين انفسهم بالقيام باعمال التجسس.

ومن بعد، حين فر اللاجئون في الثلاثينات من المانيا والنمسا مع تعاظم قوة هتلر، انضم الى صفوفهم عملاء السوفيات الناطقون بالألمانية، ويكاد يكون من المؤكد ان اسرائيل بير هو احد عملاء السوفيات في هذه الموجة الثانية.

وقد لقي السوفيات عناءً كبيراً في تزويده بتغطية مضمونة مما يدل على انهم اعتبروه واحداً من اخطر عملائهم في الشرق الاوسط. وبعد دخول بير السجن، اكتشف عملاء الموساد في النمسا ان شخصاً سمياً له كان يعيش هناك، وكان هذا طالباً يهودياً فقيراً يشبه بعض الشبه العميل الذي اصبح صديق بن غوريون الثقة فيما بعد. اما اسرائيل بير الحقيقي فقد اختفى سنة ١٩٣٨، وهي السنة التي هاجر العميل فيها الى فلسطين ولم يسمع به احد بعد ذلك.

وانتظر الروس حوالى ٢٠ سنة، وهي فترة طويلة جداً لإرسال رجلهم الى الميدان. وغني عن البيان انهم قد توقعوا منه انجازات كثيرة، وحصلوا على ما توقعوا بالفعل، فقد نقل بير كميات هائلة من المعلومات العسكرية من تل ابيب الى موسكو.

بيد ان احداً لا يدري حتى يومنا هذا هوية اسرائيل بير الحقيقية. من اين جاء؟ وكيف جرى تجنيده؟ وممن كان يتلقى الأوامر؟.

ان الاجابة عن هذه الاسئلة تقبع مطمورة في ملفات الاستخبارات السوفياتية، وفي قبر العميل الذي كان يسمي نفسه اسرائيل بير.

الباب السابع
المجابهة
حرب عام ١٩٦٧

وفي وقت مبكر من صباح ١ حزيران ١٩٦٧، رن جرس الهاتف في منزل ريتشارد هيلمز، مدير وكالة الاستخبارات المركزية سي. آي. أيه. ودهش هيلمز لذلك، فقد جرى الاتصال به عبر خط الهاتف الشخصي غير المدرج في القوائم المعروفة. وتناول هيلمز سماعة الهاتف، فعرف على الفور الصوت القادم من الطرف الآخر، وهو صوت مئير عميت، رفيقه منذ أيام الدراسة في جامعة كولومبيا، الذي بقي رئيساً للموساد الاسرائيلي منذ عام ١٩٦٢.

وعرف هيلمز من نغمة الصوت ان المحادثة لم تكن حواراً ودياً وعادياً.

قال عميت:

أنا مضطر لرؤيتك يا ديك، أتحدث اليك من حجرة للهاتف في المطار، لا يدري احد انني هنا. فقد دخلت بالطائرة وانتهى الأمر.

- الامر ملح للغاية.

وبالرغم من المفاجأة، استعاد هيلمز رباطة جأشه بسرعة وأجاب بقوله:

انني مشغول بإجراء بعض المقابلات في هذا الصباح، ولكني سألتقي بك في وقت متأخر من النهار، واذا تمكنت انت في اثناء ذلك من السفر الى مقرنا في- لانغلي- فسوف اجعل بعض رجالنا يقابلونك، وسيبلغونني خلاصة الموضوع الذي يدور في خلدك قبل وصولي اليك اذا اخبرتهم به.

وأجاب عميت:

سأكون هناك.

كانت زيارة مئير عميت غير العادية، تمثل نقطة الذروة في الاضطرابات التي دامت عدة اسابيع في تل أبيب. فقد بقي الاتحاد السوفياتي طيلة الربيع وفي اوائل الصيف يشن حرب

اعصاب، ويحاول اقناع العرب، بوصفه المصدر الاكبر للتسليح والنصائح في شؤون الاستخبارات لمصر وسوريا، بأن اسرائيل تعد العدة للقيام بهجوم شامل. وفي ١٣ أيار حذر السفير الروسي الرئيس عبد الناصر من هجوم وشيك الوقوع على سوريا. وظل السوفيات يرسلون المعلومات الى سوريا ومصر عن حشد لسلاح المدرعات الاسرائيلية في مرتفعات الجولان.

واستجابت مصر لهذه التحذيرات بإصدار الأوامر بتعبئة الجيش المصري على الفور، وطار رئيس الاركان المصري محمد فوزي الى سوريا للتخطيط للعمل المشترك، وسرعان ما اصبح البلدان في حالة التأهب القصوى، وأصبح اكثر من مئة الف جندي مصري في سيناء، متأهبين للقتال.

كانت المسألة التي تواجه الزعامة الاسرائيلية بسيطة وواضحة تماماً: هل يعني ما يحدث ان سوريا ومصر تجاريان سياسة الروس في- التوتر الخاضع للسيطرة- ام أنهما ترغبان في شن حرب شاملة، وقد وجهت الضغوط الى عملاء الموساد في جميع انحاء اوروبا والشرق الأوسط للحصول على اية معلومات مفيدة في الاجابة عن هذه المسألة.

وفي ٢٠ أيار، استخدم الموساد، خط اتصال يستعمل في حالات الطوارىء، لنقل رسالة موجزة من رئيس الوزراء ليفي اشكول الى الرئيس عبد الناصر تقول: نحن لا نريد الحرب، وسنقوم بسحب جميع وحداتنا المتركزة على الحدود اذا قمتم بسحب جيوشكم من سيناء الى مواقعها السابقة.

وجاء الرد الموجز من القاهرة :

سنجيب عن سؤالكم في الوقت المناسب.

ولم يضطر الاسرائيليون للانتظار طويلاً، فبعد ٤٨ ساعة، أصدر عبد الناصر أوامره باغلاق مضائق تيران، يعني ذلك سد طريق الملاحة الاسرائيلي الوحيد عبر البحر الاحمر الى افريقيا وآسيا. وكان لهذه الخطوة تفسير وحيد بين قادة اسرائيل من عسكريين ورجال استخبارات وهو:

ان فرصة اسرائيل الوحيدة في التغلب على خصمها الذي يفوقها في العدد والعدة، تكمن في ان تكون البادئة بالهجوم.

وعرض مئير عميت وجهة نظره بكل ما لديه من قوة، على رئيس الوزراء، ولكن اشكول الحذر، بضغط من الولايات المتحدة التي طلبت منه التعاون في محاولة تخفيف التوتر بالطرق

الدبلوماسية ، تردد وهو يحاول كسب الوقت ، وطلب اشكول من السفير الروسي - زوباخين - القيام بجولة في مناطق الحدود للتأكد من أن اسرائيل لم تكن تعد العدة للحرب .

وقوبل ذلك الطلب بالرفض على الفور . وانقلب زوباخين المعروف بجاذبيته وتحضره في لعدة انقلب فجأة ، الى رجل عنيد متنمر فظ الطباع ، ووجد اشكول نفسه غارقاً في موجة شرسة من الاتهامات بصدد العدوان الاسرائيلي المتوقع . وازدادت حدة تلك الهجمات حتى كاد اشكول الدمث الطباع يفقد السيطرة على اعصابه .

وادت فترة الانتظار هذه الى خلق توترات واسعة المدى في اسرائيل ، فقد تدنت معنويات الناس فيها ، وتعرض اشكول لحملة انتقادات عنيفة قامت بها الصحف ، وقام بها مستشاروه العسكريون الاكثر ميلاً الى العنف ، كذلك . ومن دلائل الاحباط في اوساط مستشاري اشكول ، ذلك الحادث المثير الذي وقع في اثناء مؤتمر عقد في آخر ايار في مكتب رئيس الوزراء عندما وصل الجنرال ارئيل (اريك) شارون الى المؤتمر ومسدسه مشدود الى خاصرته ، وعندما لفت رئيس المجلس نظره الى ان الوزراء لا يحملون السلاح في اثناء الاجتماعات في العادة رمى شارون مسدسه على المقعد وصاح بصوت عال ، لا بد ان يكون ليفي اشكول قد سمعه :

ان كنت تظن ان من الضروري استعمال المسدس لإيقاف رئيس الوزراء ، فأنت احمق ، ما عليك إلاّ أن تصيح وسيولي الادبار .

وادخل هذا الهياج العارم الكآبة الى قلب ليفي أشكول فقد كان بالرغم من كل شيء رجلاً شريفاً ، لا يقل في وطنيته عن أي من الجنرالات ، وهو إنما أراد السير في طريق المفاوضات ما امكنه ذلك .

ولكن الاوضاع تردت ، وسارت من سيىء الى أسوأ ، ومما زاد الطين بلة ، بالقياس الى اسرائيل ، التحذير الذي وجهه الجنرال ديغول لها بألا تقوم بمهاجمة العرب . وكان صدور هذا التحذير عن أكبر أصدقاء اسرائيل في السنوات العشر الماضية ، وعن مورد تسليحها الوحيد مدعاة لإثارة القلق البالغ لها .

وفي ضوء هذه الخلفية ، قرر مئير عميت القيام بزيارته السرية الى واشنطن ، فقد كان متأكداً من ان مفتاح النصر في الحرب القادمة هو في يد الولايات المتحدة ، وكان متأكداً كذلك من أن أبا ايبن قد عجز عن اقناع الرئيس جونسون بخطورة الموقف . وكان يعتقد ، كما قال من بعد ان بقاء اسرائيل رهن بنتائج محادثاته مع موظفي وكالة الاستخبارات المركزية - بلانغلي - في فرجينيا .

وفي غرفة لإعداد المعلومات في - لانغلي - واجه مئيت جماعة من كبار خبراء وكالة

الاستخبارات المركزية لشؤون الشرق الاوسط، كانت تبدو عليهم سيماء الوقار والنزاهة ومهمتهم هي تحليل المعطيات التي تعرض عليهم بدون انفعال. وعرف عميت انه سيقابل لديهم بعض الخشونة بإخراج ما في جعبته من خرائط وصور وأوراق معطيات وقال باقتضاب:

ـ ستقوم حرب عما قريب وجيشنا مجند الآن في حالة تعبئة عامة.

ـ ليس في وسعنا البقاء على هذه الحال امداً طويلاً، في حين يتردى اقتصادنا لأن جيشنا من المدنيين، بل ليس لدينا الآن قوة بشرية لجني الغلال وقد أخذ الشمندر يتعفن في باطن التربة.

ـ علينا ان نتخذ قرارات سريعة، واذا لم نقم بضرب المصريين فسيقضون علينا. . .

وانتقل عميت بعدئذٍ الى تقديم عرض تفصيلي للتحليل الذي يتصوره الموساد للوضع العسكري. وفي كل مناسبة، كان الاميركيون المقابلون له يسألونه ويستجوبونه بدقة. وكانوا يبدون هادئين تماماً. وكأنهم كانوا يسألونه بتلطف عن صحة عائلته، حين طلبوا منه ان ينبئهم عدد الخسائر من الموتى الذي تتكبده اسرائيل اذا قامت بالهجوم أولاً والعدد المقابل له اذا اطلق المصريون الطلقات الاولى.

ورد عميت:

اذا تمكنا من توجيه الضربة أولاً فستكون اصاباتنا خفيفة نسبياً، أي بضع مئات من القتلى لا اكثر، اما اذا جلسنا ننتظر ان يبدأوا هم الهجوم فسنكسب الحرب بالرغم من ذلك، ولكن خسائرنا ستقارب عشرة آلاف قتيل عندئذٍ. ولم يتمالك رجال الاستخبارات المركزية انفسهم من التأثر بالدليل المنطقي الهادىء الذي قدمه عميت، وهم لم يكونوا في حاجة الى من يخبرهم بفداحة الكارثة التي ستحل باسرائيل ان هي خسرت ١٠,٠٠٠ رجل ولكنهم واصلوا توجيه الضغط اليه، ولما أنهى عميت عرض موقفه اخرجوا ما عندهم من خرائط ومعلومات قدمتها لهم شبكة عملائهم ودبلوماسييهم.

وارتاح عميت لأن كل شيء في معطيات وكالة سي. آي. أيه. كان يعزز ما قدمه هو من معطيات، وعرفوا انه لم يكن يمكر بهم، وفي واقع الأمر، وجد عميت انهم تقبلوا كل ما ادلى به من حجج ما عدا واحدة منها. وقال المتحدث الاساسي باسمهم لعميت:

نعتقد نحن ان المصريين منتشرون في الصحراء، للقيام بدور دفاعي، وقد وافق خبراؤنا العسكريون على هذا التفسير بعد دراسة جميع الصور الجوية التي اخذت لجحافلهم وقواتهم العسكرية الاخرى، ولا نرى انهم سيقومون بالهجوم.

ورد عميت على ذلك مهتاجاً:

وأنا أقول لكم ان خبراءنا نحن يرون ان دور المصريين هو دور هجومي، فلماذا يزحفون في صحراء سيناء فجأة للدفاع عن انفسهم؟.

ورد رجال السي. آي. أيه. على ذلك رداً منطقياً هادئاً. ذلك لأنهم مقتنعون بأنكم انتم ستقومون بمهاجمتهم هم.

وكانت حدة الحوار تشتد احياناً، ولكن مئير عميت تمكن في النهاية من كسبهم الى جانبه.

وقال عميت مدافعاً عن وجهة نظره:

لا أهمية للفروق التي تتحدث عنها الكتب بين الموقف الدفاعي والموقف الهجومي، ونحن مجبرون على التعبئة مهما كانت طبيعة نواياهم، وليس في وسعنا ان ندع الجيش المصري يستقر على حدودنا، ونحن نمني انفسنا بأنه انما يمثل بعض ادوار اللعب والتمثيل، لقد اضطررنا الى استدعاء الاحتياط بعد ان زحفوا داخل سيناء، وانتم تعلمون صحة هذا القول من مصادركم الخاصة: فهم بدأوا العمل ونحن استجبنا له. والأمر سواء لدينا، مهما كانت المناورات التي يمارسها المصريون، فسيمنى اقتصادنا بالدمار اذا بقي البلد بأسره في حالة حرب الى امد ما...

بيد انكم تعرفون، بدون تصريح مني، ان القوات التي تمثل دوراً دفاعياً تستطيع الانتقال الى دور هجومي في غضون دقائق معدودات، ومهما يكن شأن المشروع الذي خطط له المصريون أولاً، فهم يعتقدون ان في وسعهم الحاق الهزيمة بنا، وذلك ما دأب الروس على قوله لهم منذ أسابيع، ولن يغير هؤلاء أفكارهم فجأة ويبلغوا دمشق والقاهرة بضرورة سحب القوات. إن موسكو تريد الحرب، وهي قد اقنعت العرب بأن الوقت المناسب لها قد آن أوانه.

كان الوقت بعد الظهر آنذاك، وكانت الجلسة المرهقة ما زالت معقودة منذ الساعة التاسعة صباحاً، وقرر المجتمعون الاستراحة قليلاً لتناول القهوة والشطائر.

وعندما استأنفوا المباحثات احس مئير عميت بأن خبراء وكالة السي. آي. أيه. ميالون للاتفاق معه. وكان له من معرفته المهنية ما أفهمه ان رؤيتهم للأمور على هذا النحو إنما تنطلق من تقييمهم لها في ضوء مصالح الولايات المتحدة ولم يكونوا ممن يعدلون عن رأيهم للحجج المتصلة بأمن بأسرائيل.

بيد ان عميت كان عاجزاً عن ضبط انفعالاته عندما وصل هيلمز فقال:

انظر يا ديك، لسنا قادرين على احتمال الوضع بعد الآن، فاسرائيل بلد صغير، والموضوع

هو موضوع بقائنا، وأنا احدثك الآن عن عائلتي وعن زوجتي وبناتي الثلاث. . . وعن عائلات جميع من يرتدون البزات العسكرية من الرجال الآن.

ولم يكن هيلمز في حاجة الى الاقناع، ففي الوقت القصير الذي انقضى بين وصوله الى المقر العام، وبين مقابلته لعميت كان احد معاونيه قد نقل اليه خلاصة الموضوع، ووافق هيلمز على وجهة نظر زميله القديم في الدراسة. وقال عميت :

أريد منك مقابلة ماكنمارا . وفي الساعة السادسة من بعد ظهر ذلك اليوم، ادخل مئير عميت الى مكتب وزير الدفاع الاميركي، روبرت ماكنمارا، وللمرة الثالثة ذلك النهار اضطر عميت الى الدفاع عن وجهة نظره. وبالرغم من تعرضه للحقائق في هدوء ظاهر إلا انه كان يعي اهمية الانطباع الذي يتركه في نفس ماكنمارا. وفي بعض الاحيان لم يتمالك نفسه من البوح بما يختلج في نفسه من توتر.

وعندما اوشك عميت ان يفرغ من دفاعه، سرت رعدة الخوف في جسمه، فقد بقي ماكنمارا جالساً طوال الوقت دون ان ينبس ببنت شفة، ولم تصدر عنه أية اشارة، حتى بتحريك حاجبيه، تدل على انه تأثر أو اقتنع بأقوال زائره.

وفي تلك اللحظة، فتح احد المساعدين الباب، معتذراً، وسلم ماكنمارا برقية عاجلة، ففتحها وقرأها بعناية، ثم نظر الى مئير عميت وقال بهدوء: لقد تم تعيين موشيه دايان وزيراً للدفاع في اسرائيل.

وفهم رئيس الموساد على الفور ما يترتب على هذا القرار من نتائج فقد كان دايان نصيراً مطلقاً لفكرة الهجوم، ويعني ادخاله في مجلس الوزراء انه سيلقي كل ثقله وراء ذلك العمل، واذن فقد اذنت اسابيع التردد في اسرائيل بالانتهاء.

وما كادت تلك الخواطر تمر كالبرق في ذهن عميت حتى قال ماكنمارا:

انني اعرف دايان حق المعرفة فقد التقيت بهعندماكان في واشنطن وأنا مسرور لتعيينه في منصبه، ارجو أن تبلغه تمنياتي له بالنجاح.

كانت الكلمات التي تفوه بها ماكنمارا تتصف بالبراعة والمواربة، ولكن عميت ادرك فحواها تماماً: ان الولايات المتحدة ستقف الى جانب اسرائيل اذا قامت بتوجيه ضربة ردع مسبقة الى سوريا ومصر.

وتوجه مئير عميت على عجل من البنتاغون الى السفارة الاسرائيلية، حيث كتب مع يوسف

غيفا ملحق اسرائيل العسكري محضراً طويلاً عن نشاطات يومه ذاك ثم أرسل الى تل أبيب برقية بالشيفرة هذا نصها:

ان الامريكيين يعتبروننا دولة ذات سيادة ويعتقدون ان لنا الحق في اتخاذ أي قرار نراه ضرورياً لبقائنا، ولن يوجهوا الينا اللوم اذا نحن قمنا بالهجوم أولاً، وهم يتفهمون دوافعنا، وأنا على ثقةمن انهم سيقومون بردع ايجابي للروس اذا فكر هؤلاء في التدخل المباشر.

وكان عميت متلهفاً للعودة الى اسرائيل، فانطلق الى المطار، ودس نفسه في احدى طائرات شحن «العال» وكانت تحمل شحنة من اقنعة الغاز التي طلبها القادة العسكريون بالحاح خشية ان يستخدم المصريون حرب الغازات التي يزودهم الروس بأدواتها. وكان الراكب الوحيد في الطائرة هو بي هرامان سفير اسرائيل في واشنطن. وفي المطار كان آلاف الامريكيين يصيحون مطالبين بالسفر الى اسرائيل لشد أزر الدولة المحاصرة، ولكن هذين الرجلين وحدهما تمكنا من الصعود على متن الطائرة.

عندما شن سلاح الطيران الاسرائيلي الحرب في الساعات الاولى من ٥ حزيران، كانت اهدافه الأولى هي المطارات التي ركز فيها سلاح الطيران المصري طائراته الحربية، وكان الطيارون الاسرائيليون على معرفة تامة بمواقع منشآت الرادار المصرية، ونقط الرادار العمياء، وقد مضوا عبر تلك الخطوط دون ان يكتشف امرهم احد حتى اللحظة الاخيرة، وكانت لديهم معرفة دقيقة بشأن مواعيد تناول الطيارين المصريين فطورهم، وفي ذلك الموعد بالضبط شرع الاسرائيليون في هجوم.

وفي تلك الدقائق البالغة الخطورة دمر الاسرائيليون معظم سلاح الطيران المصري. وكانوا يقصفون السرب تلو السرب من الطائرات الجاثمة على الأرض. ومما زاد رعب المصريين ان طائرات الميراج كانت تميز الطائرات المصرية الحقيقية من طائرات التمويه، فلم تضيع قنبلة واحدة عبثاً، ومن بعد وجدت الوحدات الاسرائيلية المدرعة طائرات التمويه سليمة تماماً بين الحطام المحيط عندما تقدمت تلك الوحدات في سيناء بعد أيام قلائل.

وفي الأيام التالية، دمرت الطائرات الاسرائيلية شبكة الصواريخ أرض- جو المصرية بأسرها، أما مصنع الذخيرة المهم في حلوان والذي كان يظن ان موقعه سر مغلق، فقد دمر هو الآخر تماماً.

ان كثيراً من المعلومات التي ضمنت نجاح هذه الهجمات الخاطفة، إنما حصل الاسرائيليون عليها من المعلومات التي قدمها الجاسوس ولفغانغ لوتس، محب الخيول، الذي كان

عوده يذوي في سجن ليمان طرة، وهو يحسب انه لم يقض شيئاً يذكر من فترة سجنه البالغة ٢٥ عاماً.

وفي الأيام القليلة الأولى من الحرب لم تتعرض الشبكة الحصينة التي بناها السوريون في مرتفعات الجولان لأية هجمات، وكانت تكتفي بقصف المستوطنات الاسرائيلية، اما في ٩ حزيران فقد تبدل الحال غير الحال، وقامت موجة من طائرات الميراج المقاتلة القاذفة بدك المرتفعات وتدمير كثير من مواقع المدفعية هناك. ثم اقتحمت الدبابات الاسرائيلية تلك الجبال والتلال التي كانت تظن ذات يوم حصينة تماماً، واستطاع الاسرائيليون بعد معركة ضارية ان يطردوا السوريين من المنطقة وأن يأسروا الوفاً من جنودهم. اما ذلك المجموع الهائل من الدبابات ومدافع المورتر والمدفعية التي توجهها الكومبيوترات فقد اصبحت حطاماً وانقاضاً.

وإنما اصبح النصر الساحق في مرتفعات الجولان امراً ممكناً بفضل البرقيات التي كان ايلي كوهين يبثها من دمشق، فقد عين بدقة تامة كل موقع مهم مما جعل الدبابات والمقاتلات ورجال المشاة في اسرائيل يعرفون تلك المواقع على وجه التحديد.

الباب الثامن

سقوط رئيس الاستخبارات

- ايسر هرئيل -

اخذت التقارير تتوارد الى مقر قيادة الموساد، في وقت مبكر يعود الى ١٩٥٦، حين كان جي كوهين يبث رسائله باللاسلكي بهذاالمعنى من القاهرة. وفي هذا الوقت كان الموساد أشد ـزعجاً لسبب آخر، وهو العون العسكري الذي يقدمه الاتحاد السوفياتي الى مصر، في سعيه ـسط نفوذه في منطقة الشرق الاوسط وكانت كميات كبيرة من الأسلحة تصل الى ميناء الاسكندرية في كل يوم تقريباً.

ولكن مصر كانت تفتقر الى العملة الاجنبية، وفي ١٩٥٨ اصبحت عاجزة عن تسديد اثمان شحنات السوفياتية، فغضب الروس وقطعوا مساعداتهم تلك عن مصر.

وانزعج عبد الناصر لما فعله الروس، ورأى في ذلك تهديداً لما يفكر فيه من بناء قوة عسكرية تضاهي قوة اسرائيل، وعندئذٍ زاد من توجهه الى الخبراء الالمان السابقين الذين لجأوا الى مصر، وكان عبد الناصر يريد منهم مساعدته في تجنيد العلماء الألمان القادرين على المساهمة في تأسيس صناعة أسلحة مصرية تتمتع بالاكتفاء الذاتي، وعرض عليهم مرتبات مغرية معفاة من الضرائب. فلم يطل به الوقت حتى اجتذب عدداً من العلماء البارزين الى مشروعاته.

كان فيلي مسر شميث مصمم الطائرات الالمانية البارز يعمل منذ نهاية الحرب في اسبانيا لمصلحة شركة هسبانو سويزا وعندما اتصل به رفاقه الالمان قبل عرضهم المغري بطيبة خاطر وحضر مسر شميت كبير مساعديه البروفسور الكسندر برادنر، وهو الذي كان كبير المصممين في مصنع أسلحة يونكرز خلال الحرب العالمية الثانية، وكان الروس قد اسروا برادنر في نهاية الحرب. مع مئات من خبراء صناعة الطيران، ولم يستسغ برادنر هذا فكرة الحياة في معسكرات العمل. فعرض على الروس خدماته بوصفه مهندساً، وصمم برادنر اخيراً المحرك الذي ستعمله السوفيات في الطائرة النفاثة توبوليف ١١.

واقيم مصنعان لبرادنر ومسر شميت في حلوان الواقعة على بعد ١٥ ميلاً الى جنوب القاهرة وقد شرع هذان العالمان بمساعدة عشرات من المهندسين والفنيين الالمان المهرة، وبميزانية تقارب

٥٠٠ مليون دولار، في تصميم طائرتين اسرع من الصوت . وفي صنعهما قوة لعبد الناصر.

وكان القلق في تل أبيب أشد عندما انتشرت الاخبار عن تجنيد مصر لمئات من خبراء الصواريخ الالمان، كان معظم هؤلاء ممن عملوا في مركز ابحاث الصواريخ، في بينيموندة، حيث كان يتم تصميم صواريخ (أرض- أرض).

ومما زاد الطين بلة، ما وصل الى الموساد من تقارير بعد اعلان مصر عن قدرتها الصاروخية الجديدة، كانت تتحدث عن خطة وضعتها مصر للقيام بهجوم شامل ومنسق على اسرائيل، تطلق فيه القذائف الصاروخية على اهداف مختارة من قواعد عسكرية ومدن كبرى، ويعقب ذلك هجوم منسق تشترك فيه الطائرات والمدفعية.

وقرر هرئيل انه اصبح عاجزاً مكتوف اليدين، في حين تقوم مصر بتكديس ترسانة هائلة من الاسلحة الفتاكة، فاستجمع قواه الهائلة من كافة اقطارها ونواحيها، بوصفه رئيس فروع الاستخبارات الاسرائيلية جميعاً، وامر بشن حملة ارهاب ضد خبراء الصواريخ العاملين عند عبد الناصر.

وفي شهر ايلول، اعلن عن فقد الماني يدعى هاينز كروغ، وبعد أيام قليلة وجدت سيارته خالية ولم يسمع احد عنه شيئاً بعد ذلك، وكان كروغ هذا مدير مكاتب انترا احدى الشركات الرئيسية التي تزود مصر بقطع الصواريخ.

وفي تشرين الثاني، تسلم ولفغانغ بليتس، رسالة في مكتبه بالقاهرة، ولما فتحت سكرتيرته هانلورا تلك الرسالة انفجرت محتوياتها في وجهها، ولحقت بها اضرار بليغة، وفقدت بصرها. وبعد ايام قليلة من وقوع هذا الحادث قتل خمسة من المصريين عندما انفجر طرد معنون الى رئيسهم وهو الجنرال كمال عزاز، في اثناء فتح ذلك الطرد، وكان هذا الرجل مسؤولاً عن العمل مع علماء الصواريخ الالمان. وفي الأسابيع القليلة التالية، قام خبراء القنابل في القاهرة بفتح عدد من الطرود المماثلة وفحصها ، وكان المغزى واضحاً : توقفوا عن العمل في الصواريخ المصرية وإلا تعرضت حياتكم للخطر. وقد تكرر الأمر في شباط ١٩٦٣ حين كان هانس كلاينفاشتر ، وهو رئيس مركز مصري لتطوير اجهزة توجيه الصواريخ، بزيارة مدينة لوراخ الالمانية، فقد كان كلاينفاشتر يسوق سيارته في ممر ضيق عندما اعترضت سيارة اخرى سبيله، ووقفت في وسط الطريق واجبرته على الوقوف وعندئذ قفز رجل واطلق عدة عيارات نارية على كلاينفاشتر بمسدس صامت. وقد نجا كلاينفاشتر من الموت بأعجوبة، بأن صارع الرجل الذي حاول اغتياله حتى في اثناء اطلاق النار عليه.

وفي الوقت نفسه تقريباً، اتصل رجل مجهول في سويسرا بفتاة تدعى هايدي فورك، وهي ابنة عالم نمساوي يدعى باول فورك . وادعى الرجل المجهول بانه صديق لوالدها، وطلب منها السفر الى مصر، حيث كان والدها يعمل في احد مصانع الصواريخ، وان تخبره بأن حياته ستكون معرضة للخطر اذا لم يتوقف عن العمل هناك، وفزعت الفتاة من التهديدات فذهبت في الحال الى البوليس، الذي اقنعها بترتيب مقابلة مع الرجل وعندما التقيا قام ضباط البوليس بتسجيل ما دار بينهم من حديث، والقي القبض على الرجل وعلى زميل آخر كان معه.

وتبين ان الرجل الاول نمساوي يدعى اوتو يوكليك، وهو عالم اشتغل في الجيش الالماني في اثناء الحرب ، ثم أصبح من بعد مديراً لمعهد ايطاليا للعلوم الذرية والتكنولوجيا النووية وأما الآخر فكان مواطناً اسرائيلياً اسمه يوسف بن غال .

وفي مصر عرض على يوكليك العمل مع فريق الصواريخ المصري الذي يشرف على إدارة برنامجه التكنولوجي . . « الدين »، ولم يعرف يوكليك إلا بعد وصوله القاهرة، ان الغاية من التجارب هي ابادة اسرائيل، وقد اعتراه الفزع من ذلك فقرر ان يتعاون مع الاسرائيليين. واستطاع يوكليك بن غال ان يكسبا بعض التعاطف اليهما والى قضيتهما لما قدماه من كميات كبيرة من الوثائق التي تثبت خطط المصريين لتدمير اسرائيل. وروى يوكليك كيف انفقت ملايين الدولارات لشراء مواد مشعة التي تستخدم في الرؤوس الصاروخية وكانت بعض الخطط الاخرى تشتمل على رؤوس حربية كيماوية وبيولوجية. وقد أدت اقواله الى احداث بلبلة كبيرة عندما كشف النقاب عن التعاون بين السويسريين والمصريين في برنامج التدمير المصري.

وفي النهاية، بلغ من تأثر المحكمة بقلق المدعى عليهما لشأن اسرائيل ما جعل المدعي العام هانس فيلاند يقترح ايقاع عقوبة رمزية بهما فحسب، وقال: لقد أثارت نشاطات العلماء الالمان كل القلق في العالم بأسره.

وكانت المحاكمة نصراً معنوياً كبيراً للموساد فقد أدت الدعاية العالمية التي دمغت اعمال العلماء الالمان بالاثم والخطيئة كما وصفت في المحكمة السويسرية الى تحريك الحكومة الالمانية، التي اقرت قانوناً يقضي بمنع مواطنيها من العمل في مصانع الصواريخ والاسلحة لدى عبد الناصر. وقد عاد هؤلاء العلماء واحداً بعد آخر الى بلدهم.

بيد ان الموساد كان قد بالغ كثيراً في تقديره للخطر الحقيقي الذي مثله اصدقاء عبد الناصر من الالمان بالقياس الى اسرائيل، فهم لم يصنعوا نظام توجيه ممتازاً لصواريخهم.

أما الطائرة التي تبلغ سرعتها ضعف سرعة الصوت ـ ٢ ماخ ـ التي وعد فيلي مسر شميت

بصنعها فلم تحقق الآمال المعلقة عليها كذلك.

بيد ان الهياج الذي نجم عن مشروع الاسلحة هذا، ادى الى سقوط ضحية غير متوقعة في اسرائيل، فقد ادى الى وقوع مجابهة مباشرة بين ايسر هرئيل وبين رئيسه بن غوريون.

كان بن غوريون قد عقد اتفاقاً سرياً، بدون علم هرئيل مع المستشار الالماني اديناور، ففي الاجتماعات التي عقداها في فندق «والدورف استوريا» بنيويورك، اتفقا على ان تقدم المانيا التعويضات الى اسرائيل للتكفير عن جرائم النازية وان تزود المانيا اسرائيل بكميات كبيرة من السلاح.

وهكذا كانت المانيا تقوم بدور المزود الاساسي لاسرائيل بالسلاح، في الوقت الذي بلغت فيه حملة ارهاب الموساد ضد العلماء الالمان ذروتها، وقد استاء بن غوريون كثيراً من ذلك، فقد كان مقتنعاً بأن الخطر الحقيقي على اسرائيل لم يكن من القرب بقدر ما يتصور هرئيل، بل لو كان امره كذلك، فإن ارسال الخطابات الملغومة الى المواطنين الالمان لن يؤدي إلا الى الحاق الضرر بالعلاقات الطيبة التي اقامها نتيجة المباحثات المضنية بينه وبين اديناور. وكان بن غوريون متجهاً بتفكيره الى التطبيع النهائي للعلاقات بين اسرائيل والمانيا برغم ما اقترفه النازيون في ذات اليهود قبل حوالى عشرين عاماً، وكان بن غوريون يعلم ان من مصلحة اسرائيل استغلال الالمان لا معاداتهم.

وفي اواخر آذار، تدارس الرجلان المسألة في احد الفنادق بالقرب من طبريا، حيث كان بن غوريون يقضي فترة استجمام، وعرض رئيس الوزراء الموضوع بغير مواربة.

انظر يا ايسر، ان بون تساعدنا بالدبابات وطائرات الهليوكوبتر والسفن وغيرها من الاسلحة، وقد كانت بعثة المانية مؤخراً هنا، كما تعلم للبحث في تقديم المزيد من تجهيزات الاسلحة لنا. ان حملة الرسائل الملغومة التي تشنها تؤذي الالمان في بون وتزرع البغضاء ويجب أن توقفها على الفور.

كان ايسر يعبد بن غوريون دائماً، ويرى فيه الرجل الذي قاد اسرائيل في اصعب سنوات مولدها وطفولتها، ولكنه كان- أي ايسر- يعاني من نقطة عمياء حين يفكر في العلماء الالمان وكان مقتنعاً بأن - التهدئة- كما قال سوف تؤدي الى وقوع الكارثة.

ولذلك فقد فضل الابتعاد لأنه لم يستسغ أي تعاون مع الالمان. وخرج من الموساد نهائياً ولم يعترض بن غوريون على خروجه لأنه كان يؤمن بضرورة التعاون مع المانيا للحصول على المزيد من التعويضات والاسلحة الالمانية.

وبعد خلاف بن غوريون مع ليفي اشكول في حزب مباي وانفصال بن غورين عن الحزب وتشكيل حزب رافي مع موشي دايان وشمعون بيرس وآخرون، كان ايسر هرئيل بين المرشحين العشرة الأوائل في قائمة هذا الحزب لانتخابات الكنيست السادسة عام ١٩٦٥، ونجح واصبح عضواً في الكنيست. وبعد انتهاء دورة الكنيست المذكورة لم يرشح نفسه ثانية وتفرغ للكتابة والقاء المحاضرات.

البــــاب التاســـع

قوارب شربـورغ الصاروخيــة

في عام ١٩٦٢، نقل عملاء الموساد في مصر، من امثال ولفغانغ لوتس انباء مفادها أن الاتحاد السوفياتي يعد العدة لتعزيز اسطول مصر البحري بعدد من قوارب كومار وادسا الصاروخية، وسيتم تزويد كل من هذه القوارب الصغيرة السريعة الحركة بصواريخ من البحر الى البحر يصل مداها الى ١٥ ميلاً وكان الخطر الكامن على مدن اسرائيل الساحلية ومراكز تجمع السكان الكبرى فيها امراً جلياً للعيان.

ولم يكن في اسطول اسرائيل آنذاك سوى غواصتين قديمتين بريطانيتي الصنع، واثني عشر قارب طوربيد، ومدمرتين ثقيلتين بطيئتين، في حين كانت مصر قد حصلت على اثنتي عشرة غواصة حديثة، وعشر بوارج وست مدمرات، وما يزيد عن خمسين قارب طوربيد، وستؤدي اضافة قوارب الصواريخ الى تفوق الاسطول تفوقاً ساحقاً.

وقرر الخبراء العسكريون ان خير وسائل الدفاع امام هذا الخطر الجديد هو الحصول على سفن صواريخ صغيرة مماثلة لتلك التي يزود بها السوفيات مصر. فقد انتهى عهد السفن الحربية الكبيرة، كما قالوا، لأن الصواريخ الحديثة البعيدة المدى تجعلها ضعيفة الجانب عند تعرضها للهجوم. وكان الاسرائيليون يعلمون ان القوات المسلحة الالمانية قد توصلت على القرار نفسه، وأخذت تصنع قوارب- الياغوار- وهي ارقى القوارب الصاروخية القائمة آنذاك. وقد تصل سرعة هذه القوارب البالغة المرونة الى ٤٥ ميلاً في الساعة سرعة متصلة.

وبدا ان الياغوار تلائم حاجات اسرائيل كل الملائمة، فإذا تم تزويدها بصواريخ- غبرئيل التي تصنعها اسرائيل، فإنها تصبح خصماً مخيفاً حقاً لأسلحة مصر الجديدة، وذلك لأن صواريخ غبرئيل تتفوق على نظيرتها السوفياتية في استطاعتها التحليق على ارتفاع منخفض فوق البحر بعد اطلاقها، مما يجعل اجهزة الرادار عاجزة عن اكتشافها.

وفي اواخر ١٩٦٢، ارسل رئيس الوزراء بن غوريون نائب وزير الدفاع شمعون بيرس، الى بون حيث قابل المستشار اديناور الذي كان قد وافق على تزويد اسرائيل بالسلاح في محاولة

للتعويض عما اقترفته المانيا من جرائم ضد اليهودية العالمية، ووقع اديناور عندئذٍ على الاتفاق المطلوب بتزويد اسرائيل باثني عشر قارباً من طراز «ياغوار» وسيتم بناؤ ها في احواض السفن في- كيل- وتسلم على دفعات في السنوات التالية، أما شرط البيع الوحيد فهو ذلك الشرط الذي الح عليه اديناور منذ البدء، ألا وهو بقاء صفقة الاسلحة سراً، وتحسباً من استياء البلدان العربية، التي كبر حجم التجارة الالمانية معها.

ومع حلول كانون الاول ١٩٦٤ وقبل ان ينقضي عامان على توقيع الاتفاقات تم تسليم القوارب الثلاثة الى اسرائيل. وفي ذلك الحين تسربت تفصيلات الاتفاق الى النيويورك تايمز. وكان المسؤول عن ذلك احد اعضاء الادارة الالمانية، وكان يخالف مخالفة صارخة سياسة بون الرامية الى- ملاطفة اليهود-.

وعندما نشرت النيويورك تايمز ذلك الخبر في الصفحة الاولى، اثار ذلك موجة من الغضب في جميع العواصم العربية، وتعرضت حكومة بون لضغوط كبيرة وتهديدات بأن مواصلتها بيع الاسلحة الى اسرائيل سيؤدي الى تطبيق عقوبات اقتصادية عليها، وربما بلغ الأمر حد المقاطعة التجارية التامة، وكانت الضغوط اكبر من ان يحتملها الالمان، فوافقوا على ايقاف صنع قوارب الياغوار في - كيل- لحساب اسرائيل.

ولكن الالمان في مقابل ذلك، وافقوا على صنع تلك القوارب في أي مكان آخر. وبعد كثير من المشاورات والتداول في الأمر، قررت اسرائيل ان تعهد بالعمل الى مصانع السفن في شربورغ في فرنسا، وكانت هذه الخطوة منطقية تماماً، فقد كانت فرنسا تزود اسرائيل آنذاك بحوالى ٧٥ بالمائة من الادوات المعدنية الحربية.

ورضيت اسرائيل بذلك، كما رضي به- فيلكس اميو- المدير العام لمصانع السفن في شربورغ، الذي سعد كثيراً بتأمين العمل للقوة العاملة في مشاغله.

وفي خلال شهرين كان اكثر من مئتي اسرائيلي يعيشون ويعملون في المدينة-الميناء-شربورغ- وبدا المكان وكأنه موقع امامي صغير تابع لقيادة البحرية الاسرائيلية، عندما اتخذ الفنيون والمهندسون القادمون من حيفا مقرهم في المنازل والشقق المجاورة لموقع بناء السفن. وكانوا يعملون في اتصال وثيق مع نظرائهم الفرنسيين، لأنهم خططوا لادخال بعض الجوانب التي صمموها بانفسهم في بناء تلك القوارب، وقد ادخلت تلك الجوانب. وبعضها جديد على تصميمات البحرية الغربية وفي صناعة الاجهزة الحربية الفرنسية فيما بعد.

وبذلت سلطات تل أبيب قصارى جهدها في ان ترسل الى شربورغ عسكريين من الذين

هاجروا الى اسرائيل من بلدان شمال افريقيا كالجزائر والمغرب، وعندما كان ذلك متعذراً، اعطيت الاولوية لارسال الرجال الذين يتكلمون الفرنسية بطلاقة، وأدى زوال الفوارق اللغوية والحواجز الثقافية الكبيرة الى ان ينسجم الوافدون الجدد الى شربوغ مع المقيمين الذين حلوا بين ظهرانيهم وكانت زوجاتهم يتبضعن في الاسواق واطفالهم يذهبون للدراسة في المدارس المحلية هناك.

ومع ذلك فرضت بعض القيود على الاسرائيليين الذين كانوا يخضعون جميعاً للرقابة العسكرية،بل ان الملاحين غير المتزوجين الذين كانوا يتناولون وجبات عشائهم في المطاعم المحلية مثل- رستوران دي تورفي- نادراً ما تناولوا المشروبات الكحولية، ممتنعين حتى عن- نصف الزجاجة- من الخمر التي اعتاد الفرنسيون تناولها مع وجباتهم، وكان عليهم دائماً الحصول على اذن من ضباطهم اذا هم أرادوا الانضمام الى شبان شربورغ في الحانات الممتدة في شارع - غامبيتا- لقضاء سهرة من السهرات هناك.

وبالطبع، وقعت بعض المشكلات العارضة، فقد القي القبض على ملاح اسرائيلي ذات مرة، بعد ان اسرف في الشراب وسلك سلوكاً غير لائق، وقد قاوم هذا الملاح الثمل محاولة اعتقاله واقتضى الأمر ملء سيارته من الجندرمة للسيطرة عليه. وفضلاً عن كل ما قام به من الشغب، كانت بصحبته احدى العاهرات، وقد اعتقلت هي ايضاً. وادى هذا الى احمرار وجنات كثيرة في اليوم التالي عندما حاول الضباط الفرنسيون والاسرائيليون التقليل من اهمية ذلك الحادث.

وفي مناسبة اخرى، انسل صبي من خلال رجال الامن الذين يقومون بحراسة حوض بناء السفن وقد اكتشف امره بعد حين وهو يلتقط مسروراً صوراً فوتوغرافية لقوارب الصواريخ وانتزع احد الاسرائيليين المتحمسين آلة التصوير منه، وزج به الى خارج المنطقة المحظورة وعندما وصل هذا الصبي الى منزله، دون ان تكون آلة التصوير معه، بادر والده، وهو من كبار رجال الاعمال، فقدم شكوى شديدة اللهجة الى السلطات المحلية، واقتضى الأمر كثيراً من اللياقة من جميع الاطراف لتهدئة الخواطر، وقام الاسرائيليون بشراء فيلم جديد للصبي، وقدموه له مع آلة تصويره،وغني عن البيان انهم لم يعيدوا اليه- سبقه الصحفي- من لقطات صور القوارب، وكان المشرف على عملية بناء القوارب في شربورغ، رجل طويل القامة، هو البريغادير جنرال موردخاي ليمون الذي كان مشرفاً على مشتريات اسرائيل من الاسلحة الاوروبية.

وكان ليمون ما يزال في اوائل العقد الخامس من عمره ولكن تجاربه المباشرة في مجالات السفن والبحار تجاوزت العشرين عاماً، وقد عرف ليمون السفن اول مرة وهو صبي في الثامنة عندما هاجر مع والديه من بولونيا الى فلسطين، ولم يكد يشب عن الطوق حتى انضم الى - البال

يام ـ وهو الفرع البحري من القوات اليهودية المسلحة السرية في فلسطين، وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية تطوع، شأنه شأن العديد من الشبان اليهود، في البحرية التجارية الانكليزية، فلن يقتصر امره على القتال ضد هتلر، ولكنه سيكسب الى ذلك خبرة قيمة ويخدم بلاده بعد ان تنتهي الحرب ايضاً.

ومما كتب عن ليمون في فترة تدربه لدى الانكليز، انه جنتلمان انكليزي نموذجي ولكنه دائماً يستجيب بسرعة وعلى نحو ايجابي في حالات الطوارىء، وفي اثناء الحرب عمل مع القوافل الخطرة التي كانت تنقل التزويدات الامريكية الى روسيا على السفن البريطانية في بحر ـ مورمنسك ـ وقد حارب عدة مرات مع زملائه الملاحين للنجاة بحياته، وكثيراً ما تعرضت السفن من تحتهم لقذائف الطوربيدات.

وعندما القت الحرب أوزارها، اختير ليمون وهو ما يزال في الحادية والعشرين من العمر لقيادة بعض سفن اللاجئين المتداعية التي كانت تحاول اختراق الحصار الذي فرضه الانكليز على فلسطين، وهي مهمة محفوفة بالمخاطر، وفي احدى تلك الرحلات، حدث عطل في محرك السفينة وهبت العاصفة، ودخلت الشوائب في مراوحه، ولم يقتصر الامر على ذلك، فقد لمحت احدى الدوريات الانكليزية سفينة ليمون، وغاص هذا في الماء، محاولاً اصلاح العطل بيده، وظل يغوص المرة بعد الأخرى، حتى نجح في نهاية الأمر، وتم تشغيل المحرك عندئذٍ، وسارعت السفينة الى المراوغة والفرار، ولكن قارب الدورية الانكليزية تمكن من اللحاق بها وتلاحم الطرفان في معركة سقط فيها العديد من اللاجئين صرعى، وصعد الانكليز سفينة ليمون، اما هو فاختبأ في حجرة صغيرة سرية فيها، وأفلت من الأسر برغم التفتيش الدقيق عنه وعندما ارسلت السفينة الى قبرص قفز ليمون في البحر وتمكن من الفرار مرة اخرى، ورجع بعد ايام قلائل الى فلسطين، متأهباً للاقلاع صوب مارسيليا حيث قاد سفينة اخرى من سفن اللاجئين.

وفي عام ١٩٤٨، قام ليمون بما بدا انه مهمة انتحارية ضد السفن الحربية المصرية الراسية في ميناء بورسعيد، فقد ذهب الى الميناء وحيداً في قارب صغير سريع، هو كل ما تباهت اسرائيل بحيازته من قطع بحرية في تلك الايام، ثم سبح ليمون في الظلمة، وزرع لغماً تحت مؤخرة احدى السفن المصرية، وبقي برهة ما في المياه القريبة، للتأكد من ان كل شيء على ما يرام، ولم يكن له شيء يحميه من الانفجار المتوقع سوى الفراش الذي لف نفسه به، وعندما انفجرت القنبلة طار ليمون وفراشه على سطح الماء، ونجا من الموت باعجوبة ولكن السفينة غرقت في اليم.

وقد جعلت مآثر ليمون منه بطلاً ولم يكن من المستغرب انه تسلم قيادة الاسطول الاسرائيلي الصغير في عام ١٩٥٠ وهو ما يزال غض الشباب، في الخامسة والعشرين من العمر.

وبعد اربع سنوات من ذلك اعتقد ليمون انه قد كبر بعض الشيء فيما يقوم به من عمل، فاعتزل الخدمةالعسكرية، وذهب الى نيويورك حيث حصل على شهادة في حقل الاعمال من جامعة كولومبيا . فلما عين بعد عدة سنوات مشرفاً على مشتريات اسرائيل من الاسلحة من الخارج كان حسن الاستعداد لوضع ملايين الدولارات تحت تصرفه. وقد لعب ليمون دوراً حيوياً فيما قامت به اسرائيل من محاولات لتحديث قواتها المسلحة في أواخر الخمسينات واوائل الستينات.

تتبع ليمون كل مرحلة من مراحل العمل في بناء قوارب شربورغ منذ البدء وكان يعمل باتصال وثيق مع المدير العام فيلكس اميو والفنيين المسؤولين عن القوارب.

وهكذا كان ذلك اليوم الذي اعد فيه أول القوارب ويدعى مفتاش، احد الايام السعيدة في حياة ليمون، الذي احتفل بهذا الحادث مع طائفة صغيرة من رفاق العمل الاسرائيليين والفرنسيين، وذلك في فندق زوفيتيل، في شربورغ حيث احتسوا اقداح الخمر والشمبانيا، وفي حين كانوا يحتسون شرابهم، قام ليمون بتعريف صديقه العزيز فيلكس اميو على قائد القارب اللفتنانت كولونيل- عزرا كيديم- وهو اشعث الشعر شرس المظهر، مما جعل الفرنسيين يطلقون عليه لقب- عزرا سمك القرش- فور رؤيته، وبعد بضعة ايام من ذلك الحين قاد عزرا المركب ومضى به الى حيفا، وبعد حوالى شهر تم اعداد القارب الثاني، وأقلع هو ايضاً في رحلة هادئة مماثلة الى اسرائيل.

وكان من سوء حظ اسرائيل ان تلك القوارب وصلت متأخرة جداً اليها، فلم تجد الوقت لتجهيزها بالاسلحة اللازمة لاستعمالها في حرب الايام الستة.

على انه كان للاسرائيليين ما يشغلهم في ذلك الوقت، فقد اوقف الجنرال ديغول تزويدهم بجميع- الاسلحة الهجومية- مما جعل سلاح الطيران عاجزاً عن جمع كميات الغيار وغيرها من التجهيزات الضرورية.

وفي باريس ترأس مردخاي ليمون وفداً فاوض الحكومة الفرنسية بضراوة في محاولة منه لحملها على الوفاء بالتزاماتها، ولكن الفرنسيين تمسكوا بسياسة مناصرة العرب بشدة.

ولأمر ما، بدا ان احداً في شربورغ لم يسمع باخبار حظر تصدير الاسلحة، وفي فصل الخريف، اقلع قاربان جاهزان آخران ، وواصل الاسرائيليون العمل مع زملائهم الفرنسيين في صنع بقية القوارب.

بيد ان الوضع تحول الى الأسوأ في شهر كانون الاول، ، ففي ٢٨ من ذلك الشهر، قام فريق

من الكوماندوس الاسرائيليين بشن غارة انتقامية على مطار بيروت، واستطاع الفريق بدون الحاق أية خسائر في الارواح، ان يدمر ١٣ طائرة، ويعود الى تل أبيب دون ان تلحق به اية اصابة.

وبدا ديغول مصمماً على تلقين الاسرائيليين درساً من جراء هذا العمل الاخير الذي يدل على العجرفة من جانبهم، بل انه اصدر اوامره، بدون ان يعلم احداً من نوابه، الى رجال الجمارك بمنع مغادرة اية شحنة من المواد الحربية الفرنسية الى اسرائيل.

تقرر ان يكون حظر التصدير كلياً الآن، واحتجزت الصناديق التي تحتوي قطع غيار طائرات الميراج في مرسيليا، كما منعت طائرة اسرائيلية لنقل البضائع في مدرج مطار لابورجيه من تحميل شحنة من التجهيزات الالكترونية، وتم- تجميد- القوارب التي في شربورغ، وكان قد دخل في روع ليمون من قبل انها سوف تستثنى من قائمة المواد الممنوعة، ويتم تسليمها باعتبارها من الاستثناءات فدهش وامتعض عندما همس صْديق في اذنه- اذ لم يكن القرار قد اعلن عنه رسمياً واخبره عن الأوامر الجديدة.

وفي الحال ارسل ليمون برقية الى وزير الدفاع موشيه دايان وفي خلال ساعات نقلت البرقية على عجل الى منزله في ضاحية - تساهالا- بالقرب من تل أبيب، حيث يقطن معظم كبار ضباط الجيش الاسرائيلي، وعندما قرأ دايان البرقية مر براحته على الجلدة السوداء فوق عينه، وهي اشارة مؤكدة كما يعرف زملاؤه تدل على الاهتمام الشديد والتفكير المركز لديه.

وقال دايان:

من العجيب ان يتمكن الجنرال ديغول دائماً من اسقاط قذائفه على رؤوسنا في أيام الجمع، قبل السبوت مباشرة.

ولم يتمالك دايان نفسه من تذكر برقية مماثلة، بعث بها في ٢ حزيران ١٩٦٧، يعلن فيها ديغول حظر تصدير المزيد من شحـنات- الاسلحة الهجومية- الى اسرائيل. وكانت تلك البرقية حافزاً في المضي نحو توجيه ضربة وقائية مسبقة ضد المصريين لانهاء الحرب بسرعة قبل أن يأخذ مخزون اسرائيل من قطع الغيار في النفاد.

بقي دايان ردحاً طويلاً من الزمن يعجب بالرئيس الفرنسي وهو قد فقد عينه في اثناء القتال ضد قوات نظام فيشي اعداء ديغول الالداء في ابان الحرب الثانية.

وعندما بدأت الصلات بين فرنسا واسرائيل تتعزز في أواخر الخمسينات كان دايان متفقاً تماماً مع دافيد بن غوريون الذي وصف ديغول بانه صديق صدوق وحليف مخلص. وقد أرسل ديغول خطاباً شخصياً الى دايان يهنئه على كتابه: حملة سيناء ١٩٥٦.

أما الآن فإن ديغول هو الذي فرض حظراً كلياً على تصدير الاسلحة، التي كانت اسرائيل قد دفعت ثمنها، وهو الذي حيته الصحافة العربية واعتبرته بطلاً من الابطال، ان هذا- الحليف المخلص- هو الذي رفض اعادة الاموال التي كانت اسرائيل قد دفعتها سلفاً في مقابل شحنة من مقاتلات الميراج تقرر عدم ارسالها.

وعندما نقل دايان النبأ في اجتماع مجلس الوزراء في يوم الاحد التالي علق وزير الداخلية شابيرا رئيس حزب المتدينين ، مستشهداً بسفر الملوك: اقتلا وملكا؟.

وفي ميناء شربورغ كانت ثلاثة قوارب صاروخية اخرى على وشك الانتهاء وقد تناثر على سطوحها مختلف الادوات واسطوانات الاوكسجين، وزجاجات ترموس القهوة، وزجاجات الخمر التي خلفها فريق العمل الفرنسي.

وفي الساعة الخامسة من مساء ٤ كانون الثاني **١٩٦٩**، بعد اسبوع من البلاغ الدرامي الذي اعلنه ديغول تقدمت البقية الباقية من الفريق العامل، واحد بعد واحد، دون كبير اهتمام الى موقع العمل المهجور، وكانت القوة العاملة قد فرغت من عملها في نهاية الإسبوع، وقضى فريق العمل الاسرائيلي ثلاث ساعات دون ابداء عجلة مبالغ فيها، في بذل جهود مكثفة لاعداد القوارب للسفر في عرض البحر، وعندما تمت الاستعدادات جميعاً، وحميت المحركات، رفع العلم الاسرائيلي بشجاعة على القوارب، واقلعت ومضت في حال سبيلها، دون ان يتحداها احد، والواقع انها شقت طريقها في القنال الانكليزي دون ان تعود.

وعندما بلغت انباء الخطوة الجريئة باريس، سأل وزير الدفاع مردخاي ليمون عن الغاية التي اتجهت اليها القوارب، وكانت الإجابة التي حصل عليها بسيطة واضحة لا مهادنة فيها: لقد صدرت الاوامر الى القوارب بالاقلاع الى حيفا فهي قواربنا.

وجن جنون الجنرال ديغول لتلك الخطوة الجريئة، أما ميشيل دوبريه، وهو حفيد حاخام تحول الى النصرانية، فكان من بين اعضاء مجلس الوزراء الفرنسي الذين رغبوا في فرض عقوبات صارمة على اسرائيل، وقد حض دوبريه على قطع العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا واسرائيل على الفور، وشرع في اجراء تحقيق في الموضوع.

وفي شربورغ، لم يزد رجال الجمارك والسلطات البحرية، عن هز اكتافهم، وكان من المصادفات العجيبة ان احداً فيها لم يطلع على جريدة او يشاهد التلفزيون أو يسمع الراديو في الايام السابقة وقد علق احد السكان المحليين بقوله:

لم نسمع أي شيء كائناً ما كان عن موضوع حظر تصدير الاسلحة.

وادعى الموظفون الرسميون بأنهم سمعوا أول ما سمعوا عن حظر التصدير من خطاب التعليمات الذي وصلهم من باريس في اليوم السادس، أي بعد يومين من اقلاع القوارب. وقدموا وثائق وشهادة من كتب البريد تؤيد صدق دعواهم، واتفقوا على ان الحادث ينبغي ان يسبب بلبلة كبيرة للحكومة ، فكثيراً ما اشتكوا من بطء الخدمات البريدية الشديدة بين باريس وبين بلدتهم ، ولعل الرئيس يتحدث عن ذلك الى وزير الاتصالات لتحسين الوضع .

واحتدمت معركة ضارية بين باريس وشربورغ، ودبجت تقارير طويلة وتبودلت الاتهامات بين دائرة واخرى. وفي اثناء ذلك كان العمل يجري على قدم وساق في القوارب الخمسة المتبقية وكأن شيئاً لم يكن.

وتواترت الرسائل من تل ابيب الى مردخاي ليمون تحمل اليه مطالبها الجديدة المستعجلة في رغبة اسرائيل الحصول على قواربها الصاروخية.

ولكن السلطات البحرية وسلطات الجمارك في شربورغ، اكتوت بما وجهته باريس اليها من مزاعم عن اهمالها، فشددت من يقظتها، وأصبحت القوارب الاسرائيلية خاضعة للمراقبة الدقيقة وعادت لا تستطيع ان تفعل في نهاية اسبوع ما ، مثلما فعلت ذات مرة.

وفي تشرين الثاني ١٩٦٩ ، استدعي مردخاي ليمون الى تل ابيب لاجراء مشاورات عاجلة مع موشيه دايان وغيره من العسكريين، وعدد من ضباط الاستخبارات. وكان عليهم ان يعثروا على طريقة للحصول على قواربهم الصاروخية من فرنسا. وكان الجميع متفقين على ذلك، ولكن وسيلة تحقيق العمل اثارت نقاشاً مستمراً بينهم.

وغني عن البيان ان الطريقة المفضلة لذلك هي حمل الحكومة الفرنسية على الوفاء بالتزاماتها القانونية، فقد وقعت الاتفاقية ودفع ثمن القوارب، وأصبحت ملكاً لاسرائيل، ولكن مردخاي ليمون الذي تمسك باعتقاده بأن الفرنسيين سيواصلون حظر تصدير الاسلحة، كان يعلم خيراً من سواه بأن الخط الرسمي قد وضع نهائياً، وكان حظر تصدير الاسلحة حقيقة واقعة، لا ينبغي تغييرها بل التعايش معها ،ولن يتمكنوا من الحصول على قواربهم بالطرق الدبلوماسية. وبدا اللجوء الى وسيلة- اكثر التواء- الحل الوحيد الممكن ولكن هذا الحل يتضمن الوقوع في مخاطرة ادبية اثارت قلقاً خطيراً في نفوس العديد من المؤتمرين. وكلهم تذكر النقد الذي وجه الى اسرائيل لانتهاكها سيادة الارجنتين عندما ارسلت العملاء لاختطاف ادولف ايخمان ولم يكن احد منهم يرغب في ان تكتسب اسرائيل في اذهان الناس صورة امة من القراصنة لا تتمسك بالقانون، وتنتهك المبادىء الدولية، كلما رأت ذلك محققاً لمصلحتها الخاصة.

بيد أن الرأي السائد كان ما اشار اليه بعضهم من ان قصف القوات المصرية المسلحة لسفن اسرائيل وبضائعها هو عمل غير قانوني كذلك، واحتجوا بأن بقاء البلاد نفسه اصبح في موضع التهديد، وفي وسع قوارب الصواريخ، ناهيك عن طائرات الميراج المحظور تصديرها، ان يقلب الموازين رأساً على عقب، ويجعل من الهزيمة نصراً، وصحيح ان ـ القرصنة ـ ستكون اتهاماً غير مريح، ولكنه خير من رؤية الجيش المصري، وهو يشق طريقه دون مقاومة الى تل أبيب على كل حال.

وبعد ايام من الجدال قرر قادة الاستخبارات العسكريين ان الطرق غير العادية هي وحدها التي تمكنهم من الحصول على القوارب الصاروخية.

وبقي بعد ذلك قرار وحيد ألا وهو: كيف يتم تنفيذ العمل؟.

وعمل ضباط الموساد والعسكريون ساعات طوالاً بالتشاور الوثيق مع الاميرال ليمون، وهم يدرسون عدداً من الخطط ثم يعيدون درسها، وعندما رفضوها جميعاً، إلا واحدة منها، شرعوا في وضع تفصيلاتها التامة، وقد مهدت جميع العقبات المتوقعة، واخذت الحوادث الطارئة بعين اعتبار. وعلم الموساد ان الخطة ستكون صعبة جداً في تنفيذها لأن الأمر لا يقتصر على عملاء مدربين، بل يمتد فيشمل فنيين وملاحين لا خبرة لهم بأعمال الاستخبارات، وفضلاً عن ذلك يقتضي الأمر اقصى درجات الحذر من كل شخص من الاشخاص المعنيين.

ووعد مردخاي ليمون بأن يمثل كل الخاضعين لأمره دورهم على اكمل وجه، وقرر ان تمضي العملية التي دعيت ـ عملية نوح ـ في سبيلها الى النجاح.

رجع ليمون من اسرائيل الى باريس بعد حوالى عشرة أيام، وعندما وصل اليها اتصل هاتفياً بفيلكس اميو في احواض السفن في شربورغ، واخبره رسمياً بأن اسرائيل عادت لا ترغب في قوارب الصواريخ. وقال ان زمن الانتظار سيكون بالغ الطول، وانها ليست من الحاجة اليها، بما تطيق معه احتمال ذلك الانتظار، وهي مستعدة الآن لبيعها لأي مشترٍ مناسب. وشرط البيع الوحيد ان تسترجع اسرائيل ما قدمته ثمناً لتلك القوارب من اموال. ووافق اميو على ذلك الاقتراح وقال:

يبدو الأمر معقولاً جداً.

ولم يطل الوقت بعد تلك المحادثة الهاتفية، حتى زار فيلكس اميو رجل دعا نفسه باسم ـ مارتن سيم ـ وهو صاحب شركة انشاءات، ومدير شركة ـ ستاربوت ووايل ـ النرويجية لشحن البضائع. كان سيم قد قابل اميو في باريس مؤخراً، فذكره هذا بالمناسبة وقال:

انت من أوسلو فيما اذكر. ورد الشخص الآخر.

حسنا، نعم ولا، فشركتي مسجلة في باناما. اما بلدي فهو النرويج.

وسرعان ما انتقل الحديث بينهما الى الغرض من زيارة ـ سيم ـ، وأخبر هذا صاحبه انه قد سمع عن السفن الاسرائيلية المعروضة للبيع، وانه مهتم بشرائها، وقال:

ان هذه المراكب هي بالضبط ما تحتاج شركتي اليه في القيام ببعض اعمال التنقيب عن النفط في شواطىء الاسكا. والمشكلة الوحيدة التي تواجهنا هي مشكلة الوقت. واود الحصول على القوارب في أسرع وقت ممكن، فنحن في عجلة من أمرنا.

وقام الرجلان بتسوية الشروط المالية لتلك الصفقة بسهولة، وانهياها متصافحين كما يفعل كرام الناس، وأحس اميو بالاعتزاز لأنه رجل عمل حقيقي، وبالسعادة لانهاء الصفقة بسرعة.

وفي اليوم التالي ارسل اميو خطاباً الى وزير الدفاع، من أجل الموافقة على الصفقة، وأبلغه انه وجد زبوناً جاداً يرغب في دفع ثمن حسن للقوارب.

ونقل ذلك الطلب الى لجنة تدعى سيمغ، اي اللجنة الوزارية لدراسة تصدير المواد الحربية للموافقة عليه، ولم تجد اللجنة داعياً للاعتراض على البيع، فقد قدم أميو خطاباً من الاسرائيليين يقولون فيه انهم عادوا غير محتاجين للقوارب، وان القوارب ليست مسلحة، فلا يمكن اعتبارها مواد حربية بعد الآن وليست النرويج في منطقة الشرق الاوسط بحيث يشملها حظر تصدير الاسلحة. واخيراً وافقت ـ سيمغ ـ على بيع القوارب الى ستاربوت ووايل في ١٨ تشرين الثاني.

ولو قد درس الفرنسيون الأمر بعناية اكبر، لأمكنهم اكتشاف ان ـ ستار بوت ووايل ـ إنما تكونت قبل أيام معدودات فحسب، أي في ٥ تشرين الثاني، في مكاتب شركة قانونية في باناما تدعى (ارياس فابريغا أي فابريغا)، ولأمكنهم ايضاً ان يتبينوا دون كبير عناء الصلات القائمة بين مارتن سيم وبين يعقوب مريدور، مدير شركة سفن اسرائيلية لشحن البضائع وبين اسرائيلي آخر يدعى ـ ميلا بريتر ـ وهو مدير شركة (ناقلات الفواكه البحرية المحدودة)، ولكان في وسعهم التساؤ ل بشأن دعوى سيم في انه محتاج الى قوارب سريعة تم تصميمها لاغراض عسكرية، من اجل المساهمة في التنقيب عن النفط، أو أن رئيس شركة انشاء سفن يعجز عن بناء قوارب وفقاً لمواصفاته الخاصة.

وعملت الادارة المدنية، بسرعة غير معهودة، وانهت اعداد جميع الوثائق اللازمة لاتمام البيع في غضون اسابيع قليلة، وارسلت هذه الوثائق بالبريد المستعجل الى شربورغ وفي مكتب البريد هناك، تقرر ان يؤخذ ذلك الطرد الذي بدا رسمياً في مظهره وقد بلغ سمكه ما يزيد على القدم،

مباشرة الى مكتب فيلكس اميو في عربة مقفلة خاصة، فلم يكن موظفو البريد هناك يريدون ان يوجه اليهم المزيد من الانتقادات عن بطء تسليمهم للطرود والرسائل.

وفي اثناء ذلك اخذ الملاحون الشبان يتوافدون على شربورغ باعداد متزايدة، وقد اثار هذا الدهشة في نفوس السكان المحليين، الذين قيل لهم ان اسرائيل اصبحت غير راغبة في تلك القوارب، إلا أنه قيل لهم بأن بعض النرويجيين قد قرروا شراءها وأنهم قادمون لأخذها معهم. وقد اوضح لهم هذا حقيقة ان العديد من البحارة القادمين كانوا من ذوي اللون الاشقر والعيون الزرقاء.

وسرعان ما تبين ان النرويجيين لن يبرحوا المكان عما قريب، وكان اكثر الآخرين ادراكاً لذلك صاحب حانوت صغير بقرب الميناء يدعى- تابا دومون-، وقد راجت تجارته مع هؤلاء البحارة الذين كانوا يشترون السجاير بالصناديق بدلاً من شراء علبة منفردة منها، وكانوا يشترون كميات كبيرة من الاغذية وغيرها من التجهيزات، وفي أوقات الفراغ، كان هذا الرجل يراقب من حانوته اولئك البحارة وهم يزيلون دهان الاحرف العبرية عن جوانب القوارب ويستبدلون بها اسماءهم الجديدة: ستاربوت ١، ستاربوت ٢ وهلم جرا.

ومن جهة اخرى، تبين ان الاسرائيليين سيمكثون برهة قصيرة فحسب، وعندما ازف عيد الميلاد ابلغ بعض هؤلاء رفاقهم من الفرنسيين بأنهم يعتزمون الذهاب الى باريس لرؤية اصدقائهم أو اقاربهم هناك، كما حجز العديد من الآخرين الذين تجاوز مجموعهم السبعين، مقاعد لهم في - كافيه دوتياتر- لتناول عشاء- كريسماس أيف- الخاص هناك. وكانت كل اشارة تصدر من الاسرائيليين تدل على انهم ماضون في عملهم كالمعتاد، بالرغم من ان قواربهم قد بيعت ولم يبق من سبب يدعوهم الى البقاء في شربورغ. لكن السكان لاحظوا سلوكاً غريباً بين ضيوفهم الاسرائيليين وفي احد الكازينوهات المحلية، اخذ ملاح اسرائيلي يقدم مبالغ كبيرة من المال فجأة في مراهناته على مائدة الروليت بعد ان كان لا يقدم سوى مبالغ صغيرة في العادة. وسأله- مدير اللعبة- الذي كان يعرفه تماماً عن تغيير اسلوب مراهنته على هذا النحو المفاجىء فقال: غيرمهم، لن يطول بي المقام هنا، وأدى ذلك الى حديث طويل عريض بالعبرية بين زميلي ذلك الملاح، اللذين غضباً بالطبع من زميلهما لزلة لسانه الطائشة الحمقاء، واحس- مدير اللعبة- ان الرجل قد ندم على ما تفوه به.

ولاحظ سكان آخرون في شربورغ ان بعض هؤلاء النرويجيين من خبراء اللغات الممتازين، يعرفون العبرية فيما يعرفون من لغات.

وأغرب من ذلك ، ظهور اللفتنانت كولونيل- عزرا كيديم- في الميناء على نحو دائم وهو

الرجل الذي قاد أول قارب من قوارب الصواريخ وسافر به من شربورغ قبل ١٨ شهراً.

والواقع ان احداً لم يدهش آنذاك سوى المسؤولين في ـ كافيه دوتيلتر ـ حيث حجزت موائد كبيرة للاسرائيليين وبقيت دون ان يجلس اليها احد، ولم يطل الوقت حتى خمنوا حقيقة ما يجري من الأمور.

وفي الحق ان الاسرائيليين لم يكونوا على علم بأن اجراءاتهم الامنية، التي وضع الموساد تفصيلاتها، لم تستطع، برغم العناية التي حظيت بها ان تخدع رجال الاستخبارات الفرنسية تماماً فقد لاحظ هؤلاء الرحيل المفاجىء الذي قامت به عائلات اسرائيلية عديدة، والذي زعم انه من اجل قضاء عيد الميلاد في باريس، كما انهم التقطوا رسائل عديدة ثنائية الاتجاه. مما تبادله عاملو الراديو مع باريس، وسمعوا ايضاً عن زلات اللسان كالتي وقعت في حادث الكازينو وعن النرويجيين الذين تكلموا العبرية، وكان من المستحيل ان يغفلوا عن جميع هذه ـ المصادفات ـ.

وفي ٢٠ كانون الاول، بعث عملاء الاستخبارات برسالة الى باريس ينقلون فيها نبأ ـ المصادفات ـ، فسوف يغادر الاسرائيليون وتغادر القوارب في الوقت نفسه، غير ان هذا كان قبل خمسة ايام فقط من حلول عيد الميلاد ولم يول احد اهتماماً كبيراً لذلك، وظل خطاب التلبية ملقى على مكتب احد الموظفين ولم يقم احد بقراءته أو بفتحه.

وعند منتصف الليل، طغت جلجلة اجراس الكنائس، وأصوات المزامير من القوارب الاخرى في ميناء شربورغ، على هدير محركات قوارب الصواريخ، كانت شربورغ تحتفل بعيد الميلاد، واخذت تحتفل بقداس منتصف الليل في جميع ارجاء المدينة.

وبعد خمس دقائق، فك الاسرائيليون حبال مراسيهم، وشقوا طريقهم، في حذر خلال العوائق المضللة في القنال الشرقي، حتى اذا فرغوا منه انطلقوا بأقصى ما للمحركات من سرعة صوب القنال الانكليزي.

وكان رجلان يراقبان رحيل القوارب، احدهما مردخاي ليمون والآخر فيلكس اميو، كانت تلك هي المرة الاولى التي قرر فيها اميو، في اللحظة الاخيرة كما تذكر عائلته، الا يحتفل بعيد الميلاد مع اهله في منزلهم ـ الكوت دازور ـ ولم يسر اميو اليهم حقيقة العمل الملح الذي جعله يعود سراً الى شربورغ، وواقع الأمر انه كان يعرف طبيعة العملية منذ خطواتها الاولى.

وراقب ليمون مع اميو القوارب الى ان اصبحت بعيدة عن مرمى النظر، وعندئذٍ تصافح الرجلان بحرارة، وافترقا، فرجع ليمون بالسيارة الى باريس، واسرع اميو في ظلمات الليل ليحتفل مع عائلته في نهار عيد الميلاد.

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي، تجول نفر من الرجال في منطقة رصيف الميناء يستنشقون هواء البحر البليل العليل هناك، فلاحظوا على الفور ان الرصيف الذي كانت قوارب الصواريخ تسارع من دورات محركاتها فيه، قد خلا من تلك القوارب تماماً وبدون ان يتبادلوا اية كلمات اتفقوا على - نسيان - ما شاهدوه. وفي احد المقاهي القريبة من الميناء، علق الساقي على ما حدث لزبائنه الذين تكوموا عى زجاجات الخمر الحمراء بقوله:

ها هم اولاء النرويجيون قد اقلعوا الى الاسكا.

وضج جمهور الحاضرين بالضحك.

اما في باريس فلم يكن لمردخاي ليمون مثل ذلك المرح، فقد كانت التبعة الاخيرة في ارسال القوارب ملقاة على عاتقه، وهو الذي قرر ارسال فئة من الشبان الاسرائيليين في مراكب لم تصمم لخوض غمار المحيط الاطلسي التي كانوا يصارعونها آنذاك، وكان عشرون شخصاً يسيرون القارب الذي يحتاج من الناحية النظرية الى ٤٥ رجلاً لتسييره بكفاءة.

جلس ليمون، ساعة بعد أخرى، الى جانب المذياع وهو قلق، ينتظر اخبار احوال الطقس أو النبأ الأول عن اختفاء غامض لخمسة قوارب من ميناء شربورغ، وكان يعلم انه سيتعرض فور نقل نبأ ذلك الاختفاء الى عاصفة شديدة... اما الآن فقد اصبح اكثر قلقاً بشأن الشبان المئة الشجعان الذين اعتبر نفسه مسؤولاً عن حياتهم.

وكان من الممكن ان تهب العاصفة الدبلوماسية التي توقعها مردخاي ليمون، في ظهر يوم الكريسماس عندما بلغ نبأ اختفاء القوارب الى مراسل جريدة - لوفار دو لامانش - ولكن الصحفي ذا الضمير الحي، كان وفياً للوعد بالصمت، ذلك الوعد الذي قطعه محرر جريدته على نفسه امام فيلكس اميو. فأحجم عن الانتفاع بذلك السبق الصحفي حتى - اشعار آخر -.

ودون ان يعلم فيلكس اميو أو الموساد أو المراسل الذي احبط نشر الخبر، قرر مراسل جريدة منافسة تدعى - وست فرانس - قبل برهة قصيرة ان يرسل فريقاً من المراسلين الى شربورغ لينافس الصحيفة الاخرى بطريقة افضل لاكتساب جمهور القراء. وكانت خير وسيلة لذلك هي التقاط احاديث الناس في موقعها هناك.

وكذلك عرف احد مراسلي الصحيفة الاخرى، حكاية القوارب في ٢٦ كانون الاول، بعد يوم من معرفة - لوفار دوموند - بها. ولم يكن على هذا الصحفي من قيود تمنعه من نشر النبأ، فنقله بالهاتف الى مكتبه الرئيسي في مدينة - رين - المجاورة، وسرعان ما بلغ الخبر وكالتي اسوشيتدبرس ويونايتدبرس بواسطة مراسليهما المساعدين في - رين - وانتقل النبأ الى مكاتب الوكالتين في باريس،

وفي صباح اليوم التالي نشرته الجرائد في جميع ارجاء العالم. ولم يتوقف جرس الهاتف عن الرنين في وزارة الدفاع الفرنسية، وفي منزل مردخاي ليمون، وتعرض ضابط الاستعلامات المحرج الى وابل من الاسئلة وجهها اليه رجال الصحافة من جميع الجنسيات في العالم:

ـ هل رفعت فرنسا حظر تصدير الاسلحة؟ ومن هو النرويجي الذي اشترى القوارب؟ ولماذا يستخدمون قوارب الصواريخ في اعمال التنقيب عن النفط؟ وهل يمكننا الاستشهاد بأقوالك في ان القوارب تتجه صوب الاسكا؟.

واذا كان الضابط الفرنسي قد احس بالحرج، فإن الاميرال ليمون، خلافاً له واجه المتصلين به بلطف وقال:

ليتني اقدر على مساعدتكم انني افهم من اقوال الحكومة الفرنسية ان القوارب قد بيعت الى شركة نرويجية، لا أذكر اسمها الآن، وأنا في البيت لا في مكتبي، ولعل في وسعكم توجيه الاسئلة الى الحكومة الفرنسية.

وفي اثناء النهار ورد نبأ خاطف: شوهدت القوارب وهي تتجه صوب مضيق جبل طارق، ومن الواضح انها لن تسلك الطريق المباشر الى الاسكا.

وجرى اتصال مع الرئيس بومبيدو، الذي خلف ديغول بعد استقالة هذا في نيسان، وكان بومبيدو آنذاك في منزله الريفي، يحتفل بعيد الميلاد مع عائلته.

وقد روى الشخص الذي اتصل به، وهو رئيس الوزراء ميشيل جوبير ان بومبيدو احتدم غيظاً لذلك، وكان هذا حال موريس شومان وزير الخارجية الفرنسي، الذي عاد لتوه من جولة ناجحة زار خلالها مصر والجزائر حيث وعد بإقامة علاقات ودية، وتقدم بكمية كبيرة من الاسلحة لقاء النفط العربي. اما الآن فسيبدو لمضيفيه في شمال افريقيا ان فرنسا قد اطلقت العنان لاسرائيل في اختطاف القوارب، وكرر شومان لهيئة موظفيه القول: لقد اذلوني، وطالب بالعمل المباشر ضد الاسرائيليين.

بيد ان الرئيس بومبيدو كان رجلاً واقعي التفكير، يعلم ان لا حيلة له في الأمر سواء أكان الذين يسوقون القوارب نرويجيين أم اسرائيليين أم قراصنة من باناما، فقال لشومان: هل تقترح أن نقوم بقصف القوارب؟ أو بقذفها بالطوربيد؟ وكانت السلطات البحرية الفرنسية قد ابلغت في شيء من الارتباك انه ليس لديها سفن فرنسية في البحر مهيأة آنذاك تتمكن من التحرك بالسرعة الكافية للحاق بقوارب الصواريخ.

واتصل موريس شومان بالهاتف، وهو يتميز من الغيظ، بمنزل السفير الاسرائيلي والتر ايتان

في الساعة الخامسة من مساء يوم الاحد الثامن والعشرين من الشهر، وطلب من ايتان الحضور لمقابلته في الحال. غير ان ايتان كان لسوء الحظ مسافراً الى سويسرا لزيارة بعض الاصدقاء ولم يكن احد يعلم عنوانه هناك، فطلب شومان ان يحضر- احدهم- لمقابلته اذا لم يتمكن السفير من القيام بذلك شخصياً.

وكذلك قام اثنان من الدبلوماسيين الادنى مركزاً، بزيارة وزير الخارجية في مكتبه في الساعة السادسة مساء، حيث صب جام غضبه عليهما اكثر من ساعة من الزمن وقال شومان:

اريد ان اعلم ما الذي فعلتم بقوارب الصواريخ، أريد اجابة عاجلة جداً، لأن في وسع القوارب التحرك بسرعة كبيرة للغاية، وليس من المتصور اطلاقاً ان تتجه الى اسرائيل. ولكن اذا وقع فعلاً ان ظهرت هناك، فسوف تكون العواقب وخيمة على اسرائيل.

واشار اكبر الاسرائيليين مرتبة، وهو الضابط آفي بريمور، بما استطاع من الهدوء، الى انه لا يعلم شيئاً عن قوارب الصواريخ ولكنه سيكون سعيداً بابلاغ الرسالة الى حكومته في تل ابيب.

وفي اليوم التالي ترأست غولدا مئير اجتماعاً لمجلس الوزراء الاسرائيلي، وفي ختام الاجتماع بعثت برسالة الى فرنسا تقول بها ببساطة ان الحكومة الفرنسية، كما أوضح الاميرال ليمون، هي التي باعت تلك القوارب الى شركة نرويجية، تدعى ستاريوت وِوايل، واشارت الرسالة الى انه بالامكان قيام النرويجيين بتأجير القوارب الى احدى الشركات الاسرائيلية.

ولم تشر الرسالة الاسرائيلية البارعة من قريب او بعيد الى النقاش الذي استمر في داخل مجلس الوزراء، وكان كل من غولدا مئير وموشيه دايان يرغب في التحدث بصراحة والاعتراف بأن القوارب في سبيلها الى حيفا، في حين أراد ايبان الأكثر اتصالا بالتقاليد المرعية والتمسك بالبروتوكول والعرف الدبلوماسي بإنكار كل شيء. وفي الختام استقر الرأي على تبني حل وسط.

وفي الوقت نفسه، عقد الرئيس المصري عبد الناصر، اجتماعاً مع الرئيس الليبي العقيد معمر القذافي، وكان الرئيسان يعلمان ان القوارب عزلاء من السلاح، فتدارسا فكرة اعتراضها واغراقها وتم ارسال غواصة لهذه الغاية، بيد ان الاسرائيليين توقعوا مثل هذه الخطوة فأرسلوا سفنهم سلفاً لمقابلة القوارب العزلاء، وعادت الغواصة المصرية الى قاعدتها بدون اطلاق قذيفة واحدة.

وحظيت قوارب الصواريخ باهتمام بالغ. وبالرغم من ان احداً لم يحاول اغراقها، فقد حلقت طائرات الميراج الفرنسية من فوقها مرات عديدة، وكذلك فعلت القوات الاميركية وغيرها من قوات حلف الاطلسي، وارسل الاسطول الاميركي السادس حاملة طائرات لتقوم بالتقاط

الصور، وشارك الروس ايضاً بارسال سفن عديدة لتلعب لعبة القط والفأر مع قوارب الصواريخ، وبالقرب من جزيرة قبرص أوشكت احدى السفن السوفياتية ان تصطدم باحدى السفن الاسرائيلية، ولكن الامر لم يزد على انه كان مصادفة بحتة فعلاً.

وبعد ان توغلت القوارب في عرض البحر الابيض المتوسط تغير سلوك الجروة، واصبح غريباً حقاً فقد اخذت ترتعش وتئن لغير ما سبب ظاهر. ثم اخذت تنبح نباحاً متصلاً يفتت الاكباد، وبعد لحظات من ذلك اعلن العامل على الجهاز المتطور المضاد للالكترونيات انه التقط اشارة تدل على ان رادارا يتعقبهم وفي خلال ثوان معدودات شاهدوا طائرات ميراج فرنسية في آثارهم، وعندما تكررت هذه الظاهرة مرات قليلة اخرى، ألا وهي سلوك ميلو الغريب قبل الكشف عن اشارات الرادار، تحقق الملاحون من ان جروتهم الصغيرة المرحة هي جهاز مضاد للالكترونيات سريع العمل واكثر فعالية من أي جهاز معدني تقني متطور استخدم في ذلك الوقت.

وترتب على هذا الاكتشاف ان اخذ نحميا جروته معه للمعركة في حرب يوم الغفران وفي ثلاث مرات على الأقل، أدت ردود فعل ميلو التي لا تخطىء، الى تنبيه نحميا الى الخطر الوشيك الوقوع. منحته الهامش الضئيل والحيوي ايضاً في مقارعته خصومه، وفي حرب البحار الحديثة التي تعتمد على ضغط ازرار، والتي حلت فيها الالكترونيات والعقول الالكترونيةمحل العين البشرية برهنت الجروة- الترير- البيضاءعلى انها اجزل حلفاء اسرائيل منفعة لها.

وما كادت القوارب الصاروخية تقترب من اسرائيل حتى قامت مجموعة من الطائرات الاسرائيلية المقاتلة بالتحليق من فوقها وتغطيتها في مسارها، وظلت الطائرات ترافق القوارب فيما بقي من رحلتها. وقال عزرا كيديم معلقاً على ذلك من بعد انه لم يشعر بالامان شعوراً حقيقياً إلا حين رأى الطائرات الاسرائيلية تطير في اتجاههم.

وبعد ايام قلائل وصلت القافلة الغريبة الشأن الى مرفأ كيشون بحيفا، وقابل الجمهور تلك القوارب وملاحيها بالمرح والتهليل.

وفي باريس لم يقترن رد الفعل بمثل هذه الحماسة، لقد جرى اعفاء جنرالين من جميع مناصبهما بدون ممانعة لمصادقتهما على بيع القوارب الى ستاريوت وايل. وطلب من مردخاي ليمون مغادرة فرنسا، فقبل ذلك آسفاً بعد أن قضى سبع سنوات فيها. ورفض ليمون الادلاء بتصريح رسمي ولكنه اجاب بجدية تامة عندما سأله أحد مراسلي الصحف ان كان قد قاد قارباً كالتي بنيت في شربورغ وقال: لا انها اصغر شأناً، ثم إني لست من المهتمين بالتنقيب عن النفط.

واستمرت عاصفة الجدال في فرنسا حتى بعد رحيل ليمون عنها، ووجهت تهمة التواطؤ الى فيلكس اميو الذي دافع عن نفسه بحرارة، وقال هذا ذات مرة.

ليس الأمر من اختصاصي فمهمتي هي بناء السفن، وقد كانت علاقاتي طيبة مع الاسرائيليين وليس هذا جريمة فيما اعتقد.

واوضح اميو انه لن يخضع لتهديدات بومبيدو أو سواه ولم يقدم اي اعتذارات.

وفيما يتعلق بسكان شربورغ الطيبين، أعلن التحقيق الرسمي الذي قامت به الحكومة: يبدو ان تواطؤاً واسع النطاق على الصمت، قد قام بين سكان شربورغ في كل ما يتصل بهذه القضية.

الباب العاشر

الفرد فراونكنشت وتصميمات الميراج

كان الفرد فراونكنشت رجلاً مضطرباً، فقد علم في حزيران عام ١٩٦٧ بتصريح الجنرال شارل ديغول الذي يقضي بفرض حظر تصدير «الاسلحة الهجومية» لاسرائيل. وفي وسع حظر التصدير هذا ان يسبب نتائج وخيمة لاسرائيل التي كانت على شفا الحرب مع جيرانها العرب الاقوياء: فلو لحقت اية اضرار بطائرات الميراج الفرنسية المقاتلة القاذفة في ميدان القتال، فإن اسرائيل لن تجد قطع الغيار اللازمة لتصليحها.

وكان في وسع فراونكنشت ان يقدر المأزق الذي وقعت فيه اسرائيل اكثر من سواه. وقد انيطت به مهمة الاشراف على انشاء طائرات ميراج في سويسرا، بصفته كبير المهندسين في شعبة الطائرات المقاتلة بشركة «الاخوان زولتسر». وكانت الحكومة السويسرية قد اشترت الطائرات من شركة اسلحة- داسو- الفرنسية ومنحت تعهدات العمل تلك الى «الاخوان زولتسر اوف فنترتور».وكان فراونكنشت مراقب المشروع يقابل بين الفينة والاخرى بعض الاسرائيليين اذا ذهب الى باريس للتباحث مع مهندسي - داسو-، وقامت بينه وبين بعض الاسرائيليين علاقات ودية وكثيراً ما تباحث معهم في مشكلاتهم السياسية والعسكرية.

وكان من الطبيعي ان يهدأ بال فراونكنشت عندما كسبت اسرائيل الحرب بسرعة.

ولكن اسرائيل، كما علم فراونكنشت منذ وقت قصير ما زالت بعيدة عن الخلاص من مشكلاتها فقد واصل ديغول العنيد فرض حظر وتصدير الأسلحة حتى بعد انتهاء الحرب ولم تبد عنه أية اشارة تدل على رفع ذلك الحظر.

وفي كانون الاول من تلك السنة، دعي ممثلون من مختلف البلدان التي اشترت طائرات الميراج الى باريس للتباحث بشأن التحسينات التي يمكن ادخالها على الطائرات نتيجة الخبرة التي اكتسبها الاسرائيليون في حرب الايام الستة، ومن هؤلاء الممثلين كان فراونكنشت الذي مثل شركة «الأخوان زولتسر».

وصعق المهندس السويسري لما دار في اثناء الاجتماع، فقد لاحظ مبلغ سعادة الفرنسيين

وهم ينتفعون بكل ما تعلمه الاسرائيليون من فعالية الميراج في اثناء القتال، في حين انهم- أي الفرنسيين- لم يفكروا حتى في التوصية برفع حظر تصدير الاسلحة الى الاسرائيليين لقاء ذلك، وكان هذا يمثل عند فراونكنشت انتهاكاً صارخاً لقواعد العدل والانصاف.

بل كان الأمر اشد وقعاً من ذلك، فقد الحق به الاذى في ذات الوقت تعاطفه مع القضية الاسرائيلية، فهو قد ساعد الالمان، شأنه شأن العديد من السويسريين الناطقين بالالمانية في الأيام التي مهدت للحرب العالمية الثانية، ومثله مثل كثير من ابناء وطنه، احس بالخجل العميق من بعد لما قام به. وكان هذا احد الاسباب التي جعلت منه مناصراً قوياً لاسرائيل. واعتقد فراونكنشت ان على اوروبا التكفير عما جنت من خطايا ضد اليهود، وقد ساهم اتصاله مع الاسرائيليين في مشروع الميراج في تعزيز دعمه لقضيتهم.

وفي اوائل عام ١٩٦٧ جلس فراونكنشت، يتناول عشاءه ذات مساء، في مطعم ما مع بعض اصدقائه الاسرائيليين، وعندما ذهب الى التواليت كان هناك احدهم ايضاً. وبينما اخذ الرجلان يغسلان ايديهما، لاحظ فراونكنشت وشماً صغيراً على ساعد زميله، مشتملاً على عدة أرقام، فسأله بحسن نية عن معنى ذلك الوشم. وأجاب الاسرائيلي بقوله: انه تذكار لفترة اقامة قسرية في - داخاو-.

ويعلم كل من قابل احد الناجين من معسكرات الموت الهتلرية مدى صعوبة الاستجابة لمثل تلك العبارة. وقد كان الأمر صعباً بوجه خاص على فراونكنشت الذي كان يحمل في قرارة نفسه احساساً بجريمة الحرب على الدوام.

وبعد هذا اللقاء المزعج، سرعان ما صحت عزيمة فراونكنشت على زيارة (داخاو) بنفسه، ولكنها اليمة الوقع على كل حال، فقد جعلته يقف وجهاً لوجه امام اكثر ما ادت اليه طرق معاملة النازيين لليهود من عواقب منافية للانسانية.

وكذلك انزعج ضميره اشد الانزعاج حين شاهد فرنسا تطعن اسرائيل من الخلف كما قال.

وفي اثناء تناوله طعام الغداء مع زميل من باريس، دافع عن قضية اسرائيل اشد الدفاع، وقال ان حظر تصدير الاسلحة الى اسرائيل امر لا يغتفر. فها هي فرنسا تحتجز طائرات «الميراج اليهودية» الخمسين بعد ان دفع الاسرائيليون ثمنها. ان عمل فرنسا هذا يهدد بقاء الأمة الصغيرة ذاته.

قال فراونكنشت لصاحبه: ان هذه قضية شرف.

واجاب رجل الاعمال الفرنسي بقوله: ما الذي تستطيع القيام به؟ انت تعرف طبيعة السياسة ورجالها، وليس لنا حيلة في الأمر، على كل حال دعنا نطلب زجاجة خمر اخرى.

ولم يكن فراونكنشت راغباً في ترك الأمور تجري على ما هي عليه، بل صمم على تقديم مساعدة لاسرائيل بكل الطرق الممكنة. ولم يطل الوقت بعد اللقاء الحاسم في كانون الاول حتى سنحت له الفرصة.

كان الاسرائيليون في الاشهر الاخيرة من عام ١٩٦٧ يتحرون كل الوسائل التي تمكنهم من الحصول على قطع غيار لطائراتهم الميراج، وعلم بعض المهندسين الذين يعملون مع الفرد فراونكنشت عن تعاطفه مع القضية الاسرائيلية، ورأوا في تجنيده الى جانبهم امراً يستحق الاهتمام. وفي ذات مساء، قبل أن يسافر الى باريس، قابله اثنان من أصدقائه الاسرائيليين وسألاه بصراحة تامة ان كان في وسعه جلب قطع الغيار التي يحتاجونها اليهم.

وقال احد الاسرائيليين: انها تعادل وزنها ذهباً.

وابدى فراونكنشت تعاطفه كما توقعا، ولكنه قال: سأفعل كل ما في وسعي القيام به، ولكن هذا العمل اكبر من طاقتي، وسأعرضه على رؤسائي، وعليكم انتم اجراء اتصال مع الحكومة السويسرية. وكان ذلك ما فعلته اسرائيل في كانون الثاني، فقد سألت السويسريين بما استطاعت من تكتم، ان كان في وسعهم تقديم قطع الغيار التي منعها الفرنسيون عنها.

وجاء الرد في شباط بالنفي، وعاد الاسرائيليون من حيث بدأوا.

وفي تل أبيب والقدس درست البدائل الممكنة، واعيدت دراستها مرة بعد اخرى، وبالرغم من ميل مؤسسات الأمن والمؤسسات العسكرية الفرنسية الى جانب اسرائيل، رفضت الحكومة الفرنسية التزحزح عن سياسة حظر تصدير الاسلحة، وقد عرض طيارون فرنسيون من أصدقاء اسرائيل، ممن تلقوا دروسهم مع الطيارين الاسرائيليين في المدارس نفسها، ان يقدموا بطائراتهم الى اسرائيل، ورفض الاسرائيليون ذلك الطلب آسفين، وذلك لضرورة اعادة تزويد الطائرات بالوقود في اثناء الرحلة، وهي عملية محفوفة بالصعاب والمخاطر. وقدمت خطة اخرى اكثر بربرية وهي تقضي بأن يسرق الاسرائيليون طائراتهم من فرنسا، ولكنها رفضت على الفور.

وفي مقر قيادة الموساد، قدم اقتراح يائس، ببذل محاولة اخرى للضغط على فراونكنشت فربما امكنه التفكير في طريقة للحصول على بعض قطع الغيار على الأقل.

وعندئذٍ قام اثنان من رجال الموساد العاملين في اوروبا بزيارة فراونكنشت في بداية نيسان ١٩٦٨، وقد قابله هذان الرجلان وهما الكولونيل تسفي الون والكولونيل نحميا كاين في احدى

غرف فندق الامبسادور في زيوريخ، وعرف نفسيهما اليه باسمين مختلفين، وعرضا عليه قضيتهما مرة اخرى.

واعرب فراونكنشت في اجابته لهما عن تعاطفه، ولكنها لم تكن اكثر تشجيعاً من اجابته السابقة، عندما اتصل به الاسرائيليان الآخران قبل خمسة اشهر، وقال فراونكنشت ببساطة انه سيفعل كل ما في وسعه، ولكنه لم يقطع أية وعود على نفسه، وعاد الون وكاين في اول طائرة راجعة الى اسرائيل، ولم يعلقا آمالاً كبيرة على زيارتهما.

وفي وقت مبكر من مساء ما، رن جرس الهاتف في السفارة الاسرائيلية بباريس، وردت عاملة مفاتيح الهاتف بكلمة ـ شالوم ـ المرحة، وأكدت للسائل بالطريقة العملية الموجزة، التي كثيراً ما يحسبها الغرباء لونا من ألوان الصلف ان الرجل الذي يريد التحدث اليه هو تسفي الون قد ذهب الى منزله في تلك الليلة، وقالت: اليس في وسعك الاتصال به في الصباح، من فضلك؟.

ولكن الرجل الذي كان يتحدث في الطرف الآخر بدا شديد الالحاح، واوضح بفرنسيته المشوبة بنبرة المانية انه يتحدث من زيوريخ، وأن الموضوع مهم للغاية، وسأل الرجل:

اما من طريقة للاتصال بالكولونيل الون؟.

وأحست عاملة الهاتف بما في صوت الرجل من الحاح، فوصلته بمنزل الون، وعندما تم التوصيل استمع الضابط الى جملتين من صوت مألوف لديه:

أنا الفرد فراونكنشت، أريد مقابلتك بأسرع ما يمكن وشكراً.

وانقطع الاتصال.

في تلك الليلة عجت السفارة الاسرائيلية، بأزيز الاتصالات الهاتفية. وفي غضون ساعات كان تسفي الون في طريقه الى مطار اوروبي، للحاق باحدى الطائرات المتجهة الى زيوريخ، ومن روما طار نحميا كاين لمقابلته، كما نقلت رسائل بالشيفرة الى قيادة الموساد تخبرها عن مكالمة فراونكنشت الهاتفية.

وأثارت الرسالة رجال الموساد، لعلمهم ان فراونكنشت لا يطلب منهم مقابلته إلا اذا كان لديه امر ذو بال يقوله لهم، فلم يكن من ذلك الطراز من الناس الذي يأبه لغير ذلك.

هل يجسرون على القول بأن فراونكنشت قد عثر على طريقة تمكنهم من الحصول على قطع الغيار التي يريدونها؟ أم تراه قد تمكن، كما قال انه سيحاول، من اقناع حكومة سويسرا ببيع فائض المواد التي قررت ان لا حاجة لها بها من طائراتها الميراج السبع والاربعين؟.

وعندما قابل الاسرائيليان فراونكنشت في فندق الامبسادور كما اتفق عليه في اللقاء الاخير، لم يكونا يقويان على انتظار الجلوس والحديث، ولكن المهندس السويسري اقترح عليهما الذهاب الى مكان يخلون فيه الى انفسهم باكثر مما يوفره الفندق لهم.

ودهش الاسرائيليان عندما مضى بهما فراونكنشت الى حي فيدردورف، وهو حي صغير للبغايا في مدينة زيوريخ، فهل فقد فراونكنشت صوابه؟.

الحق انه كان يعي تمام الوعي ما كان يقوم به، ذلك ان حي فيدردورف، هذا يوفر ضروب التسلية، في معظم الحالات، لمجموع الزوار الاجانب، الذين يستغلون العديد من مؤسسات زيوريخ المصرفية وفي هذا الحي تقوم البغايا اللاتي يعرضن انفسهن هناك، في كثير من العناية، بدراسة النشرات المالية في كل صباح، لتحديد الأجر الذي يطلبنه من الزبائن، من كل عملة وعملة. ثم ان أي رجل من رجال الاعمال السويسريين المحترمين، أو الموظفين الحكوميين، كما يعلم فراونكنشت لا يأتي الى هذا الحي، واذن فسيحظى بالامان حين يتحدث هو وزائريه الاسرائيليين هناك. وبالفعل مضى ثلاثتهم في سيارة اجرة الى حي فيدردورف، وجلسوا الى منضدة مستترة في زاوية ما بأحد الملاهي الخليعة وبينما كانت احدى الراقصات الايطاليات تقوم بحركاتها الدائرية على المسرح، بدأ الرجال الثلاثة حديثهم.

وباشر فراونكنشت الحديث في الموضوع، بدون الخوض في اية مقدمات فقال:

انكم تضيعون وقتكم سدى في البحث عن قطع الغيار، وبإمكاني ان آتيكم بالميراج بتمامها. ورد الكولونيل الون على الفور:

مستحيل. فكيف نتمكن من سرقة طائرات الميراج السويسرية ونحن نعلم انها مخبأة في انفاق محفورة في جبال الالب، كما نعلم ان دونها ابواباً معدنية سميكة للغاية، في وسعها أن تصمد للانفجارات الذرية، وعلى كل حال، ليس بيننا وبين الحكومة السويسرية اية خصومات. حتى لو كان الأمر ممكناً.

وعندئذٍ لوح فراونكنشت، بيديه، بفارغ صبر، وكأنه ينحي تفكير الاسرائيلي جانباً وقاطعه بقوله:

لن اخون بلدي ابداً، ان آخذ طائرات الميراج يعني الخيانة، ولست خائناً.

وتبادل رجلا الموساد النظرات مشدوهين، فهل كانت دعوته لهما الى زيوريخ مضيعة لوقتهما فحسب؟.

وأحس فراونكنشت بخيبة املهما فعاود الحديث وقال:

اني افكر في مخططات تصميم الميراج التي تمكنكم من صنع الطائرة بانفسكم. وانا اعرف السيد ال. شفيمر، رئيس صناعة الطيران الاسرائيلية، وأعلم أنه قادر على صنع مثل هذه الطائرة المتطورة ولكن الامر سوف يستغرق سنوات في تصميم وافٍ للطائرة وإقامة مصنع لانتاجها.

اما اذا حصلتم على التصميمات جميعاً، ومنها التصميمات الحيوية، التي تمكنكم من صنع الادوات اللازمة للطائرة، فستكون هذه الطريقة وسيلة لاختصار الزمن في حل المشكلة، وفضلاً عن ذلك، ستمكنكم الادوات التي ذكرتها لكما من صنع قطع الغيار التي انتم في أمس الحاجة اليها في غضون اشهر فحسب.

وعندئذٍ أخذ الاسرائيليان يصغيان الى كل كلمة يقولها فراونكنشت ولما حدقا اليه مندهشين توقف قليلاً، ثم قال في شيء من اللطف: تريدان معرفة الثمن.

انني أود ان تدركا بوضوح إنني لا أقوم بهذا العمل من اجل المال، وإنما أقوم به لمساعدتكم ولكنني سأكون محتاجاً الى شيء من المال اذا افتضح الأمر لحماية زوجتي. وسيكون ما اعرض عليكم القيام به امراً عسيراً محفوفاً بالمخاطر. هذا ما أريد ان الفت انتباهكم اليه. ان مخططات الطائرة تكفي لملء عربة قطار بتمامها.

وتابع فراونكنشت حديثه قائلاً:

انه يفكر في طريقة يمكن معها نقل تلك المخططات الى اسرائيل لتساهم في حل ازمة قطع الغيار لطائرات الميراج عن طريق صنعها في اسرائيل، وأوضح ان هذه المخططات قديمة والمفروض انها ستحرق في المحرقة الرسمية واوضح انه سيسلمهم المخططات بدل احراقها لكن المشكلة تكمن في انه من الضروري حرق اوراق في المحرقة ليمكن كتابة محضر بها. وأفاد فراونكنشت انه سيشتري وثائق قديمة من احدى الدوائر الحكومية ويقوم بحرقها بدل المخططات وأنه سيستأجر كراجاً خاصاً به ولقريب له ليغطي بذلك على العملية بحيث تنقل كل من المخططات والوثائق القديمة الى هذا الكراج ويتم استبدالها وتذهب المخططات الى الاسرائيليين والوثائق القديمة الى المحرقة.

يشتهر السويسريون في جميع ارجاء العالم بكفاءتهم الممتازة في العمل، وقد جرت عملية المخططات بما يتفق مع تلك الشهرة، وكانت الخطط التي صممها فراونكنشت متقنة تماماً، وسر بها رؤساؤه غاية السرور، حتى انهم وعدوا مهندسهم النشيط الدؤوب بعلاوة خاصة عند حلول عيد الميلاد.

حين فرغ تسفي الون ونحميا كاين من اجتماعهما بالفرد فراونكنشت اخذا يتندران بشكليته

المفرطة، وقالا انهما كانا يتوقعان ان يبرز لهما عقداً من جيبه ليوقعا عليه، ولم يتمالكا نفسيهما من التعجب في كيفية اتمام هذا المهندس الدمث الطباع للعمل الرائع الذي وعدهما به.

وبرهن فراونكنشت ان شكوكهما قد كانت في غير موضعها.

لم يكن في وسع أي اجنبي ان يفهم طريقة تفكير السويسريين في الاعمال مثلما فهمها فراونكنشت وقد اعد خطته على نحو لا يسترعي ادنى اهتمام، بل ان ضابط الامن المحترف البارع الذكاء، لم يكن يدور في خلده ان الحلقة الضعيفة في سلسلة الامن انما كانت بالضبط الحلقة التي وثقوا بها تمام الثقة، ألا وهي الفرد فراونكنشت نفسه، وقد تعمد فراونكنشت ان يصمم الخطة بنفسه، وان يعد كل شيء بحيث يتحمل اكبر قدر من المسؤولية، وكان يعلم ان احداً لن يشك في دوافعه، فلن يشك في افعاله لذلك.

وربما بدت ثقته بنفسه ضرباً من ضروب الحماقة، ولكنه كان يعرف حقيقة ما يقوم به من اعمال، فقداشتهر امره لدى قوات الأمن والشرطة السويسرية، بوصفه موظفاً خطيراً وموثوقاً به، وتحدث عنه احد التقارير بما يلي:

« يمكن الاعتماد على هذا الرجل تماماً ، وحياته الشخصية وحياته المهنية بريئتان من العيوب وهو مواطن مخلص لوطنه وزوج مخلص لعائلته ، وموظف نقي الوجدان ، ويذهب الى الكنيسة بانتظام ويثق به مستخدموه في كلا الجانبين الفني والمالي ، ولهم ثقة مطلقة به » .

ولم ير فراونكنشت التقرير الذي اقتبست منه هذه الملاحظات، ولكنه كان يعلم كنه ما ينطوي عليه مثل هذا التقرير ، وبمثل هذه المؤهلات التي لا يرقى اليها الشك ، اعتمد فراونكنشت على نفسه في تنفيذ خطته للحصول على المخططات شخصياً .

اما الخطة التي صممها فكانت هي البساطة عينها: فقد استأجر «كاراجاً» خاصاً في فنقر تور قبل اعداد الشحنة الاولى من المخططات للاحراق بوقت طويل، وكان لذلك الكاراج مدخله الخاص، وهو قريب عليه القرب من الطريق الذي تمضي فيه العربة بين المصنع وبين محرقة المدينة.

وطلب فراونكنشت من الشركة التي استخدمها زولتسر في صنع صناديق الكرتون المستعمل في نقل اوراقها، ان تصنع صناديق كرتون له، مطابقة لصندوق زولتسر في جميع الوجوه، وأمر بتوصيلها الى «كاراجه» حيث احتفظ بها هناك.

واخيراً دأب فراونكنشت على القيام برحلات متكررة الى العاصمة «برن» قبل اسابيع من الشروع في العملية وكان قد علم من تحرياته الحذرة انه قد سمح لمكتب براءات الاختراع

الفيدرالي السويسري بالتخلص من الاوراق التي بقيت فيه مدة تزيد على خمسين عاماً. وهناك قدم نفسه بصفة تاجر اوراق مسودات، وأخبر كاتب الحسابات في ذلك المكتب انه يرغب في شراء أية اوراق لم يعد يستخدمها احد وبالطبع بادر الكاتب مسروراً للتعاون معه، وباعه الاوراق القديمة من مختلف انواع المخططات والرسوم بأبخس الاثمان.

وأوضح الكاتب ذلك بقوله: الفراغ مثل الوقت من ذهب، ولهذا تمكنت انت من ابتياع هذه المواد بسعر رخيص، فنحن في حاجة ماسة الى الفراغ هنا.

واومأ فراونكنشت برأسه متعاطفاً، وفي خلال اسابيع عديدة قام بتحميل كميات هائلة من الاوراق في عربته المقفلة.

وبعد الحصول على المخططات الزائفة شرع ابن عمه في القيام بخطوة حاسمة في العملية. فقد رسما خطة لتحويل مسارهما عن الطريق المتفق عليه، من المصنع الى المحرقة، وللاسراع في اتجاه «الكاراج»، حتى اذا دخلا فيه، كان عليهما القيام بعملية تبديل بسيطة جداً: اذ يقومان بتفريغ صناديق مخططات الميراج التي جلباها من المصنع أولاً، ثم يستبدلان بهما الصناديق الملأى بالأوراق التي اشتراها فراونكنشت من مدينة برن ثانياً.

ومارس الاثنان خطتهما اسابيع قبلُ بدء المشروع الفعلي، حتى اذا حان الوقت اصبحا قادرين على اجراء عملية الاستبدال في خلال خمس دقائق فحسب، ولم يلاحظ احد في اي من الطرفين- المصنع والمحرقة- هذا الوقت الزهيد الضائع.

ومثلما توقع فراونكنشت سارت الخطة على الوجه المطلوب، ولم يكن يخطر في بال الموظف الذي يراقب تفريغ الصناديق في مبنى المحرقة، ان يقرأ بالفعل محتويات الوثائق التي عرف انها ستدمغ «بالسرية». وكل ما كان عليه القيام به هو التحقق من طرح صناديق الاوراق في محرقة تعمل في درجة حرارة معينة تماماً. وكان هذا هو ما فعله بالضبط.

وكان الجميع سعداء بالعملية، فالأخوان «زولتسر» يحرران مخازنهما من تلك الفضلات المتعبة ورجال الامن يكفلون الا تقع الاوراق في ايدٍ أخرى، والمفتشون يتأكدون من أن العملية تسير بدون صعوبات.

أما الفـرد فراونكنشت فكان يحصل بذلك على مجموعة كاملة من مركبات طائرة نفاثة متطورة، مقاتلة وقاذفة «يصنعها المرء بنفسه».

وبدون ان يعلم احد، كان المهندس وابن عمه يزوران «كاراجهما» في كل يوم سبت عقب رحلتهما الى المحرقة، فيعدان في سرعة وصمت ، وجبة المحرقة الاسبوعية التالية، وذلك مما يحشوانه في الصناديق المخزونة من مخططات قديمة، أما بضاعة الاسبوع السابق من مخططات الميراج فكانا يحملانها في العربة مرة اخرى، ويذهبان بها حوالى ثلاثين ميلاً الى مدينة كايزر اوغست.

تقع مدينة كايزر اوغست على نهر الراين بمقربة من الحدود الالمانية السويسرية وقد شيدها الرومان لتكون مدينة محصنة تحمي امبراطوريتهم القاطنة الى الشمال منها. اما الآن فإن هذه المدينة بما لها من مناظر مثيرة واطلال قيمة تعج بجماهير السياح. ولن يثير وجود غريبين آخرين فيها انتباه احد، حتى لو اصبحت تلك الزيارة حادثاً يتكرر اسبوعياً.

وانطلق فراونكنشت وابن عمه بسيارتهما، دون ان يتوقفا في اي مكان، الى مستودع في طرف البلدة، تمتلكه شركة سويسرية تدعى «روتستنغر وشركاه» ويقع هذا المستودع في منطقة صناعية لا يعمل فيها احد في ايام السبت، فلم يكن من المحتمل إذن ان يلحظ احد وصول العربة او عملية التفريغ السريع لمحتوياتها.

وكان الرجلان اذا انهيا عملية التفريغ، يعودان ادراجهما الى المدينة، حيث كانا يستمتعان بتناول زجاجة من الجعة الالمانية في مطعم «هرشن» الذي يغص بالزبائن، وفي اثناء ذلك تبحث عينا فراونكنشت خلسة عن عيني رجل آخر يجلس دائماً وحيداً الى منضدة في زاوية المطعم وكان فراونكنشت يبدأه الاشارة بايماءة سريعة من رأسه، ثم يرتد الى رفيقه، أما جماهير العمال الذين جاؤوا لتناول شراب السبت التقليدي هناك، فلم يكونوا ليلاحظوا سلوك فراونكنشت غير العادي وكان هو وابن عمه يواصلان الاستمتاع بما في ذلك المطعم ساعة أو ما يقارب الساعة في الثرثرة والشراب.

وأما الرجل الذي كان فراونكنشت يومىء اليه ايماءته الحذرة تلك، فقلما كان يطيل الانتظار، وهو رجل باسم هانس شتريكر، احد «اصدقاء» الكولونيل نحميا كاين، ولم تكن شركة روتستنغر قد استخدمت هذا الرجل اكثر من سنة، ولكنه اصبح مستخدماً محترماً ومؤتمناً فيها، وكانت مهمته تيسير حركة شاحنات الشركة التي تتجه في جميع ارجاء اوروبا، ومعالجة ما تشتمل عليه الوثائق اللازمة من امور. وقد عرف مستخدموه فيه عاملاً دؤوباً حي الضمير والوجدان، بل انه كان يحضر في أيام السبت للاعداد من أجل شحنات الاسبوع التالي.

وكان شتريكر فور استلامه اشارة فراونكنشت ، ينطلق بسيارته من البلدة الى مستودعات

روتستنفر، حيث يقوم بتحميل الصناديق الملأى بمخططات الميراج، في صندوق سيارته المرسيدس ٢٢٠ ، ويقفل ابواب المستودع، ثم يمضي بسيارته الى الحدود الالمانية.

ولم يكن شتريكر يواجه اية مصاعب من موظفي الجمارك، فقد كان عميلاً ممتازاً حقاً، قام بعدة رحلات عبر الحدود زمناً طويلاً قبل بدئه حمله الوثائق السرية للغاية في صندوق سيارته. وسرعان ما عرف رجال الجمارك فيه رجلاً ودوداً متعاوناً، يحتمل التأخيرات المنكبية، بل انه كان يساهم بتأدية بعض واجباتهم الروتينية وفضلاً عن ذلك كان شتريكر مفرط السخاء فيما يتصل بشراء البيرة احياناً في هذا المقهى او ذلك من المقاهي العديدة المنتشرة على منطقة الحدود ، أو في تقديم الخدمات لهم في سويسرا أو المانيا.

وهكذا اصبحت سيارة شتريكر المرسيدس السوداء منظراً مألوفاً في دائرة الجمارك وكان اصدقاؤه يلوحون له دائماً بالمرور مبتهجين لرؤيته . حتى اذا حل شتريكر في الاراضي الالمانية ، اتجهت قدمه الى دواسة البنزين ، يغذ السير في الغابة السوداء ، متجهاً صوب مدينة شتوتغارت وقبل بلوغه المدينة ، كان ينحرف عن طريق الاوتوبان الواسعة ليمضي صوب مطار صغير يحتفظ فيه كبار اغنياء المنطقة بطائراتهم الشراعية وغير الشراعية .

وفي غضون دقائق معدودات كان يتم شحن وثائق الميراج في طائرة- سيسنا- ذات محرك مزدوج مسجلة في ايطاليا، ثم تطير الطائرة في اتجاه برنديزي بجنوب ايطاليا، وهناك يتم تحويل الوثائق الى طائرة العال ، وفي صباح يوم الأحد أي بعد ٢٤ ساعة من مغادرة فنترثور يجري تفريغها في احد المطارات باسرائيل .

وفي اسرائيل كانوا ينتظرون وصولها بفارغ الصبر، حتى ان شاحنة مصفحة كانت تظل مستعدة ومحركها يهدر، لنقلها على عجل الى احد الفنيين في صناعة الطيران الاسرائيلية.

وصلت اول شحنة من شحنات فراونكنشت الى اسرائيل في ٥ تشرين الأول ١٩٦٨ .

وفي كل اسبوع من الاسابيع التالية، سارت العملية على ذلك المنوال السهل نفسه، ولم يبد فراونكنشت أو ابن عمه اية اشارة تدل على الاجهاد او التردد.

وواصل عامل الميكروفيلم الكدح، أسبوعاً بعد آخر، وكانت الايصالات بما عليها من توقيع يتم فحصها بعناية ومئات الباوندات من الورق تفرغ في محرقة فنترتور، وفراونكنشت يواصل العودة الى مكتب براءات الاختراع في برن للحصول على المزيد من المخططات الزائفة، ويقوم بزيارة اسبوعية مع ابن عمه الى مدينة كايزر اوغست العتيقة البهيجة.

واحتاج المهندس حوالى ١٢ شهراً لاتمام العملية، وكانت فسحته الوحيدة في ذلك هي اجازته السنوية.

وفي أواخر ايلول ١٩٦٩ نقل فراونكنشت الشحنة الاخيرة من المخططات الى مستودعات روتستنغر، وباح لابن عمه بأن في وسعه الآن ان ينام هادىء البال لأول مرة في خلال عام. وما من شك في انه قد استحق ما طلباه من الكونياك في ما بدا انه زيارتهما الاخيرة الى مطعم- هرشن-

وبينما كان الرجلان جالسين في الحانة، يتبادلان اطراف الحديث، لم يكن فراونكنشت ليعلم ان هانس شتريكر قد ضبط آنذاك، متلبساً بجريمة تكديس الصناديق في سيارته المرسيدس.

فقد اشتبه عابر سبيل في الشخص الذي كان يراه في كل يوم سبت، متسكعاً من حول مستودع روتستنغر، واربكه امره، فابلغ صاحبي الشركة وهما كارل وهانسن روتستنغر بأمره، وكان هذا العابر الذي اعتاد الخروج للتروض مع كلبه في الجوار، قد أبلغ ايضاً بأن ذلك الرجل يقوم دائماً بتحميل الصناديق في سيارته الخاصة.

وعندما علم الاخوان روتستنغر نبأ ذلك الغريب الغامض، قررا البحث في الموضوع، ومضيا بالسيارة الى المستودع في صباح يوم السبت، وأوقفاها على مبعدة منه، وشد ما دهش الرجلان حين تحققا من ان ذلك الرجل الغريب انما هو مستخدمهما المخلص هانس شتريكر الذي شاهداه يضع صناديق الكرتون في صندوق سيارته، واستراحا بعض الشيء ولكنهما بقيا في حيرة من امرهما، فنادياه وهما يحييانه في الوقت نفسه.
أما شتريكر فما كاد يرى الاخوين روتستنغر حتى وثب الى سيارته وانطلق بها بأقصى سرعة.
وعندئذٍ احس الاخوان بالخيبة فعلاً فدخلا المستودع ووجدا صندوق الكرتون الاخير الذي خلفه شتريكر في عجلته من بعده، وقرر الرجلان فتح الصندوق، فوجدا على أول مخطط من المخططات الكلمات التالية مختومة بحروف كبيرة:
سري للغاية، ملك للدائرة العسكرية السويسرية.

وانطلق الاخوان روتستنغر على الفور الى اقرب مركز للشرطة، وفي خلال ساعة عممت الشرطة بلاغاً في جميع انحاء البلاد بالقبض على المدعو هانس شتريكر مهما كان الثمن.

بيد ان طائرة سيسنا الصغيرة كانت قد حلقت في الجو ماضية في سبيلها فوق جبال الالب، ولم يسمع احد بعدئذٍ في منطقة عبور الراين عن شخص اسمه شتريكر منذ ذلك الحين.

وكان للبوليس السويسري على كل حال، ما يهتم به من الأمور، خلال البحث عن هانس شتريكر اذ كيف امكن نقل المخططات السرية للغاية، بعد نزعها من المحرقة في فنترتور الى

مستودعات شركة روتستنغر؟ واستغرق الأمر ٧٢ ساعة من التحريات المتواصلة، قبل ان تشير اصابع الاتهام الى الفرد فراونكنشت.

وكان المهندس قد علم نبأ مصير شتريكو من رجل مجهول ابلغه بذلك هاتفياً، ولم يعتره الفزع، بل واظب على القيام بعمله كالمعتاد، وفي صباح يوم الاثنين كان في مكاتب زولتسر في الوقت المحدد بالضبط، وفى يوم عمل كامل، ورجع الى منزله في موعده العادي، وفي صباح يوم الثلاثاء مضى بسيارته الى المطار العسكري في دوبندورف بالقرب من زيوريخ ، للمحافظة على موعد مع بعض الموظفين الذين ارادوا التباحث بشأن الخطط المستقبلية لسلاح الطيران السويسري.

وفي المطار كان فريق من خمسة ضباط من البوليس وقوى الامن، أحدهم ضابط كبير الرتبة من الاستخبارات السويسرية المضادة في انتظار فراونكنشت لالقاء القبض عليه، ورافقهم فراونكنشت بهدوء الى سجن- بازل- حيث وضع منفرداً في احدى الزنزانات.

ولم يغب عنه مثقال ذرة من رباطة جأشه عندما دخل الزنزانة، بل اقترح عقد صفقة فهو لن يتفوه بكلمة واحدة كما قال، عن موضوع خطط الميراج اذا وافقت السلطات على شروطه.

وقال لهم فراونكنشت :

انى مستعد للتغاضي عما لحق بي من إهانة بأخذي مغلولاً الى السجن أمام عدد كبير ممن يعرفونني من الناس.

وتابع فراونكنشت حديثه:

سيجن جنون الفرنسيين، اذ لو اصبح هذا الأمر معلوماً للجميع، لاضطررت الى الكشف عن حقيقة ان جميع خطط الميراج قد اختفت. وانتم تعرفون طبع الفرنسيين، فسوف يثيرون أزمة سياسية تسيء الى العلاقات بين بلدينا زمناً طويلاً في المستقبل.

ثم ان سويسرا تملك الخطط بالميكروفيلم، ولم يكن للمخططات أية اهمية عندنا لأننا لن نقوم بصنع اية طائرات اخرى.

واعترف فراونكنشت انه ارتكب جريمة من الناحية القانونية، اما من الناحية الادبية فلا جناح عليه، وهو لم يلحق أي ضرر بسويسرا، وبدلاً من ان يتذلل فراونكنشت الى مستجوبيه بطلب الرحمة كما توقعوا منه، قال لهم:

اذا وعدتم بالمحافظة على كتمان الموضوع بتمامه بهدوء، وبإطلاق سراحي ، فإنني أعد- انا

نفسي بألا أطلع الفرنسيين على شيء من جانبي ولا داعي لأن يعلم احد عنه شيئاً.

ودافع فراونكنشت عن نفسه بشدة، عندما اخبره رجال الامن والبوليس ان المخططات قد انتقلت الى اسرائيل وقال:

لقد فعلت ذلك لمساعدة اسرائيل على اسس أدبية، مما اوحى به ضميري، والقضية بالقياس الى اسرائيل قضية حياة أو موت، أما أنا المسيحي المخلص فإن ذكريات «داخاو» و «اوشفتس» ما تزال قائمة في ذاكرتي حتى الآن.

ولكن السلطات لم تتأثر بدوافع فراونكنشت، فالقانون هو القانون، سيقدم الى المحاكمة، وفي انتظار ذلك، سيبقى رهن الاعتقال.

وبقي فراونكنشت، في السجن ١٨ شهراً كاملاً، بدون ان يوجه اليه الاتهام أو يقدم الى المحاكمة، ومع ذلك عامله سجانوه باللين، ومُنح امتيازاً بالاشراف على مكتبة السجن، بل انه تمكن من جلب تلفزيون ووضعه في زنزانته، فقد ادعى انه ليس مجرماً، اذ ان احداً لم يتهمه بأية جريمة، وقدم التماساً الى سلطات السجن بتزويده بجهاز تلفزيون، وعندما رفض التماسه رفع القضية الى محكمة محلية فرفض القاضي طلبه، وعندئذٍ تابع قضيته ومضى بها الى المحكمة العليا، وكسب القضية اخيراً، وحصل على جهاز التلفزيون.

بل انه حمل مدير السجن على الابتسام ذات يوم عندما قال له في جدية تامة: اعتقد انني اكتشفت طريقة لتوفير الفراغ هنا.

وعندما قدم فراونكنشت الى المحاكمة اخيراً، لم يبذل ادنى جهد لإنكار انه قد انتهك حرمة القانون السويسري، ولكنه اصر في الوقت نفسه، على انه فعل ذلك لأسباب خيرة، ولم يأسف ادنى اسف على ما فعل، والحق انه لقي تعاطفاً كبيراً في المحكمة للدوافع التي حفزته الى عمله.

ولقيت الاستخبارات السويسرية عناء اشد في محاولتها دفع التهم الموجهة اليها بالاهمال، وادعى احد ممثليها في المحكمة قائلاً: لقد تحرينا عن فراونكنشت تماماً، ولم نجد داعياً للاشتباه في أمره.

بيد ان القانون لم يكن الى جانب فراونكنشت في نهاية الأمر، ففي **٢٣** نيسان **١٩٧١** ادين بجريمة التجسس الصناعي وفضح الاسرار العسكرية السويسرية، وحكمته المحكمة بأربع سنوات ونصف السنة من الاشغال الشاقة. ومن بعد ان اعترف المهندس بأنه كان يتوقع فترة **٢٠** سنة من التعفن وراء القضبان، وهي اقصى عقوبة للجرائم التي اتهم بها.

وقضى فراونكنشت فترة حكمه في سجن بازل، حيث واصل المسؤولون فيه معاملته بصفة سجين خاص وأعاد فراونكنشت تنظيم مكتبة السجن وقرأ قدراً كبيراً من المطبوعات.

وفي تشرين الاول، بعد حوالى سبعة اشهر من بدء تنفيذ حكم السجن على فراونكنشت لاحظ خبراً صغيراً في الجريدة التي كان يطالعها. وكان المقال يتحدث عن طيران تجريبي تقوم به طائرة اسرائيلية جديدة تدعى ـ نيشرـ أي نسر واستشف فراونكنشت من تفصيلات تلك المقالة، ومن مقالات قليلة اخرى مما ظهر في صحف الايام القليلة التالية، ما جعله يستنتج ان طائرةـ نيشرـ الاسرائيلية هذه تكافىء طائرة الميراج التي بذل جهوداً جبارة للمساعدة على تهريب خططها من سويسرا الى اسرائيل.

ولم ينقض وقت طويل بعد اطلاق سراح فراونكنشت من السجن في عام ١٩٧٥، حتى وجه صديق من اسرائيل الدعوة اليه والى زوجته بزيارة البلاد. و «وافقت» زيارتهما تظاهرة كبرى للمفخرة الجديدة التي انجبتها صناعة الطيران الاسرائيلية اي: الكفير أو الشبل ابن الاسد وهي مقاتلة قاذفة ٢,٢ ماخـ أي ٢,٢ مرة من سرعة الصوتـ وتوافد المراقبون من جميع ارجاء العالم لمشاهدتها وأدرك هؤلاء فور مشاهدة الطائرة انها على غرار طائرة الميراج ٥ الفرنسية مما جعل احد الخبراء العسكريين الالمان يلكز جنب رفيقه الفرنسي ويقول متندراً: بل ابن الميراج.

وكان بمقربة منهما رجل قصير، ذو شعر قصير جاد، بين الشحوب، كمن احتجب عن الشمس زمناً طويلاً، فسمع النكتة، وابتسم ابتسامة خفيفة. كان فراونكنشت يعي اكثر من سواه الارتباك الذي حل بالرجل الفرنسي من جراء ملاحظة زميله، فما زال الفرنسيون حساسين جداً تجاه كل ما يتصل بذلك الحادث.

وعندما انطلقت طائرة الكفير بسرعة في سماء تل أبيب، احس فراونكنشت بالاعتزاز وهو يرى ثمرة تجسسه لصالح اسرائيل، ولكنه كان اعتزازاً ممزوجاً بالمرارة، فقد اكتشف ان مجد الجواسيس يبقى رهين الوحدة والعزلة.

كان فراونكنشت يتوقع، اذا وصل اسرائيل، ان تقابله في المطار فرق الموسيقى، وباقات الازهار وجماهير محتشدة هاتفة، وبدلاً من ذلك تعمد الموظفون الاسرائيليون اغفاله، وبدا ان احداً لم يسمع به، بل ان حكومة اورشليم لم تدفع ثمن تذكرة سفره الى البلاد، كما فهم احد اصحاب الفنادق الذي تعاطف معه . اما الموظف الوحيد الذي تمكن من الالتقاء به، فقد اخبره في حذر بأن ليس في وسع الموساد ولا أية وكالة حكومية الاعتراف بالدور الذي لعبه في صنع طائرة الكفير، فإن ذلك يعني اعتراف اسرائيل بالتجسس في الاراضي السويسرية.

وعندما رجع فراونكنشت الى سويسرا قال له صديق محامٍ هناك: هذه هي طبيعة عمل الجاسوسية، فما من احد يعترف بشيء فيها.

يقيم الفرد واليزابيت في منزل ذي خمس غرف في ١٥ شارع فلورا بقرية اردورف السويسرية غير بعيد عن فنترتور ويطلق الجيران على منزلهما لقب «اسرائيل الصغيرة» لكثرة ما فيه من تذكارات وكتب عن اسرائيل مما ارسل المعجبون الاسرائيليون. وفي المنزل كتب بالالمانية والفرنسية والانكليزية والعبرية وفيه زجاج من مركز صناعة الزجاج بالخليل، اما مفخرة المنزل الاولى فهي البوم صور فوتوغرافية مهدى من سلاح الطيران الاسرائيلي.

يحظى الفرد فراونكنشت بشعبية كبيرة، في المقهى القريب من منزله حيث يذهب مرة أو مرتين في الاسبوع ليتناول الجعة، وبالرغم من الفترة التي قضاها في السجن، ما زال رفاقه في الشراب يعاملونه بقدر من الاحترام وقد قال احدهم في ذلك:

فيما يتصل بنا نحن، كانت جريمته الوحيدة هي وقوعه في الفخ، ونحن لا نغتفر تلك الجريمة في سويسرا، ولكننا نعتبر الهر فراونكنشت استثناء خاصاً.

وبعد خروج المهندس من السجن، مارس عدة اعمال منها، وظائف في شركة الكترونيات ومصنع البلاستيك، اما الآن فان فراونكنشت يكسب قوته من الاختراعات التي كان اهمها اختراع وحدة رخيصة لتكييف الهواء في السيارات الصغيرة.

بيد ان فراونكنشت يجد سروراً خاصاً في اختراع آخر من اختراعاته، وهو جهاز للاستخدام في المكاتب، يقوم اوتوماتيكياً بتحزيم الوثائق المهملة، بدون اخراجها من السلال السلكية التي تطرح فيها ثم يتخلص منها بالجملة، وقد اشترى رجال الاعمال السويسريون المهتمون بالتوفير اكثر من ١٥,٠٠٠ وحدة من هذا الجهاز.

ومنذ وقت غير بعيد، أرسل فراونكنشت نموذجاً من جهاز- الوثائق المهملة- الى وزارة الدفاع الفرنسية، وفيما يظهر لم يقدر احد حذقه ومهارته كثيراً فلا هم شكروا له ما صنع، ولا هم اعادوا النموذج اليه والحق انهم ما زالوا حساسين بعض الشيء تجاه موضوع «الوثائق المهملة».

اما فراونكنشت فانه يتقبل صلفهم قبولاً حسناً ويقول في جدية:

«فرنسيون تماماً».

«ومع هذا كله، يحتسب الناس اننا نحن معشر السويسريين ينقصنا حس الدعابة والمرح».

الباب الحادي عشر
يوسيل

كان ايسر هرئيل يستكمل الخطاب الذي وجهه الى فئة من كبار عملائه وذلك في نهاية شباط ١٩٦٢ بعد حوالى سنة من العملية المثيرة التي جلبت ادولف ايخمان للمحاكم في اسرائيل.

اما الآن فكان ايسر يحدث رجاله عن عملية اخرى، وخلص الى القول: بالرغم من اننا نعمل خارج نطاق عملنا العادي إلا أننا أمام قضية بالغة الاهمية وهي قضية مهمة لخلفيتها الدينية والاجتماعية. وهي مهمة ايضاً لأن سمعة الحكومة الاسرائيلية وسلطتها على كف عفريت، وهي مهمة ايضاً للمسألة الانسانية التي تشتمل عليها.

وفرغ ايسر من الخطاب وخرج رجاله صامتين من غرفة الاجتماع في مقر قيادة الموساد ولم يكن احد ليلومهم لو ران عليهم الارتباك والحيرة. صحيح ان من شأن عميل الموساد توقع الاخطار والمصاعب في كل لحظة من لحظات عمله، ولكن هذه الحالة كانت استثنائية وغريبة جداً.

سوف يبعث ايسر هرئيل صفوة الاستخبارات الاسرائيلية للبحث عن صبي في التاسعة من عمره.

واسم هذا الصبي يوسف ـ يوسيل ـ شوماخر، وقد كان في ذلك الوقت، دون عام منه، في قلب معركة سياسية وعميقة لها تأثيرها البالغ على دولة اسرائيل بأسرها.

وقد ولد يوسف هذا لأرثر وايدا شوماخر في آذار ١٩٥٣ في اسرائيل، وكان والد ايدا، وهو نحمان شتاركيس عجوزاً متديناً جداً وقد فقد عينه وثلاثاً من أصابع قدمه وهو يعيش في سيبيريا بأمر من الحكومة الروسية، وقامت عصابة من اللاساميين باغتيال ابنه، ولم تفعل السلطات شيئاً، وكانت كراهيته للروس شديدة جداً مثل حماسته الدينية.

ونحمان هذا هو الذي اقنع ولديه الباقيين على قيد الحياة، وابنته ايدا بالهجرة الى اسرائيل بعد الحرب العالمية الثانية. وقد هاجر نحمان نفسه معهم.

وجد ارثر وايدا الحياة قاسية في الأرض الموعودة فقد كانت اسرائيل ما تزال تعاني من آثار حرب ١٩٤٨ العصيبة، وكان العمل والغذاء والمال من الأشياء العزيزة المنال.

ولم يتمكن ارثر شوماخر من ممارسة عمله في الخياطة، فعمل في احد المصانع، وعملت ايدا في ستوديو للتصوير، وكان الزوجان في حاجة ماسة للمال، وعندما ولدت طفلتهما الاولى- زينة- اضطرا الى ارسالها الى قرية لليهود الحاسيديم.

وفي عام ١٩٥٣ ولد لهما مولود آخر ذكر، وأطلق عليه اسم يوسف ولكنه سرعان ما تغير فأصبح يوسيل.

وأرسل الوالدان ابنهما يوسيل ليعيش مع جديه في حي مئة شعاريم وهو منطقة من القدس يسكنها غلاة المتدينين من اليهود.

وينتمي نحمان شتاركس الى شعبة تدعى ناطوري كارتا أو حراس اسوار المدينة، وقد رفضت هذه الطائفة المغالية في الدين، الاعتراف بدولة اسرائيل ورفض شبانها الانخراط في الخدمة العسكرية.

وسرعان ما توثقت العرى بين الجد والحفيد، وكان امل الجد معقوداً بتربية يوسيل تربية يهودية صارمة.

بيد ان ايدا وارثر كانا اكثر اهتماماً بشؤون الحياة العملية وفي احدى زياراتها العديدة لرؤية يوسيل اشارت الى ان من الممكن ان تهاجر هي وزوجها الى امريكا، وذلك ان الجمع بين الدخل والنفقات في اسرائيل كالجمع بين الماء والنار، كما اوضحت.

وامتلأ قلب نحمان شتاركيس بالفزع واقسم قائلاً:

لن يبرح يوسيل ارض اسرائيل.

وانتهت المحادثة بذلك.

وأخيراً، بعد حوالى خمس سنوات، اخذت احوال عائلة شوماخر في التحسن بل ان الزوجين تمكنا من شراء شقة بالقرب من تل ابيب واصبحا قادرين على استرداد ولديهما الى المنزل، للعيش معهما. فذهبت ايدا الى القرية التي كانت تقيم فيها زينة وجاءت بها، ثم ذهبت الى القدس لتأتي بيوسيل من عند والديها. غير أن نحمان شتاركس كانت تساوره الريب والشكوك، فهو لم يكن راضياً عن أسلوب حياة ارثر وايدا وهما يتحولان الى اسرائيليين علمانيين معاصرين. ولم يكن لديهما سوى قليل من الوقت في تلك الايام لاداء واجباتهما الكاملة من صلاة وشعائر يومية، واسوأ

من ذلك كله، ان الشيخين لم يتمكنا من تناسي تهديد ايدا المفزع بإمكان مبارحة الارض المقدسة تماماً.

وتمكن الشيخ بعد ساعات من الجدل ان يقنع ايدا بان من مصلحة الصبي البقاء في القدس زمناً اطول.

ومكث يوسيل برهة قصيرة مع جديه، ولكن ايدا عادت اخيراً واخذت تتوسل والدموع تترقرق من مآقيها: ارجوك يا ابت، اعد الي طفلي.

ورق قلب شتاركس الشيخ وصوته يتهدج بالحزن والاسى فوعد ان يرد يوسيل في نهاية الاسبوع القادم، وإنما كان يريد ان يكسب اياماً قليلة اخرى مع الصبي الذكي الذي ملك عليه قلبه. وفي يوم بارد من كانون الاول ١٩٥٩ قبلت ايدا ابنها قبلة الوداع، قبل ان تركب الباص المتجه الى تل أبيب، وقضت فترة السفر، وهي حوالى ٩٠ دقيقة في الباص تفكر في السعادة التي ستملأ بيتها اذا اصبح فيه افراد الاسرة جميعاً في خاتمة المطاف.

وشاءت الأقدار ألا ترى ابداً ابنها قبل ان تنقضي ثلاث سنوات من ذلك الحين.

وكان نحمان شتاركس قد قرر ان يربي يوسيل تربية اليهود المتنسكين، واذا اقتضى الأمر ان ينتزعه عنوة من أمه فلن يألو جهداً في القيام بذلك لتحقيق غرضه، فسيكون افضل حالاً بين ظهراني ناطوري كارتا وخيراً منقلباً.

وعندما عادت ايدا الى القدس لم تجد اثراً لابنها، ورفض ابوها ان ينبئها شيئاً عن المكان الذي ذهب اليه الصبي.

وتوسلت ايدا الى والديها عدة اسابيع في غير طائل، ثم ذهبت الى الشرطة التي توجهت الى منزل نحمان شتاركس، ولكن العجوز لم يبح لهم بشيء. «ان انقاذ نفس واحدة كانقاذ من في الأرض جميعاً، ولن ادلكم على مكان الصبي».

وقضت محكمة عليا بحبس جد يوسيل الى ان يعد بإخراج الصبي من مخبأ، حيثما كان.

ولكن هذه لم تكن عقبة كبيرة كما قال نحمان شتاركس، الشيخ اليهودي العنيد الذي قضى في سيبيريا ثماني سنوات، ولم يكن موظفو السجن راضين عن عمله، ولكنهم كانوا يحترمون معتقداته الدينية، وعاملوه معاملة الضيف الكريم لا المجرم الأثيم.

اما المحكمة العليا فقد اعلنت من جانبها ان غياب الصبي يعتبر ـ جريمة مروعة ـ ولكن ما باليد حيلة، فقد احكم ناطوري كارتا طريق الحصار، وشددوا الحراسة على الصبي، وقضت

الشرطة اسابيع عديدة وهي تتفقد كافة المؤسسات الدينية، من كافة انواع المدارس والكنس في اسرائيل، ولم تترك احداً إلا استجوبته ولا مكاناً الا فتشت فيه. ولكنها خرجت من ذلك صفر اليدين وعادت بخفي حنين دون ان تعثر على ريح الصبي الضائع.

وفي تلك الاثناء أنبأت ايدا رجال الصحافة بما وقع لها، وقفزت انباء الفضيحة الى العناوين الرئيسية في الصحف، ونشرت رسوم كاريكاتورية ساخرة تهزأ بالجهود التي بذلتها السلطات في اقتفاء اثر الصبي. وكلما اصدر شرطي مخالفة لسيارة، تعرض لتعليقات جارحة:

لماذا لا تذهب للبحث عن يوسيل بدلاً من تضييع وقتك في تغريمي؟.

وعلى مراكز البوليس كتبت بالطباشير ثلاث كلمات اثارت حفيظة قوات الأمن والنظام وهي: اين هو يوسيل؟.

وقضى رجال المباحث والرسميون اشهراً من العمل الشاق في غير طائل، وبدا الأمر وكأن يوسيل اختفى عن وجه الأرض.

وفي ربيع ١٩٦٠ تحولت قضية يوسيل الشائكة الى قضية سياسية خطيرة. وفي واقع الأمر، حدث الانشقاق منذ تأسيس الدولة، بين اليهود المتدينين- الحنفاء- وبين اولئك الاسرائيليين الذين أرادوا ان يسير بلدهم على نهج الدول العلمانية المعاصرة الأخرى، وقد رغب هؤلاء في تخليص انفسهم من أسر السنن القديمة التي اعتبروها اكثر جموداً من ان تطبق في الأزمنة الحديثة.

وقد ادت قضية يوسيل الشائكة الى ابراز كل هذه الخلافات الى السطح. ومن اول من وعى حقيقة الاخطار التي كانت القضية مشحونة بها، الرابي شلومو لورنتس، وهو احد اعضاء حزب اغودات اسرائيل، وهو حزب من المتدينين الحنفاء ولكنه اكثر اعتدالاً من ناطوري كارتا. وكانت قيادة الحزب تخشى من وقوع حرب اهلية اذا لم يتم ارجاع يوسيل قريباً.

وجاب الرابي لورنتس البلاد طولاً وعرضاً، وهو يمارس الضغط على قادة ناطوري كارتا وحذا حذوه زعماء دينيون آخرون، وقد استخدموا طرق التوسل والاحتجاج والتهديد جميعاً. ولكن شيئاً لم يحدث.

وذهبت طائفة من قادة رجال الدين لمقابلة الرابي عمرأم بلاو، واخيه موشيه، اللذين كانا زعيما ناطوري كارتا الروحيين، وتوسلوا اليهما ان يسلكا جادة المنطق والصواب ويتخليا عن الصبي.

وكان جوابهما لهم، اننا لا نعلم شيئاً.

ولم تختلف معاملة السياسيين ورجال الشرطة والزعماء الوطنيين الذين زاروهم عن تلك المعاملة.

وبدا من الواضح ان ناطوري كارتا لن يتزحزحوا عن موقفهم قيد انملة، وكان هذا هو الروح العنيد الذي اتصف به اليهود الذين آثروا الموت حرقاً على ان يتخلوا عن دينهم، وهم سيموتون قبل أن يتخلوا عن الصبي يوسيل.

وظلت جهود الشرطة في البحث عن الصبي فاشلة كما كانت، وعلم قادة شرطة القدس انهم قد غلبوا على امرهم.

وتحققت سلطات السجن المسؤولة عن نحمان شتاركس انها لن تجني شيئاً من مواصلة احتجازه، فقد بقيت شفتاه مطبقتين في تحدٍ متصل، ولم ينهار ابداً، ولم يكن ليخبرهم شيئاً مهما كان . .

وفي نيسان ١٩٦١، اطلق سراحه، بعد الفترة التي قضاها في السجن لاعتبارات صحية.

واعتبر انصار الرجل العجوز نحمان شتاركس شهيداً من الشهداء آنذاك وفي الحي الديني كتبت شعارات بالطباشير تعبر عن هياج السكان:

ان حكومة اسرائيل لا تختلف في سوئها عن النازيين.

ومما اثار قلق العسكريين قرب حي مئة شعاريم الذي يقطنه ناطوري كارتا من الجانب الاردني في المدينة، واذا شبت الحرب بين اسرائيل والاردن، فسيكون من السهل اكتساح ذلك الحي بأسره وكان الحي في الواقع حلقة ضعيفة لا تتمتع بالحماية في خط الحدود الاسرائيلي الامامي.

وفي صيف ١٩٦١، بعد سنة ونصف من اختفاء يوسيل، اقترب موعد الانتخابات العامة، وكان لغز يوسيل الذي لم يحل قد اصبح الآن قضية وطنية تهدد تقدم حزب بن غوريون الحاكم وهو حزب الماباي. وكان رئيس الوزراء يعتمد على تحالف عدة من الاحزاب الصغيرة وبعد حادث يوسيل اخذت الجماعات الدينية تتساءل بشأن مواصلة مساندتها له.

وكان الموقف حرجاً بالفعل. واستطاع حزب بن غوريون- المابام- ان يفوز في الانتخابات، ولكن تحالفه اصيب بضعف حاسم، فقد اخذت بعض الاسئلة الاساسية التي اثارها اختفاء يوسيل تزعزع كيان اسرائيل ووحدتها مثل: من هو اليهودي؟ وما هي الدولة اليهودية؟.

وشرع الشبان من اصحاب التطلعات العلمانية يهاجمون اطفال ناطوري كارتا وهم ماضون .

في سبيلهم للصلاة في الكنيس او عند حائط المبكى.

وفي مقابل ذلك، كان الشبان المتدينون- الحنفاء- يقذفون بالحجارة السيارات التي تدنس حرمة السبت وهي تعبر الشوارع في مساء الجمعة او السبت.

ووقع عشرات الألوف من المواطنين المعارضين لناطوري كارتا على عريضة نظمتها «اللجنة العامة لانقاذ يوسيل» اما ايدا شوماخر فكانت في شقتها تذرف الدموع على ابنها يوسيل الذي غاب عنها سنتين.

وفي نهاية شباط ١٩٦٢ قرر بن غوريون وجوب اتخاذ عمل حاسم، فبعث برسالة الى ايسر هرئيل ان: تعال لمقابلتي. وعندما وصل ايسر، لم يزد على ان جلس في المعقد المقابل لبن غوريون وكان الرجلان لا يتصافحان، اذا تلاقيا ولا يتبادلان الاحاديث عن احوالهما الصحية، بل انهما كانا عند اثارة اخطر الموضوعات ينهيان مباحثاتهما في ثوان معدودات.

ونظر بن غوريون الى ايسر وسأله:

اين يوسيل؟.

واجاب رجل الموساد:

- لا أدري.

- هل تقدر على الاتيان به؟.

ولم ينتظر بن غوريون ليسمع الرد على مسألته الثانية، فكر راجعاً ببصره في اوراقه وغادر ايسر المكان بهدوء. فقد صدرت اليه الأوامر وعليه تنفيذها.

كان ايسر يعرف حق المعرفة اهمية ما هو بسبيله من اعمال، وفي تلك الليلة قال لزوجته رفقة بهدوء: اتعرفين فيم أفكر؟ ان علينا انقاذ سمعة الوطن.

وكانت تلك الليلة احدى المناسبات النادرة التي تحدث الى رفقة فيها عن سر من اسراره، وهو على كل حال لم يخبرها شيئاً عما اشار اليه، وترك لها تخمين ذلك.

وتناول ايسر الملف الكامل الذي جمعه رجال البوليس في بحثهم عن الطفل الذي استمر عامين من غير طائل، واخذ يدرس القضية من الفها الى يائها وسرعان ما اكتشف انهم لم يقتربوا في معرفة مكانه اكثر مما كانوا عليه في البداية.

وبدا من الجلي ان البحث عن يوسيل سيكون تحدياً كبيراً حقاً، فالبرغم مما لدى رجال

البوليس من تدريب جيد وحيوية ضمير، لم تسفر جهودهم عن شيء، كائناً ما كان.

انقضت عدة اشهر منذ ان بعث ايسر برجاله الى الميدان، لم يتمخض عملهم عن شيء، وهبطت معنويات العملاء الذين اشرفوا على العملية، فقد كانوا يعلمون ان البحث عن يوسيل يستنفد قدراً كبيراً من ميزانية الموساد.

ولكن ايسر لم يكن ليتخلى عن عمل شرع فيه، أو ليعود الى بن غوريون صفر اليدين، واخيراً بعد خمسة اشهر من بدء المهمة انفجرت الازمة.

كان ايسر عندما وقع في خاطره ان الصبي لا يقيم في اسرائيل، قد تحدث الى الرقيب العسكري الذي له الحق في فتح البريد الوارد الى البلاد والخارج منها وقراءة ما فيه. وطلب ايسر من الرقيب ان يعير اهتمامه لكل ما يرد من بريد الى المؤسسات الدينية في اسرائيل- والخارج- او ما يخرج منها، واذا اشتبه في شيء، فليبلغ ايسر بأمره في الحال.

وذات يوم عثر احد الرقباء على شيء ما. فقد كتب احد الجنود في معسكر للجيش بالنقب خطاباً الى امه في بروكسل. وفي منتصف الخطاب ورد سؤال بدا بريئاً ولكنه خارج عن السياق:

لكن كيف حال الصبي؟.

وعندما عرض الرقيب ذلك على ايسر، علم انه اهتدى الى السبيل الصحيح، فاستدعى احد نوابه وعرض عليه نسخة فوتو ستاتية من الخطاب.

وقال ايسر:

ههنا الصبي، تدبروا امر هذه السيدة وستنتهي المشكلة.

وشرع رئيس الموساد في وضع الخطط للسفر الى اوروبا، وفي اثناء ذلك ارسل اكثر من ١٢ عميلاً على عجل الى بروكسل لتحديد مكان اقامة المرأة التي انتقلت الى فرنسا، ولكن رجال الموساد سرعان ما تعقبوها حتى مدينة اكس لبلان في جنوب فرنسا، حيث راقبوها مراقبة مستمرة.

وذات صباح، ذهبت المرأة الى مركز البريد المحلي، وطلبت اجراء مكالمة مع انكلترا وقرأت اسم الشخص الذي تريد الاتصال به واسمها ايضاً.

وسجل الرجل الذي كان واقفاً وراءها تلك التفصيلات مسروراً وكان هو ينتظر دوره للاتصال بباريس.

وكان الرجل عميلاً من عملاء الموساد.

وعندما حان موعد اتصال المرأة بالهاتف، وقف اثنان من العملاء في حجرة التلفون المجاورة يرهفان السمع لكل كلمة تتفوه بها، وعندما خرجت من مبنى البريد تعقباها، وهي تسوق سيارتها، وكانت سائقة سريعة جداً، فوجدوا حرجاً في محاولتهما ملاحقتها بدون ان تكتشف امرهما.

ووصلت المرأة الى ضواحي باريس في تلك الليلة ورجال الموساد ما يزالون في اثرها. وفجأة بعد ان خرجت من نفق طويل، اختفت عن الانظار وسواء اكتشفت امر ملاحقيها أم لم تكتشفه فانها اختفت دون ان يعثروا لها على اثر.

وقام اثنان من زملاء العملاء في لندن بزيارة الرجل الحاخام الذي اتصلت به المرأة في لندن، ولم يكن ليفصح عن شيء بل انه هدد العميلين بالطرد واستدعاء البوليس، فما كان منهما الا أن انصرفا خائبين ايضاً.

ذهب ايسر هرئيل الى باريس على عجل ليراقب الموقف بنفسه، وفي الطائرة راجع ملف المرأة التي افلتت من يد العملاء. وكان اسمها مادلين فراي، وهي ابنة احدى العائلات الفرنسية الارستقراطية وقد درست هذه المرأة الذكية الطموحة في السوربون وفي جامعة طولوز. وكانت في صباها ترتدي الازياء الثمينة واشتهرت بجمالها الأخاذ. وقد عاشت حياة اجتماعية عاصفة وتودد اليها عشرات الرجال. ثم وقعت الحرب العالمية الثانية.

وعملت مادلين مع محاربي العصابات- الماكي - اي حركة المقاومة الفرنسية السرية، وهناك اتصلت باليهود لأول مرة، واشتهرت بشجاعتها. وقد اختارت مادلين المساهمة في مهمة خطيرة بنوع خاص، وهي المساعدة في انقاذ اطفال اليهود من اخذهم الى معسكرات الاعتقال. وقد منحت وساماً من اوسمة المقاومة لقاء مآثرها في اثناء الحرب.

وتزوجت مادلين، بعد الحرب من كاثوليكي من ابناء وطنها، ووضعت طفلاً ذكراً اسمته كلود.

ثم وقع حادث غريب في حياة مادلين فراي، فقد «جاءها الوحي» وعزمت على ان تصبح يهودية فطلقت زوجها وتهودت بمساعدة حاخام شاب كان قد وقع في شباك غرامها، وهاجر ابنها الى اسرائيل واخذت تخطط للحاق به.

واحس ايسر بالقلق، وهو يفكر في العثور على هذه المرأة من جديد، وفي جعلها ترشده الى مكان اقامة يوسيل.

كان ايسر يعلم انه يسير هو ورجاله في طريق محفوف بالمخاطر، فقد كانوا يستعملون طرقاً

تتصف بالمكر والقسوة في البحث عن الصبي. وهم الآن يدوسون العرف القائل بأن يحترم بلد ما سيادة الآخر.

وكان في وسعهم تبرير ذلك، لو كانوا يطاردون احذ النازيين السابقين، من الفاسدين الذين تلقى عليهم تبعة حالات لا حصر لها من القتل، اما اذا كانت بغيتهم صبياً صغير السن...

ومع ذلك واصل ايسر السير في مهمته. كان يعتزم العثور على يوسيل وقد حدثته نفسه بأن الصبي في باريس.

وعندما وصل هناك حجز مكاناً في فندق صغير متواضع وقضى بقية النهار وقدراً كبيراً من الليل في مراجعة القضية مع رجاله.

- وعندما رجع الى فندقه في ساعات الصباح الأولى غمزه كاتب الفندق وسأله بقوله:

الا تريد أن تمتع نفسك يا سيدي؟ ان في وسعك ان تأتي بها معك هنا كما تعلم...

وكان ايسر من المتطهرين فاستاء من ذلك القول، ودفع حسابه وغادر الفندق في الحال، وانتقل الى السفارة الاسرائيلية في شارع واغرام.

وخيب ايسر ظن السفير فألح على النوم في كوخ متواضع مودع في غرفة صغيرة خلف السفارة. ولم يكن ايسر ينتفع بلطائف البروتوكول وهو على كل حال قد كان طليعياً سابقاً اعتاد النوم في سرير بسيط في احد المعسكرات.

وعندما عرف العملاء مقام رئيسهم سارعوا الى الانتقال من الفنادق المتواضعة التي كانوا يقيمون بها، وأووا الى ارخص الغرف التي عثروا عليها.

بلغ عدد عملاء الموساد في باريس اكثر من ٤٠ شخصاً، وقد قضوا جل وقتهم في محاولة اكتشاف اثر مادلين فراي، التي فقدت منهم في النفق قبل ايام. ولم يعثروا على أثر لها منذ ذلك الحين.

ولكنها لم تطل غيابها عنهم على كل حال.

فقد عثر عميل كانت مهمته التنقيب في جميع صحف باريس على اعلان نشرته مادلين فراي في احدى الجرائد تعبر فيه عن رغبتها في بيع دارتها- الفيلا- الواقعة في خارج باريس.

وفي خلال ساعات من ظهور ذلك الاعلان اتصل المانيان راغبان في شراء الفيلا، وسعدت

مادلين بالعثور على مشترين محتملين بهذه السرعة، ووافقت في الحال، والتقت بالرجلين في مكان اتفق عليه معها، ومضت بهما في سيارتها الى منزلها.

حتى اذا دخلا المنزل صفقا الابواب خلفهما في عنف وكشفا عن هويتهما الحقيقية، انهما عميلان من عملاء ايسر هرئيل.

واستشاطت مادلين غضباً للمكر بها، وصرخت مستغيثة، وهجمت عليهما ولكنهما كبحاها بهدوء واعتذر احدهما لها، ولكنه اخبرها بأنها اسيرتهما مؤقتاً وقال:

لن نلحق بك أي ضرر، بل لن نمسك، فتفضلي بالجلوس واستريحي، فهذا منزلك وينبغي ان يكون سلوكنا سلوك اناس متحضرين على كل حال.

ولن تبرحي هذا المكان حتى تعطينا المعلومات التي ننشدها. واتصل العميلان هاتفياً بأيسر الذي كان في السفارة آنذاك واعلماه بأنهما يحتجزان المرأة، فأرسل اليهما واحداً من اخطر رجاله على الفور.

وكان هذا اكثر رجال الموساد خبرة في الاستجواب. وهو يلقب- المحقق الاسباني- حتى لدى رفاقه في الموساد، وهذا الرجل هو الذي اختاره هرئيل من قبل لاستجواب ادولف ايخمان عندما احتجز أول مرة.

وهو رجل قوي البنية ذو صوت رتيب، انهار العشرات من الرجال امامه في سنوات عمله الطويلة.

وجاء دوره في استجواب المرأة الفرنسية الآن.

وقف ساعات يوجه اليها الاسئلة، وهو يحدق الى عينيها الزرقاوين، عائداً الى الموضوع نفسه من حين الى آخر، وهو يحاول ان يوقعها في الخطأ بما في جعبته من المهارات ولكنها لم تخطىء ولو لمرة واحدة وردت على كل سؤال ملتوٍ بالاجابة الصحيحة. ولم تعترف قط ان اية صلة قد قامت بينها وبين يوسيل.

واستمر الحال على ذلك اربعة ايام.

وفي النهاية استعد «المحقق الاسباني» للرحيل واتصل هاتفياً بأيسر واخبره عن نيته وقال: انني مقتنع بأننا وقعنا على غير الشخص المطلوب، فهذه المرأة بريئة تماماً من هذا الأمر، وهي لا تعرف شيئاً عن الصبي. وكان يشعر كما يشعر ضباطه بالانزعاج من الخطأ الذي اعتقدوا انهم قد ارتكبوه تجاه امرأة بريئة تماماً رهينة منزلها، ولو عرف البوليس الفرنسي حقيقة ما حدث لثارت عاصفة هائلة من الانتقادات.

وسارع ايسر الى المنزل، فلم يكن مقتنعاً بأقوال عملائه، وذهب لمواجهة المرأة بنفسه، وعندما وصل المنزل، كانت مادلين فراي ما تزال على ما عهد منها من تشدد، ولم يكن ايسر بالقياس اليها سوى جلاد آخر يحاول ان ينغص عليها حياتها.

واستجوبها ايسر عدة ساعات واعادت الى سمعه ادعاءاتها السابقة مراراً وكانت اقوالها منسجمة تماماً مع ما قالته للمستجوب الاسباني.

كان ايسر هرئيل يعتقد دائماً بأن في وسعه ان يعتصر أي شيء من أي شخص اذا هو أراد ذلك.

ولكنه لم يستخلص شيئاً من مادلين فراي، التي ردت أسئلته الى وجهه وكيده الى نحره.

وجابه ايسر هرئيل الفشل الذريع لأول مرة في حياته، فنهض وغادر الغرفة، وكان رجاله الواثقون من براءة المرأة قد الحوا عليه في تركها وحدها.

بيد انه كان متأكداً من انها تفتري عليهما الاكاذيب، وانها تعلم اين يكون يوسيل، وأنها في الواقع، هي المرأة التي قامت بتهريب الصبي من اسرائيل. ولكن، كيف يمكنه اثبات ذلك؟.

وبينما كان رجال ايسر يتحادثون، اخذ يتصفح وثائق المرأة التي اشتملت على جواز سفرها ونظر اليه وهو يقلب صفحاته.

وفجأة توقف ايسر.

ودعا اليه احد رجاله، وطلب منه ان يريه صورة يوسيل وقدم الرجل الصورة ونظر اليها ايسر بعناية، ثم كر بصره الى جواز سفره وبعدئذٍ نادى رجاله اليه وقال: ألا ترون ابنة هذه المرأة؟ انني لم اعلم ان لها بنتاً. والآن انسوا شعرها الاشقر وانظروا الى محياها، ثم انظروا الى وجه يوسيل ما الذي تستنتجون؟.

وصعق الرجال. فقد كانوا يشاهدون صورتين لشخص واحد.

ونهض ايسر واقفاً وقال: هي هي المرأة، فقوموا بواجبكم.

وعندئذٍ رجع أيسر على عقبيه وخرج من الغرفة وسرعان ما عاد ادراجه الى باريس.

ولما اظهر رجال الموساد المرأة على الصورتين، شحب وجهها وارتاعت، وعرفت انهم قد اكتشفوا سرها، ولكنها بقيت على تحديها، وقالت:

افعلوا ما شئتم، فلن تعرفوا مقام يوسيل ، ستضطرون لقتلي أولاً، ولكنكم لن تكتشفوا شيئاً عندئذٍ.

وكان رجال الموساد القلقون بعدما خيبوا ظن رئيسهم يعلمون ان عليهم التوصل الى نتائج. فشرعوا على كره منهم في تنفيذ خطة طوارىء اعدوها قبل بدء الاستجواب، وخرجوا من الغرفة خلا واحداً منهم واخرج هذا ملفاً هو ملف مادلين فراي. واخذالعميل يقرأ الأوراق فتلا على سمعها كل ما عرفه رجال الموساد عنها ومن ذلك تفصيلات الغرام التي قضتها في سنوات دراستها الخلية في باريس. وهي أمور تكاد لا تذكرها هي نفسها. وعندما فرغ من ذلك وضع الملف وقال:

ان لدينا قائمة وافية بتصرفاتك الطائشة كما ترين. وأنا شخصياً اعتقد ان هذه هي شؤونك الخاصة. ولكن اصدقاءك من جماعة ناطوري كارتا لن يروا هذا الرأي، وسيفاجأون اذا نحن قدمنا اليهم هذه المعلومات فأنت تعلمين مبلغ تشددهم ازاء هذه الأمور، ولهم شكوكهم المسبقة بشأن الموافقة على انضمام احد الكاثوليك السابقين الى صفوفهم. وقال العميل وهو ينقر الملف بسبابته:

«ستصبحين ملعونة في نظرهم الى ابد الآبدين».

نحن نعلم انك قد هربت يوسيل من القدس، ونعلم انك قد صبغت شعره لتنكيره واخفائه، اخبرينا الى اين أخذتِهِ، واين هو الآن، وعندئذٍ سنتلف هذه الأوراق. ولاذت الفرنسية بالصمت ثواني معدودات ثم انفجرت غاضبة:

هذا عار. هذا ابتزاز قذر. ورد المستجوب بقوله: اعلم ذلك، و لكن مستقبل بلادي تتهدده الاخطار ان لم نعثر على الصبي، ففي شوارع القدس يقذف الاسرائيليون بعضهم بعضاً بالحجارة، ثم انك أم، فلا يخفى عليك ما اعنيه من حديثي. ان لهذا الصبي أماً كذلك وهي تحبه بقدر ما تحبين ابنك، وهي لم تره منذ ٣ سنوات من جراء ما قمت به من اعمال. فكري في خطيئتك قبل ان تلقي عليّ دروساً عن الابتزاز القذر..

وانهارت مادين فراي فقد اكتشف الموساد نقطة الضعف عندها. واوضحت لهم بالتفصيل كيف نظمت عملية اختطاف يوسيل.

فقد طلب بعض اصدقائها من جماعة ناطوري كارتا ان تساعدهم في اخراج الصبي من اسرائيل وصممت هي بنفسها خطة العمل.

فقد ابحرت اول الأمر الى حيفا دون مساعدة احد، بصفة سائحة عادية. وفي السفينة تعمدت مادلين ان تصادق عائلة من المهاجرين الجدد كان معها صبية في الثامنة من عمرها. وعندما نزلوا من السفينة على المعبر الخشبي الموصل الى البر طلبت مادلين ببراءة من الصبية الصغيرة ان تمسك بيدها.

وظن ضابط الهجرة ان الفرنسية قد جاءت ومعها ابنتها الى البلاد، فسجل ذلك في دفتر ملحوظاته آنذاك.

وكانت مادلين قد اجرت تعديلاً بارعاً في جواز سفرها فغيرت اسم ابنها كلود الى كلودين،
وكذلك حين ركبت مادلين الطائرة بعد اسبوع متوجهة الى زيوريخ لم يشك احد بشأن السيدة فراي وابنتها. وكانت البنت هي يوسيل، الذي صبغ شعره، وتم اقناعه بارتداء ملابس صبية، وكان ذلك جزءاً من لعبة لطيفة اعدتها عمته الجديدة له.

وكانت الخطة جريئة حقاً، بل متهورة، ولكنها افلحت على كل حال، وقضى يوسيل بعض الوقت في مدرسة دينية في بروكسل في سويسرا وعندما استمر بحث رجال الموساد عنه انتقلت مادلين وكلودين الى فرنسا عبر بروكسل.
وأخذ رجال ايسر يقومون بتحرياتهم بين اليهود المتدينين في باريس وعندئذٍ فقط عرفت مادلين ان الصبي يتهدده خطر الاكتشاف، فطارت به الى نيويورك ووكلت امره الى زوجين في بروكلين من اعضاء جماعة ستمار الحسيدية.

وقالت الفرنسية لعملاء الموساد بهدوء:
انه هناك الآن، وسأقدم لكم عنوانه.
ايلول ١٩٦٢، بعد سنتين وعشرة اشهر من غياب يوسيل استعد المدعي العام الامريكي روبرت كنيدي للاتصال الذي منحه الاولوية المطلقة. وكان في الطرف الآخر، ايسر هرئيل يتحدث من مقر قيادة الموساد.

ودخل ايسر في صميم الموضوع، وقال باقتضاب، بصوته الجهوري:
ان عملائي في طريقهم الى نيويورك. وهم قادمون ليعيدوا يوسيل الى ارض الوطن، إننا سنقدر لك تعاونك معنا.

وطقطق الهاتف وانتهت المكالمة.
وبقي كنيدي مندهشاً عدة ثوان، فقد كان يعرف اسم ايسر هرئيل ويحترمه، ولكن لماذا يطير عملاؤه الى نيويورك ومن الذي خولهم تنفيذ مهمتهم فيها؟.
ثم من هو يوسيل وما هو؟ واتصل كنيدي في الحال بالسفير الامريكي في تل أبيب فذهب هذا بسيارته الى اورشليم لمقابلة بن غوريون. وارسل كنيدي ايضاً مبعوثاً الى السفير الاسرائيلي في واشنطن، أبي هارمان، وكان هارمان، على علم بموضوع يوسيل، ولكنه لم يعلم ما الذي يبيته ايسر هرئيل من اعمال، وبالطبع، انزعج للانتهاك الخطير في البروتوكول الذي قد تثيره عملية هرئيل فبعث برسالة محمومة الى اسرائيل.

ولم يكن بن غوريون الداهية لينقاد الى مناقشة اعمال ايسر مع احد كائناً من كان. وعندما وصل السفير الامريكي استقبله مساعد بن غوريون العسكري وهو الكولونيل حاييم بن دافيد، وابدى بن دافيد تلطفه وتعاطفه ووعد بعرض الأمر في اسرع وقت ممكن على رئيس الوزراء الذي كان لسوء الحظ يحضر اجتماعاً لمجلس الوزراء آنذاك وحدد موعداً معه في وقت متأخر من النهار.

وفي اثناء ذلك اختفى ايسر هرئيل، وانقطعت معه الاتصالات، كما اوضح سكرتيره بهدوء لعشرات الناس الذين حاولوا فجأة الاتصال معه.

وفي واشنطن، حصل روبرت كنيدي على تقرير في موضوع يوسيل، وقد اسر الى احد موظفي وكالة الاستخبارات المركزية فيما بعد انه قد دهش ابلغ الدهشة عندما قرأه.

فقد أرسل الموساد عملاء للقبض على ولد في السنة العاشرة من عمره.

وما الذي سيفعله هو بهذا الصدد؟.

كان كنيدي ميالاً الى ترك العملاء يقومون بعملهم في نيويورك ويغادرونها بدون احداث ضجة حول الموضوع، فلم يكن ايسر هرئيل ليرسلهم بدون علة معقولة، وكذلك كان الاسرائيليون متعاونين كل التعاون مع موظف وزارة العدل وعملاء الاستخبارات الامريكان وفضلاً عن ذلك، اذا كان رجال الموساد الآن في طريقهم جواً، فإن الوسيلة الوحيدة لايقافهم هي اسقاط الطائرة.

ومن جهة اخرى، كان لكنيدي متاعبه السياسية الخاصة. فقد كانت انتخابات الحاكمية وانتخابات الكونغرس وشيكة الوقوع، وقد يؤدي الجدل الذي قد يدور حول اعماله الى فقدان قدر من مساندة اليهود الحاسمة التي اعتاد المرشحون الديمقراطيون الاعتماد عليها.

ولكن، ما العمل اذا لحق ضرر بأحد في اثناء عملية الاسرائيليين، او اذا تبين ان يوسيل لا يقيم في العنوان الذي حسبوه مقيماً فيه ؟ .

واتصل كنيدي مرة اخرى لمعرفة ان كان الصبي يقيم فعلاً في ذلك العنوان. فأكد له المخبر ذلك.

واستقر رأي روبرت كنيدي وصح عزمه على ارسال شكوى من عمل ايسر التحكمي وذلك بأرق العبارات الممكنة. وفي اثناء ذلك كان على وكالة الاستخبارات الفيدرالية التعاون مع الموساد بكل الوسائل الممكنة.

وفي وقت متأخر من ذلك اليوم هبطت طائرة العال قادمة من تل أبيب في مطار ايد لو ايد في

نيويورك. وكان في مدرج المطار فريق من عملاء ف. بي. أي . ومعهم رتل من السيارات.

وعندما هبط الركاب من الطائرة، انفرد عدد من الرجال من الجمهور وخفوا لملاقاة رجال المخابرات الفيدرالية الذين كانوا في انتظارهم. وقد قوبلوا بتحية حارة.

وفي غضون ساعة وقفت السيارات بقرب مبنى متواضع مؤلف من وحدات سكنية في ١٢٦ شارع بن في حي وليامز بورغ في بروكلين. وكان في انتظارها طائفة اخرى من رجال المباحث السريين.

ودخلت طائفة من العملاء في ذلك المبنى وصعدوا السلم الى شقة السيد والسيدة تسانفل غرتز، وطرقوا الباب وعندما شاهدت السيدة غرتز هذا الحشد الكبير من الناس الجديين ارتبكت وداخلهاشيء من الخوف فدعتهم للدخول في الشقة.

وفي داخل البيت كان السيد غرتز يقيم الصلاة والى جانبه صبي في العاشرة من العمر يحمل كتاب الصلوات و- اليعملق- على رأسه، وقد انسدل خلف الشعر الاسود على جانبي وجهه الشاحب.

وقال احد رجال الموساد بالعبرية.

احزم امتعتك يا يوسيل فستعود الى بيتك.

نقلت ايدا شوماخر بالطائرة من تل ابيب الى نيويورك للتأكد من ان الصبي هو ابنها حقاً. ولم تكن ايدا في حاجة الى مشاهدة علامات خلقية خاصة في جسده للتعرف عليه، فسرعان ما طوقته بذراعيها، وهمس هو باشواقه لها.

وبعد اقل من يومين بعد العثور على الصبي، وقف يوسيل وعيناه تطرفان في وهج الشمس اللامع في مدرج مطار اللد بالقرب من تل أبيب وكانت الجماهير التي هرعت الى المطار للاحتفاء باجتماع شمل الأم وابنها تحييهما بحرارة عندما هبطا من الطائرة. وفي سيارة تقف على بعد معقول من الجمهور، كان رجل قصير القامة، هادىء ذو عينين زرقاوين صامتتين، اجل، لقد حضر ايسر هرئيل نفسه للترحيب بعودة يوسيل الى مسقط رأسه.

لم يتمالك هرئيل نفسه من انتهاز الفرصة بمشاهدة نتائج مغامرته الناجحة على الطبيعة مباشرة.

وكان اكثر من اربعين من كبار عملائه قد وقفوا وقتهم على هذه القضية قرابة ثمانية اشهر، وعمل حوالى مئة فيها في هذه الآونة اوتلك،وابتلعت الجهود التي بذلت للعثور على يوسيل معظم

ميزانية الموساد لعام ١٩٦٢، وراقب ايسر الاحتفالات دقائق معدودة، ثم مضى بالسيارة لمقابلة بن غوريون. ومن قبل، كان قد ابلغ رئيسه باخبار التحقق من الصبي فور سماعه لها، اما الآن فقد سار الى مكتب رئيس الوزراء وقال ببساطة: لقد عاد يوسيل.

ولم يجد هذا القول رد فعل فورياً. وظن ايسر هنيهة ان بن غوريون قد يوجه اليه سؤالاً أو اثنين، لأول مرة منذ ان عرفه، حول الطريقة التي اكتشف بها الصبي، او انه سوف يهنئه على ذلك.

ولكن بن غوريون لم يقل شيئاً بشأن يوسيل، وان كان ايسر يقسم ان عيني العجوز قد لمعتا حين سأله:

قل لي، وما حال المرأة؟ تطلق المرأة على نفسها اسم- روث بن دافيد- في هذه الأيام.

وبعدما انتهت قضية يوسيل عرض رجال الموساد عليها العمل في صفوفهم، فقد علموا ان المرأة التي تمكنت من مراوغتهم كل ذلك الوقت لديها مقومات جاسوسة من الطراز الاول.

ولكن روث رفضت ذلك العرض. وانتهى بها المطاف الى القدس حيث تزوجت من رجل يكبرها بسبعة وعشرين عاماً وهو - الرابي عمرام بلاو- زعيم حركة ناطوري كارتا، الذي كانت زوجته قد توفيت قبل عامين من ذلك الحين.

اما الآن فقد توفي الرابي بلاو واصبحت روث بن دافيد جدة لخمسين من الحفداء والحفيدات الذين كثيراً ما يفدون لزيارتها في بيتها الحجر الذي تعيش فيه منفردة. ومثل سائر المنازل في حي مئة شعاريم في القدس، تقوم أمام منزلها لافتة كتب عليها: انا يهودي ولست صهيونياً.

تلقب أرملة الرابي، حتى في اوساط المتدينين هناك، بلقب - فرومي - أي المتدينة، وهي تتشح بالسواد طيلة الوقت وتكسو رأسها الحليق بوشاح، ولا تخرج الى الشارع إلا بجوارب سوداء سميكة حتى في ابان القيظ والهجير اللافح، وتكثر من الصلوات، وتواظب على إقامة ابسط الشعائر في الدين الذي تبنته.

ومن بين الذين يقومون بزيارة روث في بيتها شاب قوي البنية يحمل رشاشه العوزي اذ كان يقوم بواجباته في الجندية، فقد انقضى ذلك العهد الذي كان يوسيل يرتدي فيه الملابس السوداء ويرسل الشعر المحلق على فوديه شأن حنفاء اليهود.

غير أن روث تقابله بالترحاب كلما قدم لزيارتها، ولعلهما يستذكران سوية ايام - فرارهما - في اوروبا، عندما استطاعا ان يتفوقا بمفردهما على خيرة رجال ايسر هرئيل.

الباب الثاني عشر

حرب رمضان

في اعقاب حرب الايام الستة، بدا لجميع المراقبين في جميع ارجاء العالم، ان الموساد الاسرائيلي معصوم عن الخطأ، فالعمليات التي كان يظن انها مستحيلة الوقوع جرى تنفيذها بسرعة وسهولة لا تحتاجان الى بذل جهد فيما يظهر. وكان من المعتقد بوجه عام ان نصر اسرائيل في حرب الايام الستة يعود في اكثره الى عمل المخابرات البارع الذي يدور من وراء الستار . وفي وسع شعب اسرائيل الذي يعتمد على مثل هذا التنظيم الخالي من كل عيب أن يستخلص لنفسه ان امنه موفور تماماً.

بيد ان هذه الصورة الاعلامية علتها غشاوة من السوء في عام ١٩٧٣ ، ففي وقت مبكر من تلك السنة بدا واضحاً ان المصريين والسوريين كانوا يتأهبون للحرب: كان اسطول ضخم من الدبابات والطائرات والقذائف التي كان الاتحاد السوفياتي يعيد بها تجهيز القوات العربية يستعد للعمل الفعلي، وكانت التقارير تتحدث عن تحركات هائلة للجيوش، مع تحرك فرقة تلو اخرى في كلتا الجبهتين المصرية والسورية. وتحدث الرئيس المصري انور السادات عن اعمال عداء وشيكة الوقوع.

وكان تأثر تلك النذر بالغاً، فقام الجيش الاسرائيلي بمناورات واسعة النطاق استدعى اليها آلاف الرجال من مراكز عملهم ، وطلب منهم الالتحاق بوحداتهم، وقد توقفت الحياة الصناعية والزراعية من جراء ذلك. ولكن شيئاً لم يحدث،ولم تقع اية حرب.

وكلفت هذه التعبئة اسرائيل عشرة ملايين دولار، ناهيك عن الانتاج الذي خسرته، وتعرضت الاستخبارات الاسرائيلية عندئذٍ لنقد شديد من جراء المعلومات «المضللة» التي قدمتها.

ولم يطل الوقت حتى وردت الانباء من النرويج تتحدث عن ان فريق الانتقام الذي ارسله الموساد للقضاء على «الارهابيين» الذين يهاجمون اسرائيل قد اغتال شخصاً غير الرجل المطلوب. ومن قبل ذلك كان الموساد يعتقد بأنه لا يمكن مكافحة الارهاب بغير الارهاب. على ان غولدا مئير

لم توافق على هذه الاستراتيجية، الا بعد المذبحة التي راح ضحيتها احد عشر لاعباً رياضياً اسرائيلياً في الالعاب الاولمبية بميونيخ.

وفي عام ١٩٦٨، حل تسفي زامير محل مئير عميت في رئاسة الموساد، فتابع سياسته بدرجة من الانتقام اثارت دهشة الآخرين في الموساد ممن كانوا يحسبونه قابلاً للتأثر بضغط الوزارية. وكان يتصدر قائمة «الضرب» عندئذٍ فلسطيني يبلغ التاسعة والثلاثين من العمر يدعى علي حسن سلامة، وهو زعيم جماعة القتلة في ميونيخ.

وقعت اول ضحية للموساد في تشرين الاول ١٩٧٢، بعد اسابيع من الالعاب الاولمبية- عندما قتل وائل زعيتر الذي جلب اليابانيين الثلاثة من مسلحي الجيش الاحمر الى روما، وهم الذين طاروا فيها بعد الى تل ابيب، واستخدموا القنابل اليدوية عند مبنى الاستقبال في مطار اللد وأودوا بحياة ٢٤ شخصاً وقد تمت ملاحقته حتى روما.

واطلقت عليه النار عند مدخل المبنى الذي تقع فيه شقته. وجرت عملية القتل بدون صعوبات وخرج قاتلوه من ايطاليا خلال ساعات.

وفي الاشهر العشرة التالية اصبح الشرق الاوسط واوروبا معتركين للارهاب والارهاب المضاد، وقام فريق الاعدام في الموساد بقتل عدد كبير من الضحايا، ولكنهم فقدوا عدداً من خيرة رجالهم في اثناء ذلك.

واخيراً حصل رجال الموساد في تموز ١٩٧٣ على ما بدا لهم انه السبيل الصحيح المفضي الى علي حسن سلامة الذي قيل انه في بلدة «ليل هامر» الصغيرة في النرويج وعندئذٍ أرسل فريق من القتلة على عجل «للعناية به».

غير أن العملية منيت بخطأ فادح مروع، فقد قام الفريق الذي يشتمل على عدد من الهواة بقتل رجل آخر، وانتهى الأمر بالقبض عليهم، وفي اثناء المحاكمة كشف العملاء عن جميع تفصيلات عملية الانتقام، مما فتح الباب على مصراعيه امام الأمر الذي كان الموساد يخشاه اشد الخشية وهو الاعلام، فقد نقلت الصحف في جميع ارجاء العالم حكايات عن الطريقة الوحشية التي كان الموساد ينفذ بها حملة من حملات القتل غير المشروع.

وبعد شهر من ذلك ازداد عدد الكوارث، واحدة عندما اخترقت احدى المقاتلات الاسرائيلية المجال الجوي اللبناني، وعزلت طائرة مدنية هناك، كانت مقلعة من مطار بيروت، ثم اضطرتها الى الانحراف عن مسارها الاصلي، والى الهبوط بدلاً من ذلك في احدى القواعد العسكرية في اسرائيل، وهناك طلب من الركاب ان يتفضلوا بالنزول، وبعد تفقدهم بسرعة

سمح لهم جميعاً بالرجوع الى الطائرة التي عادت الى بيروت.

وقد نفذ سلاح الطيران عملية الاختطاف غير المشروعة هذه لما زعم من أن جورج حبش زعيم الجماعة الارهابية «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» على متن الطائرة المعنية، وتبين من بعد انه لم يكن في تلك الطائرة. وادى هذا الخطأ الى عاصفة من الهياج في اسرائيل. واحتج الموساد بانه لم يوص بالاستيلاء على الطائرة، بل انه لم يكن متأكداً من وجود حبش على متنها وإنما صدرت الأوامر بأسرها من قبل وزير الدفاع موشيه دايان شخصياً.

ولكن اللوم وقع على عاتق الموساد على كل حال.

كان تكتم الموساد في ذلك الوقت يعمل لغير مصلحته. وقد كان بوسعه ممارسة بعض الضغوط البارعة في مجال العلاقات العامة لرفع شأنه لدى الرأي العام الاسرائيلي، ولكن سياسته المقررة كانت تقضي بعدم جذب الانتباه الى التنظيم او إلى أي نشاط من نشاطاته، وبقيت تلك السياسة سائدة، ولم يكن الجنرال الهادىء المتحفظ، تسفي زامير الرجل الملائم لتغييرها.

وكذلك هبطت سمعة الموساد الى درك لم يسبق له مثيل من قبل.

وفضلاً عن تخبطات الموساد الخاصة، زاد الطين بلة، ذلك التوتر الذي ادى، في السنوات الست السابقة او ما يقاربها، الى اجراء تغيير جذري في ميزان القوى بداخل جماعة الاستخبارات وكانت المحصلة النهائية لهذه الاتجاهات هي استمرار تقلص قوة الموساد والثقة به.

فمنذ حرب الايام الستة اخذ جهاز الاستخبارات العسكرية يبعد الموساد من الطريق، ويحل محله بصفة القوة المهيمنة في شؤون الأمن، وكانت الاستخبارات العسكرية قبل ذلك الحين تقصر اهتمامها على الشؤون العسكرية، فقد كانت شخصية «ايسر هرئيل» القوية تضمن بقاء كل جهاز من اجهزة الامن راسخاً في موضعه، مما يجعل تقسيم المسؤولية واضح المعالم غير قابل للمناقشة، كان هرئيل يضبط مختلف الفروع بالدقة التي يضبط بها قائد الفرقة الموسيقية البارع اوركسترا سيمفونية.

وبعيد حرب الايام الستة، خضع جهاز الاستخبارات العسكرية لقيادة الميجر جنرال اهرون ياريف، ذي الشخصية الانبساطية التي اخملت ذكر تسفي زامير الاكثر انطوائية، وقد تجاهل ياريف تمام التجاهل التقليد الذي يفرض السرية على ما يحيط باسماء قادة الاستخبارات ونشاطاتهم وكان ياريف اكثر استعداداً لتقديم نفسه هو ودائرته الى الصحافة.

وفي الوقت نفسه اخذت الاستخبارات العسكرية بمبادرة من ياريف نفسه تقوم بتوسيع دائرة نفوذها، ولم يقتصر امرها على مواصلة جمع المعلومات العسكرية، ولكنها اولت اهتمامها

ايضاً للبحث العلمي والديموغرافي والدبلوماسي والاقتصادي والسياسي كما انها وسعت نشاطاتها في مجال تحليل المعطيات والمعلومات، وقد حظيت هذه التحركات بتشجيع موشيه دايان الذي كان دائم التشكك في قيمة الموساد المدني الطابع، واستطاع ياريف بمباركة دايان، ان يرقى بقسم الاستخبارات التابع له، الى مرتبة القسم المهيمن على شؤون الاستخبارات الاسرائيلية بأسرها.

وعندما ساءت سمعة الموساد لدى الرأي العام، واصبحت الاستخبارات العسكرية مفرطة في قوتها وفي ثقتها بنفسها، عندئذٍ تهيأت جميع العوامل التي اتصلت بكارثة حرب رمضان.

وكان العامل الاول فيها هو «الفكرة الكلية»، او الفكرة الثابتة، التي ساد اعتقاد بها في المؤسسة العسكرية من موشيه دايان ومن دونه، وهي ترى ان احتمال وقوع الحرب ضئيل جداً فقد حسب العسكريون ان العرب لم يكونوا مستعدين للقتال.

تشبث هؤلاء العسكريون «بالفكرة» بالرغم من فيض المعطيات التي كانت تشير الى خلاف ذلك. ولم يقتصر الحال على الموساد بل قام مراقبون آخرون بجمع معلومات كثيرة عن قيام تعبئة واسعة النطاق في البلدان العربية، وتم تقديم تلك المعطيات الى دوائر البحث والتقييم في الاستخبارات العسكرية.

ولكن الضباط اتخذوا قرارهم من قبل، ودفعوا تلك التقارير او اغفلوها اغفالاً، وكان لهؤلاء الضباط اهتمام راسخ بفكرتهم، ولم يكونوا ليتزحزحوا عنها، اجل، كانت الفكرة امراً لا يناقش بل امراً لا يقبل النقاش، ايضاً.

وبقيت التقارير، طوال ايلول ١٩٧٣، تتوارد من جميع المصادر عن الاستعدادات للحرب وقد صعق الصحفيون العسكريون الاسرائيليون الذين كانوا يزورون سيناء ومرتفعات الجولان من تعاظم حجم القوات المسلحة المحتشدة على الجانب الآخر من الحدود. ودفعهم الانزعاج الشديد الى ارسال عشرات البرقيات التي تنذر بالخطر، ولكن الرقيب العسكري الذي يتلقى اوامره من الرجال الذين صاغوا «الفكرة»، كان يعمل قلمه الازرق في شطب مقالاتهم.

وفي مقر قيادة الجيش في صحراء سيناء، دأب أحد صغار الضباط على دراسة المعطيات وتقييمها نقطة نقطة على اساس رياضي وكان يأخذ بعين الاعتبار جميع العوامل التي قد تدل على تجدد صراع شامل، وينقل المعلومات يومياً على ضوء ما يصل اليه من اخبار الجبهة فوراً، وفي ذات يوم من ايلول وثب هذا الضابط من مقعده فأثار دهشة آمره، وقال:

ستنشب الحرب قريباً، إني واثق من ذلك، وفي وسعي البرهنة عليه.

ولم يلق رئيسه اليه بالاً، وقد شوهد هذا الضابط الصغير، يوماً بعد يوم وهو يعدو حول مقر

القيادة، ومعه الاوراق التي تشتمل على معطياته متوسلاً الى رؤ سائه اتخاذ التدابير الملائمة، ولكن احداً لم يهتم بتوسلاته.

وتكرر سوء الطالع، فاعتزل ياريف رئاسة الاستخبارات العسكرية وحل محله الجنرال الياهو زعيرا، وكان زعيرا يعمل بصفة ملحق عسكري في واشنطن، وكانت خبرته في الشؤون العربية المباشرة قليلة جداً، وفي شؤون الأمن اقل من ذلك، ولكنه وقع عليه اختيار وزير الدفاع دايان شخصياً، وكان لرأيه بذلك اهمية كبيرة، ولم يكن لديه من الحذر ما لدى ياريف، وقد اشتهر عنه انه لا يغير ما في ذهنه اذا اتخذ قراراً بصدد امر ما.

وقد يكون هذا عيباً خطيراً في أي قائد في الميدان، ولكنه امر مصيري في جو الاستخبارات التي يقتضي التدفق الدائم للتقارير الواردة فيها اعادة تقييم مستمر وذهناً مفتوحاً.

وفي اثناء ذلك، قام المستشارون السوفيات، للاستخبارات المصرية، بتدبير مكيدة للتمويه على الاسرائيليين وفي شهر ايلول اخرجوها الى حيز التنفيذ، فقد اعتقدوا ان الاسرائيليين لن يتوقعوا منهم كشف اوراقهم بوضوح تام اذا كانوا يخططون للحرب فعلاً. ولهذا تعمدوا مضاعفة الصيحات الداعية للحرب. وكانت غايتهم من ذلك تعزيز احساس اسرائيل الكاذب بامنها.

ومن اجل تعزيز ذلك الاحساس بالأمن على نحو اكبر قام المصريون بتنسيق حملة من الهمسات موجهة الى الصحفيين الأجانب الذين كانوا يزورون القاهرة آنذاك وقيل لهؤلاء الصحفيين ان الجيش المصري عاجز عن القتال وعندما سمعوا تلك الاقوال تصدر عن مصادر موثوقة كما عرفوها سابقاً وقعوا في الفخ بسهولة بل ان الصحف المستقلة التفكير مثل صحيفة لوموند قد انطلى عليها الأمر ايضاً وكتب مراسلو تلك الصحف:

ان جنود السادات الشبان الاغرار ليسوا قادرين على استعمال اسلحتهم السوفياتية المتطورة أو التحكم فيها.

وساير قواد اسرائيل وهم الحذرون المتشككون في العادة هذا التيار. كانوا مقتنعين بأن الحرب لن تقوم ولم تكن الدعوة الى تعبئة اخرى بكل ما تستتبعه من اضطراب في نفوس جماهير المدنيين امراً غير ضروري فحسب بل كانت نذيرة بكارثة اقتصادية ايضاً.

اما في مقر قيادة الموساد فلم يكن تسفي زامير راضياً عن نفسه كل الرضى كما هو حال زملائه العسكريين، بل كان شديد القلق والانزعاج في واقع الأمر، وفي الاسبوع الثاني من أيلول تبدى جلياً له ان مصر وسوريا تخططان لشن حرب شاملة. وأكدت المعلومات التي تدفقت اليه من العملاء في جميع ارجاء اوروبا والشرق الاوسط صحة ذلك الأمر بالاجماع، وقال بعضهم ان

الحرب ستقع بعد عشرة ايام، وقال آخرون بوقوعها بعد اسبوعين ولكنهم كانوا متفقين جميعاً على شيء واحد وهو: ان الحرب واقعة لا محالة.

وقال احد ضباط الاتصال في الموساد: اننا نخوض الآن في غمار وادي الموت.

وقد تجلت هذه المعلومات المهمة للموساد لأنه كان يصغي الى ما يقوله عملاؤه، وكان هؤلاء العملاء قد قدموا اكداساً هائلة من الوثائق والرسائل المكتوبة بالشيفرة بصدد الصراع المؤذن بالوقوع.

وقدم العملاء تفصيلات دقيقة عن الكيفية التي ينوي بها المصريون والسوريون القيام بالهجوم، وأين ستقوم وحدات الكوماندوس بإنزال طائراتها الهليوكوبتر في سيناء، وأين ستوجه الطائرات المقاتلة ضرباتها.

وزاد عدد الرسائل التي تسلمها الموساد عن اربعمئة رسالة قدمت تفصيلات واسعة عما تنبأت به من انفجار اعمال العداء. اربعمائة رسالة تم نقلها الى السلطات العسكرية التي ضربت صفحاً عنها.

تبين الفرق بين اتجاهي فرعي الاستخبارات في ١٣ ايلول عندما ارسلت دورية طائرات اسرائيلية في رحلة استطلاعية الى ميناءي طرطوس واللاذقية في سوريا. وكانت هذه الدورية قد دعي اليها من جراء المعلومات المتواردة عن تزايد كميات الاسلحة الثقيلة التي ترد الى الميناءين يومياً.

وعندما اقتربت الطائرات من اهدافها اعترضها سرب من طائرات الميغ السورية وكان للطائرات الاسرائيلية غطاؤها الجوي على كل حال، وفي المعركة التي اعقبت ذلك تم اسقاط ١٣ طائرة من طائرات الميغ وفقدت طائرة اسرائيلية واحدة ولكن طيارها نجا بفضل طائرة الهيلوكوبتر التي انتشلته من البحر.

واقتصر امر النشوة التي اعقبت هذا الانتصار على تعزيز الشعور بالرضى عن النفس لدى مقر قيادة الجيش وفي تقرير لدائرة التقييم في استخبارات الجنرال زعيرا ورد ما يلي: ان السوريين يتحققون الآن اكثر من اي وقت مضى من انهم لن يكسبوا الحرب ضدنا. وغايتهم من النشاطات التي تشاهد في مرتفعات الجولان هي تحقيق ضربة انتقام محدودة وهذه هي العادة في حشد قواتهم هناك، اي القيام بضربة رمزية وذلك لضمان ان يكونوا قادرين على دحر قواتنا اذا هي ردت عليهم.

اما الصورة التي قدمها الموساد للأحداث فكانت مناقضة الصورة السابقة تماماً. فقد رأى

الموساد ان القتال الذي استمر بين الطائرات في سماء سوريا انما هو مقدمة للمعركة الحقيقية القادمة. وفي ذلك اعتمد الموساد على التقارير التي تواردت يومياً الى مكاتبه.

ومع ذلك لم تلق التحذيرات سوى الاعراض والاهمال فقد كانت ـ الفكرة ـ متأصلة لا تقبل النقاش.

وفي حين استمر تدفق التقارير الى مقر قيادة الموساد حث العسكريون الصحف على التزام الاعتدال في تقاريرهم. ولم يكونوا يريدون اثارة الفزع من الحرب في نفوس السكان المدنيين، وحتى وقت متأخر يمتد الى ٢ تشرين الاول بقي المحررون يتعاونون مع القادة العسكريين، وهو امر ترك في نفوسهم أسفاً مريراً ودائماً، وظلوا يخففون من حدة التقارير الواردة من الجبهة. . . وفي تلك الاثناء احس بعض الجنرالات بأنهم يسيرون في الطريق الخاطىء وحين تحدث زعيرا الى احدهم بأن بوسعه اعطاء إنذار مسبق قبل أي هجوم كبير ممكن بمدة ٤٨ ساعة اجاب احد كبار الضباط في هيئة الاركان العامة بدون مواربة: بصراحة اقول انني منزعج فلدي انطباع بأن الحرب وشيكة الوقوع وأنا احس بذلك في اعماق نفسي.

وفي واشنطن توصلت وكالة المخابرات المركزية الى الاستنتاج نفسه وفي ٤ تشرين الاول ـ أي قبل يومين من وقوع الغزو ـ ارسلت الوكالة تحذيراً الى الموساد يقول:

نعتقد ان العرب على وشك مهاجمتكم. . . وعندما نقل التقرير الى المخابرات العسكرية اجابت بما اعتادت من برودة اما نحن فلا نعتقد انهم سيهاجمون.

وكان الاميركيون ما يزالون متأثرين بقدرة الاستخبارات الاسرائيلية فحاولوا اقناع انفسهم بخطل رأيهم، وقال احد موظفي وكالة الاستخبارات المركزية : ان ذلك مصيرهم هم، ومن المفترض أنهم يعلمون فيم يتحدثون.

ومن المعلوم ان ثلاثة من موظفي وكالة الاستخبارات المركزية قد اعفوا من مناصبهم بعد الحرب.

وفي اثناء ذلك سافر رئيس الموساد تسفي زامير في مهمة سرية الى اوروبا ليحاول التحقق من الأمور بنفسه، وفي صباح ٦ تشرين الاول بعث ببرقية محمومة الى رئيسة الوزراء غولدا مئير تقول: ان الحرب ستبدأ اليوم. . . وكان الاوان قد فات.

فقد كانت ـ الفكرة ـ متأصلة الجذور في اذهان العسكريين حتى ان الجنرال زعيرا ذهب في ظهر ذلك اليوم ٥ تشرين الاول الى مؤتمر صحفي قصير في تل ابيب وهو مطمئن الى حقيقة ـ الفكرة ـ وعندما تكلم بهدوء وثقة بالنفس الى رجال الصحافة المحتشدين كرر قوله:

لن تقع الحرب.

وفي الساعة الثانية من بعد الظهر، دخل ضابط برتبة ميجر مهتاجاً الى غرفة المؤتمر الصحفي، ودفع ببرقية الى الجنرال زعيرا وعندما قرأها هذا، خرج من الغرفة دون ان ينبس ببنت شفة، ولم يعد مرة أخرى.

وادرك الصحفيون الحقيقة على الفور، وفي جميع ارجاء تل ابيب، اخذت صفارات الانذار ترسل صيحاتها وهرع رجال الصحافة عائدين الى مكاتبهم لاكتشاف حقيقة ما يجري وعلموا ان آخر مكان للحصول على المعلومات التي يمكن الحصول عليها هو جهاز الاستخبارات العسكرية.

ولو كان الجيش قد اصغى لما يقوله الموساد، لسعد هذا بالاعجاب الشامل في هذه الايام ولكنه طأطأ الهامة أمام عاصفة التأنيب الهائجة، ولا يكفي الموساد اعلانه بأنه بريء من الاتهام القائل بأن عدم كفايته قد ادى الى المخذال. وليس من طبيعة الموساد ايضاً ان يدافع عن نفسه علانية، ان رجال الموساد ونساءه ما يزالون متكتمين اليوم كما هو حالهم دائماً، وفي مئات الجهات في مختلف ارجاء العالم، يقوم هؤلاء بعملهم في هدوء، ليزودوا اسرائيل بأثمن اسلحتها ألا وهو: سلاح المعرفة.

البـــاب الثـالـــث عشـــر

جاســـوس فـــي النــــاووس

في مساء تشرين الثاني ١٩٦٤، في المدرج رقم ٦ بمطار فيوميسينو في روما، كانت طائفة من رجال الجمارك تشرف على اقلاع طائرة نفاثة للركاب تابعة لشركة الخطوط الجوية العربية المتحدة الى القاهرة والتجأ هؤلاء الرجال الى جناح الطائرة ليقوا انفسهم من الرذاذ الذي كان يتساقط آنذاك، وكانوا يحاولون تدفئة انفسهم بضرب الارض بأقدامهم والنفخ في راحات ايديهم المقعرة.

واخذ صبرهم ينفد فقد تأجل اقلاع الطائرة ساعتين من قبل.

وفجأة لاحت شاحنة مقفلة تابعة لشركة الطيران مسرعة صوبهم فوق المدرج، وزعقت فراملها تحت جناح الطائرة الآخر حيث توقفت، وقفز من مقعدها الامامي رجلان، توجها الى البابين الخلفيين ففتحاهما واخذا ينزلان صندوقاً معدنياً من العربة، وكان هذا الصندوق مختوماً بالكلمات « متاع دبلوماسي » باللغات العربية والانكليزية والفرنسية ومن الواضح ان الصندوق كان ثقيل الوزن فقد طلب احد المصريين اللذين كانا يجاهدان لتحريكه،طلب من رجال الجمارك مد يد العون له وقال ـ هلموا من فضلكم، فنحن نريد ان تقلع الطائرة بأسرع وقت ممكن.

ـ واحذروا، ألّا يسقط الصندوق على الأرض.

واستدار الرجل الى زميله وقال له بالعربية:

ينبغي ارساله الى عنبر الحيوانات.

ولم يعرف المصريان ان احد الموظفين الايطاليين كان يتكلم العربية بطلاقة، ولم يبح هذا الايطالي بذلك ولكن عبارة ذلك الرجل اثارت شكوكه بطبيعة الحال، فلماذا ينبغي ارسال صندوق له ذلك الحجم موسوم بانه ـ متاع دبلوماسي ـ الى عنبر الحيوانات؟ وإنما يتم ارساله في العادة الى حجرة الامتعة العادية.

وبينما واصل المصريان جهادهما في تحريك ذلك الصندوق المرهق دلف رجل الجمارك الذي

يتكلم العربية نحوهما، في غير كثير اهتمام وكان الصندوق مميزاً بوضوح بالكلمات التالية: وزير الخارجية، القاهرة، ملك سفير الجمهورية العربية في روما- ويعني هذا ان ليس لرجال الجمارك الحق في تفتيشه إلا في حضور السفير أو من يمثله.

ومن جهة اخرى، حدد ميثاق فيينا الذي وضع قواعد حصانة الامتعة الدبلوماسية من التفتيش حدد ايضاً ان مثل هذه الامتعة لا ينبغي ان تشتمل على غير الوثائق الرسمية، او ما يستخدم في اعمال السفارة فحسب. وبدا من غير المحتمل ان يستخدم صندوق يزيد طوله عن ثلاث اقدام لنقل الوثائق. وعندئذٍ سأل رجل الجمارك في لطف تام، احد المصريين عن محتويات الصندوق.

وكانت الاجابة القصيرة هي آلات موسيقية، يرسلها السفير الى القاهرة.

وعاد المصري الى التكلم بالعربية فصاح بالميكانيكيين الذين على الأرض:

هيا ارفعوا هذه اللعنة على الطائرة.

وبدا المصريون منزعجين وكان المطر قد توقف عن السقوط، وتمكن رجال الجمارك من رؤية حبات العرق تتلألأ على جبين كل منهم، وخطا رجل الجمارك الذي يتكلم العربية مقترباً من الصندوق وعندئذٍ، نحاه احد المصريين بعيداً وهو يصيح به.

هذا متاع دبلوماسي، وليس لك به شأن.

ولكن رجل الجمارك اصر على الاعتراض بأدب، فقد خيل اليه انه سمع صوتاً غريباً صادراً من الصندوق، ولو كان فيه كمان أو اوبو او غيرهما من الآلات الموسيقية لكانت آلات موسيقية غير مألوفة حقاً. وهنا وضع الرجل يده في حزم على الصندوق الذي كان يميل متقلقلاً ونصفه خارج من الشاحنة، واوقف الرجل المصريين اللذين كانا يحاولان رفعه مستميتين.

ووضع رجل الجمارك اذنه على الصندوق مباشرة، كانت الأصوات مميزة لا ريب فيها، فقد كان شخصاً ما يصيح مستغيثاً بالانكليزية ثم بالايطالية، واخيراً بالفرنسية: النجدة، النجدة، قتلة... وقف رجل الجمارك منتصب القامة وقال:

لن يسمح للطائرة بالسفر ما لم نفحص هذا الصندوق جيداً.

ثم انضم الرجل الى رفاقه الذين كانوا يقفون على بعد ما منه، وقال متندراً:

ان لديهم علبة موسيقية غريبة تتكلم هناك.

وما كاد الرجل يبلغ عما اكتشف، حتى انقض احد موظفي شركة الطيران المصرية فجأة

فدفع الصندوق الى حيث كان من العربة، واندفع السائق مسرعاً الى مقدمتها، ووثب فجلس وراء عجلة القيادة، واندفع بالعربة صوب اقرب مخرج من مخارج المطار.

وعمل رجال الجمارك بسرعة فقبضوا على المصري الثاني عندما حاول الفرار، وألقوا به على الأرض ووثب ايطاليان آخران في داخل سيارة ـ الفا روميو ـ حمراء صادف ان كانت تقف بمقربة منهم ومضيا يسابقان الريح لمطاردة الشاحنة الآبقة.

ولم تكن المنافسة متكافئة، فقد لحقت الالفا روميو السريعة بالعربة الاخرى في مدخل الطريق الرئيسي الذي يصل روما بالمطار واجبرتها على الوقوف، وقام الموظفان الايطاليان باعتقال المصري ومضوا به لينضم الى زميله في قسم بوليس اوستيا القريب. وفي الوقت الذي كان فيه احد الموظفين يسوق مستخدم شركة الطيران المصفد في السيارة الرياضية الصغيرة، كان الآخر تقله الشاحنة الى اوستيا والشحنة الغريبة ما تزال في مؤخرتها.

وعندما بلغ الايطاليون اوستيا، حملوا الصندوق الى داخل مركز البوليس، واخذوا يزيلون الاختام الدبلوماسية عنه، وكانوا يريدون اكتشاف من الذي يصيح، او ما الذي يصيح مستغيثاً، وتجاهلوا احتجاجات المصريين، ففتحوا الصندوق وباعدوا غطاءه عنه، وعندما رأوا ما فيه اتسعت عيونهم لفرط الدهشة.

وكان بداخل الصندوق رجل يغالب الدوار، ضغط جسمه في وضع المتأهب للانبساط وكانت ركبتاه تلامسان وجهه، وقد شد وثاق يديه من وراء ظهره وحشيت قدماه العاريتان في خف شرقي اصفر لماع احكم تثبيته في قاعدة الصندوق، وقد ربط ذلك الرجل الى كرسي، لا ظهر له، يؤلف جزءاً مكملاً للصندوق.

وعندما دنا الضباط من الصندوق المفتوح كثيراً، ردتهم على اعقابهم الرائحة المنفرة التي اختلط فيها فضلات آدمي بروائح العرق والكلوروفورم، واضطر هؤلاء الى اتخاذ الاقنعة قبل ان يتمكنوا من توطين انفسهم على تحرير ذلك الاسير، الذي كانوا قد اطلقوا عليه لقب مومياء الناووس.

اما السجين الذي لم يكن على بدنه سوى قميص وسروال ـ تحتيين ـ فلم يكن يقوى على الوقوف من فرط التصلب والارهاق، وتم نقله لتلقي العناية الطبية على الفور.

وفي اثناء ذلك اجرى احد ضباط البوليس فحصاً دقيقاً للصندوق الذي بدا من الواضح انه قد استعمل سجناً متنقلاً من قبل، وكانت التوصيلات الجدارية الداخلية التي شد اليها الأسير تظهر دلائل كثيرة الاستعمال، واكتشف الضباط ايضاً خوذة متحركة في وسعها الانزلاق على رأس

الضحية، وشاهدوا كيف خيطت وسائد لحماية العمود الفقري لنزيل هذا الصندوق وكانت في الوسائد بقع عميقة من عرق جاف قديم العهد.

وقال رجال البوليس في التقرير الذي كتبوه عن الضحية التي وجدوها بداخل الصندوق:

ليس الرجل الآن في حالة جيدة جداً، ومن الواضح انه ما يزال متأثراً بالعقاقير، وقد تقيأ عدة مرات ولكن الاطباء يعتنون به، وهم يقولون انه لا يعاني من خطر كبير في حدوث عاهة دائمة له، وفي البدء كان محموماً ولكنه لم يفقد رشده تماماً، فقد جاهد باسنانه في زحزحة الصمام الذي سدوا به فمه، واستطاع بذلك ان يصيح في طلب النجدة.

هذا كل ما نعرفه عنه الآن.

وعندما استرد المومياء قواه بما يكفي، جرى استجوابه في مركز البوليس المحلي أولاً، ثم في القيادة بروما، ولكن الحكاية التي رواها لم تفلح في بعث الكثير من الثقة بصدق روايته.

وادعى الرجل ان اسمه يوسف دهان- وانه من مواليد المغرب في عام ١٩٣٤، ولكنه اصبح مواطناً اسرائيلياً يحمل الجنسية الاسرائيلية الآن وكان في جيبه جواز سفر مغربي صادر من دمشق عام ١٩٦١.

وقد كان هذا القدر من رواية الرجل معقولاً تماماً، ولكن ما اعقبه اثار الريب في نفوس الايطاليين، قال دهان:

وصلت الى روما قبل ايام قلائل، وذهبت الى مقهى باريس في شارع فيافينيتو وهو شارع يقع في مركز المدينة.

وعندما قال دهان ذلك بجدية، اجابوه باهتمام:

- اجل نحن على علم بذلك.

- على كل حال، اتصل بي بعض موظفي السفارة المصرية الذين عرفوني، وقالوا لي انهم عرفوني في الأيام التي قضيتها وانا اترجم معهم وقد ابدوا لطفاً جماً، وقدموا لي الكثير من الشراب واخيراً ثملت لفرط ما شربت: وفجأة، هناك في شارع- فيافينيتو- وبين جميع نجوم الافلام وشخصيات المجتمع، مسك المصريون بي وزجوا بي في سيارة كبيرة، ولم يهب احد لمساعدتي.

وانطلق المصريون في السيارة التي تقلني بسرعة البرق، واخذوني الى بيت كبير في ضواحي المدينة، ولا ادري اين يقع، واسقوني ذلك السائل الذي قالوا انه شاي، وكان مذاقه كريهاً، لا اعتقد انه شاي، وبعدئذٍ حقنوني ثلاث مرات.

اما الشيء التالي الذي اذكره فهو اني وجدت نفسي في ذلك النعش ، وانا مشدود الوثاق كمومياء مصرية ، كنت في سيارة وكانت السيارة متحركة ، وقد تمكنت من اخراج الصمام الذي سد فمي ، وظللت أصيح في طلب النجدة واخيراً عثرتم علي .

وقال الاطباء ان دهان سعيد الحظ ، فقد كان المقصود ـ شحنه ـ وهو غائب عن الوعي ، ولو لم يستيقظ لنجحت الخطة ، وأصبح الآن في القاهرة .

ولم يخف على المحققين ، على كل حال ، ان الرجل كان يفتري الاكاذيب ، او انه تستر على جانب من الحقيقة فيما رواه .

وسأله احد مستجوبيه :

لماذا تكبدوا كل هذا العناء لاختطافك؟ .

واجاب دهان :

في وسعي الحدس فقط ، ولعلهم اعتقدوا اني عرفت كثيراً من اسرارهم العسكرية ، عندما كنت مترجماً لديهم ، ولا بد من انهم تحسبوا من امكان نقلي تلك المعلومات الى اعدائهم .

وبينما كان ـ المومياء ـ يتابع حديثه ، بدا انه يشحذ خياله لافتراء اوهام جديدة . وقال دهان :

لقد عرفت كل شيء عن منظمة استخباراتهم السرية في اوروبا ، وكيف كانوا يديرون اعمالهم في كل عاصمة وعاصمة وقد قرروا ان يأخذوني الى مصر ليخرسونني ، كانوا يريدون القضاء علي .

وبقي الايطاليون بغير اقتناع ، فحاولوا ان يسبروا غور الأمر اكثر مما فعلوا ، وكان قد تبين لهم من الفحص الطبي بدون معرفة الاسير ، ان شعره قد تم صبغه بمهارة ، فاصبح اشقر اللون بعد ان كان اسود ، وماذا عسى ان يكون الاسير قد فعل غير ذلك من اجل اخفاء ماضيه؟ .

وسأله احد الشرطة :

كيف امكن لمترجم بسيط مثلك ان يعرف كل تلك الاسرار؟ .

واجاب دهان :

سؤال جيد ، والحق انني لا اعرف الاجابة عنه .

وكان من الواضح الجلي ، ان دهان يراوغ ويضلل مستجوبيه ، وتزايدت خيبتهم منه ، وقد صرح لهم ذات مرة ، بأنه جاء الى روما من فرانكفورت ، ولكنه عاد وأصرّ بعد عشر دقائق بأنه قام

بالرحلة من نابولي، وكانت الغاية من رحلته جمع بعض الأموال المستحقة له، ولكنه لم يستطع ان يتذكر اسم الشخص الذي استدان منه المال!

وفي خارج المعتقل اثار دهان جدلاً وارتباكاً اكبر.

وانكرت سفارتا المغرب واسرائيل ان يكون لهما أي علم بهذا الشخص، وقالتا انه لم يكن مواطناً في أي من البلدين في يوم من الأيام.

وفي اثناء ذلك اخذت الجرائد تنشر اغرب القصص عن «الرجل الذي في الصندوق» وتسابق كتاب مقالاتها في كتابة العناوين المثيرة، فقد كان ـ المومياء ـ عميلاً مزدوجاً، ثم اصبح من بعد عميلاً ثلاثياً، يعمل لمصلحة المغرب او مصر او اسرائيل او الولايات المتحدة، وفقاً للرواية التي يؤمن المرء بها.

اما الدبلوماسيان المصريان اللذان نقلا الصندوق الى مطار فيوميسينو وقالت الصحف انهما: سليم عثمان والنجلاوي فقد تم طردهما من ايطاليا. وضاق السفير المصري ذرعاً بالاتهامات التي كيلت له فصرح بقوله:

«ان الصندوق الذي في ايدي الشرطة الآن، ليس صندوقنا، ولم نره من قبل، وإنما الصقه الايطاليون في المطار بموظفينا الدبلوماسيين الكبيرين».

« كان صندوقنا يحتوي على مواد لا ضرر فيها ، وقد وضعت السلطات الايطالية الجاسوس الاسرائيلي الخطر يوسف دهان في ـ شبه التابوت ـ لأسبابها الغامضة الخاصة » .

وكان في ادعاءات السفير شيء من التجاوز حتى بالنسبة الى الاستخبارات الايطالية المضادة ، التي كانت آنذاك تتقبل كل ما يقال عن يوسف دهان الغامض ، حتى لو كان ذلك غير معقول ، واستدعى الكونت غيرينو روبرتو ، رئيس التشريفات ، السفير المصري الى وزارة الخارجية ووجه اليه نقداً قاسياً ، لإذاعة تلك الصورة الزائفة عن الحادث .

وفي اثناء ذلك، لم يكن لدى الاستخبارات المضادة، الكثير مما تتحدث به عن الرجل المعتقل وكل ما ابلغت الصحف به هو:

الحقيقة الوحيدة المؤكدة عن يوسف دهان هي انه ليس يوسف دهان!

وانتهت قصة دهان الى الصحافة العالمية، وسرعان ما اخذت صوره الفوتوغرافية تظهر في مختلف الجرائد والمجلات في كافة ارجاء العالم. وعلى الفور تقريباً، سمع الناس صوت امرأة غامضة تدعى ـ نوريت لوك ـ المقيمة في ـ بتاح تكفا ـ غير بعيد من تل ابيب، وهي من مواليد العراق وتعيش في اسرائيل الآن وكانت هذه المرأة تعرف شيئاً ما عن السيد دهان الغامض.

فقد كانت نوريت هي زوجته.

وقالت نوريت للصحفي الذي زارها وهي غاضبة:

ليس ذلك الشخص يوسف دهان، وإنما هو زوجي مردخاي لوك، وبيني وبينه حساب، فقد هجرنا، وأنا لا أقوى على تربية الاطفال، الذين انجبتهم منه بدون مساندته واهم من ذلك انه ليس بطلاً، فيما ارى، ولا هو من الجواسيس كذلك.

وابدت نوريت ضبط نفس يثير الاعجاب، فرفضت الخوض في تفصيلات حياتها الخاصة، خلا ما روته من ان موردخاي كان في اثناء اقامته بالبلاد، يفضل ترك البيت، والذهاب للرقص والشراب، واضاعة وقته عموماً، بدلاً من ممارسة عمل محترم كسائر الناس.

وقاطعتها امها قائلة:

كان عاطلاً بطالاً لا يصلح لشيء.

وفي ايطاليا تبين للبوليس، في اثناء ذلك ان نوريت لوك خليقة بالشكوى، فقد جاءت اربع نسوة من نابولي، وادعين جميعاً انهن خطيبات لوك، وكانت احداهن المانية عرف عنها اختلاطها بالضباط في احدى قواعد حلف الاطلسي هناك، وكانت امرأة اخرى سكرتيرة من نابولي تبلغ الثانية والثلاثين من العمر، وقالت هذه انها مستعدة لانفاق بعض ما ادخرت من المال لاستئجار محام يساعد دهان في محنته القانونية، ومن الواضح انها قد غفرت له تغاضيه عن اعلامها بانه كان متزوجاً من قبل.

ولكن لوك رفض جميع المساعدات القانونية، ورفض ايضاً استقبال الزائرين- ولا سيما- خطيباته-.

وفي الغرفة التي كان يقيم بها لوك، في الفندق بنابولي اكتشف البوليس حقيبة ملأى بالملابس الثمينة، وكان مما اثار حيرتهم ايضاً خاتم عليه صورة تنين نقشت في حجر للزينة، وتبين بعد الفحص الدقيق ان في الخاتم فراغاً سرياً يمكن ان يخبأ فيه الميكروفيلم.

وقررت الصحف عندئذٍ ان موردخاي لوك جاسوس كامل، بالرغم من اختلافها في الجهة التي يعمل لصالحها، وعلى كل حال، بدا ان القراء الايطاليين اكثر اهتماماً بمغامرات كازانوفا العصري هذا، من نشاطاته في اعمال التجسس.

لم تعد قصة موردخاي لوك سراً من الأسرار لدى قيادة الاستخبارات المضادة الايطالية فقد تعاون معها الموساد تعاوناً تاماً منذ وقت ما، وان لم تعلن هي عن ذلك.

وكان الموساد يعلم كل شيء عن موردخاي لوك، فقـد التحق هذا بالجيش الاسرائيلي بعد

هجرته من المغرب الاسباني الى البلاد في عام ١٩٤٩، وعمل في النجارة، ولكنه بدا اكثر اهتماماً بغيرها من المهن، وقد سجن ذات مرة لمحاولة سلب مسلح، وحكم عليه بالسجن ثلاث مرات لجرائم اقل شأناً.

وكانت متاعب لوك لا تعرف الانتهاء، فقد كان اذا انتهت مشكلاته مع الشرطة، بقيت مشكلاته مع مدينيه، واذا فرغ من مشكلاته مع عائلة زوجته بقيت مشكلاته مع هذه العشيقة او تلك من عشيقاته العديدات. وفي عام ١٩٦١ قرر لوك انه قد شبع من اسرائيل وروي، وبينما كان يقوم في وحدته في الجيش باحدى المناورات في منطقة غزة، تسلل الى الحدود المصرية، وسلم نفسه لضباط الجيش المصري، وطلب حق اللجوء السياسي، وبذلك اضيفت جريمة الفرار الى جرائمه الاخرى.

والقى المصريون القبض عليه في الحال وزجوا به في السجن فبقدر ما يهمهم الأمر، يحتمل أن يكون جاسوساً من الجواسيس الاسرائيليين.

وفي السجن قابل لوك بعض الاسرائيليين الآخرين، وكان من هؤلاء من اقترفوا جرائم صغيرة مثله، ممن قرروا ان يجربوا حظهم في مصر. وبعضهم كانوا قوادين اعتقدوا انهم سيحققون في القاهرة نجاحاً أكثر من تل ابيب وقد مني جميعهم تقريباً بخيبة أمل شديدة من جراء معاملة سجانيهم لهم. وحاول لوك ان يقوي عزائمهم باظهار المرح في الحديث وغناء الأغاني الاسرائيلية، واخذ على نفسه ان يصبح زعيماً غير رسمي لجماعة الاسرائيليين، وبذل جهوداً كبيرة لرفع معنويات ابناء بلده في بيئتهم القاسية تلك.

اما لوك نفسه فكان ميالاً الى الكآبة، وقد تحدث احد الاسرائيليين الذين اطلقوا من السجن وسمح لهم بالعودة الى اسرائيل، من بعد فقال:

اصبح لوك مكتئباً لوجوده في السجن، وحاول مرة ان ينتحر بقطع شرايينه بقطعة حديد دأب على شحذها عدة أيام، ولكنه تم انقاذه في الوقت المناسب، وبقي في مستشفى السجن اسبوعاً من الزمان.

ثم حاول ان يقتل نفسه مرة اخرى بأن يقفز من النافذة وفيما بعد، حاول ان يقطع شرايينه مرة اخرى، وفي هذه المرة بقي في المستشفى شهراً كاملاً، لقد كان لوك لا يتراجع اذا صمم على شيء.

واقتنع رجال الاستخبارات المصرية بأن في وسعهم الانتفاع من لوك بعدما سمعوا عما يتصف به من التصميم، فقد كان لوك وسيماً، ذكياً، يتكلم عدة لغات، يهودياً الى جانب ذلك

كله، وقام رجال الاستخبارات باتصالات حذرة معه، وسألوه ان كان يود القيام بعمل ما من اجلهم.

وكان لوك رجلاً نشيطاً يحب اللهو، وكانت حياة السجن المنهكة، تدفع به الى الجنون وعندما سنحت الفرصة له بأن يصبح جاسوساً، وافق ذلك هوى في نفسه في الحال، وقبل ذلك العرض.

وفي الأشهر الستة التالية، عرف لوك سلسلة من الاختبارات، وبرامج التدريب في فنون التجسس، وطلب منه للبرهنة على اخلاصه، ان يقوم بنشرات دعاية في القسم العبري من اذاعة القاهرة، وعلمه مدربوه التصوير، وبعد ان اكمل تدريبه ارسلته الاستخبارات المصرية الى اوروبا ليعمل لصالحها في جمع المعلومات عن نشاطات اسرائيل السياسية والعسكرية ولكن طبيعته الميالة الى اللهو والملذات كانت تبعده عن القيام بواجبه الذي ارسل من اجله.

فانغمس في المشروب ومعاشرة المومسات من كل الجنسيات وقام بخطبة عدة نساء بحجة انه سيتزوجهن وبالطبع لم يرق هذا لرؤسائه المصريين فاستدعاه المسؤول المباشر عنه وقال له:

في وسعك ان تقضي وقتاً اقل قليلاً مع عشيقاتك ووقتاً اطول في المهمة التي دربت للقيام بها واذا لم تضاعف جهودك فإننا سنقطع مرتبك.

وليس من الواضح حقيقة السبب الذي حدا بالسيد الى هذا التشدد، ولعله كان يعتقد ان لوك سيفزع فيشرع في الكد والاجتهاد ، او انه كان يخادع لوك فحسب.

ترى احدى النظريات التي يؤمن بها الموساد ان المصريين لم تكن لديهم ادنى نية في ترك لوك يبارح ذلك الملتقى في شارع فيا فينيتو ووفقاً لهذه النظرية اشتبه المصريون من قبل ان عميلهم الاسرائيلي يعمل سراً لصالح الموساد.

بيد ان لوك، مهما كان واقع الحال، لم يبد تعاوناً اكثر مما ابداه سابقاً، وعندئذٍ أصدر المسؤول الاشارة المتفق عليها فانقض رجاله لجر لوك الفزع الى سيارتهم، وكان لوك عندئذٍ ثملاً جداً، فلم تحضره استجابة سريعة لذلك الموقف، وقبل ان يدرك شيئا مما يحدث، وضع في المقعد الخلفي من سيارة كانت معدة للسير نحو السفارة المصرية، وهناك تم حقن لوك بالعقاقير ووضعه في الناووس الذي وجده رجال الجمارك الايطاليون في داخله.

وكان عملاء الموساد، يراقبون ذلك كله: الاجتماع وما اعقبه من اختطاف لوك الى السفارة وبعد تشاور عاجل مع قيادة الموساد في اسرائيل قرر العملاء انقاذ حياة لوك من الموت، وهو المصير المحتوم الذي ينتظره في مصر، فاعلموا الاستخبارات المضادة الايطالية بما وقع، وعمل الطرفان

معاً في مراقبة السفارة، وأبلغ موظفو المطار بأن من المحتمل ان يقوم المصريون بتهريب رجل الى خارج روما، ووضع رجال الجمارك على اهبة الاستعداد.

وكذلك، لم يكن من قبيل المصادفة، ما قام به موظفو المطار الايطاليون من مراقبة دقيقة للمصريين عندما فعلوا فعلتهم بعد يومين، ولم يكن من قبيل المصادفة ايضاً وقوف سيارة الفاروميو بمقربة وهي جاهزة للقيام بالمطاردة اذا اقتضى الأمر.

بيد ان الفضل يعود للايطاليين في استجابتهم السريعة عند رؤية الصندوق الذي يثير الريبة، فحتى تلك اللحظة لم تكن لديهم ادنى فكرة عن وجوده، وان كان من الواضح انه قد استعمل لتهريب الناس عدة مرات قبل ذلك.

وتدخلت الاستخبارات المضادة الايطالية، بهدوء وحكمة لدى البوليس وأوضحت ان لوك خلو من اية مسؤولية قانونية، وعندما تحقق لوك من انهم قد علموا كنه امره، قدم طلباً لمقابلة القنصل الاسرائيلي، فقد اراد ان يعترف بكل شيء، وأن يبدأ بداية نظيفة، ولم يكن يخادع نفسه فيما يواجهه اذا رجع الى اسرائيل من محاكمة وسجن محتوم، ناهيك عن سخط عائلته.

وقال لوك متسائلاً :

اسمحوا لي بالعودة فسوف يقضى علي اذا ذهبت الى اي بلد آخر انني اعرف حق المعرفة الاستخبارات المصرية وطرقها.

وقد حظي التماس لوك بالموافقة، وفي اليوم التالي، كان يرتدي بذلة زرقاء اللون وربطة عنق حمراء، ونظارتين شمسيتين داكنتين، في طريقه الى المطار، بيد انه لم يكن منقولاً في صندوق هذه المرة، وانما كان يجلس في سيارة مريحة آمنة من سيارات الشرطة.

وبقي لوك محتفظاً برباطة جأشه، بالرغم من التجارب المريرة التي بلاها في الاسابيع السابقة، وعندما وصل الى المطار في روما طلب الاجتماع برجال الصحافة وقال:

اود ان اشكر للشرطة انقاذ حياتي وان اقدم اعتذاري لبلدي وزوجتي واطفالي عن سلوكي الرديء وانا مستعد للتعويض عما اقترفت من جرائم، ثم إنني أود أن أبدأ حياتي مجدداً مع عائلتي اذا هي صفحت عني.

انني نجار ومن الآن فصاعداً ستكون النجارة هي المهنة الوحيدة التي اعتزم ممارستها.

وكذلك طار لوك في ٤ تشرين الثاني عائداً الى اسرائيل في مقعد من مقاعد الدرجة الاولى على متن طائرة نفاثة من طائرات العال وتمت محاكمته بعد وقت قصير من ذلك، دار بعض مجرياتها

سراً. وقد فصل الادعاء القول في كيف تعقبه رجال الموساد في طول اوروبا وعرضها وهو يقوم بمغامرات التجسس هناك.

وحكم على لوك بالسجن مدة ١٣ عاماً وعندما اطلق سراحه وفى بوعده الذي قطعه على نفسه في المطار باصلاح سلوكه.

وهو يعيش الآن مع زوجته واطفاله، ويعمل بصفة نجار وقد انتهت ايام تجسسه الى غير رجعة.

الفهـــــرس

صفحة



يسر أسرة سلسلة « أعرف عدوك » المنبثقة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت ودار الجليل للنشر في عمان ان تضع بين يدي القارىء العربي كتابها الأول : الموساد - (جهاز المخابرات الاسرائيلية السرية) - لمؤلفيه : دينيس ايزنبرغ ، ايلي لاندو ، واوري دان .

يعتبر هذا الكتاب أول كتاب من نوعه يتحدث عن العمل السري الإسرائيلي من البداية ، أي قبل سنة ١٩٤٨ ، وما بعدها ، وهو بمثابة وثيقة هامة لدراسة العقلية الإسرائيلية وتفكيرها .

ونحن اذ نقدم للقراء العرب هذه الترجمة الأمينة ، فإننا نفعل ذلك من خلال واجبنا القومي لتوعية المواطنين العرب وتزويدهم بالمعلومات والوثائق ، لمواجهة التحدّي الإعلامي الصهيوني ، كما أننا في الوقت ذاته ننبه إلى أن هذا الكتاب لا يعبر إلا عن وجهة النظر الصهيونية ، ولذلك نترك لذكاء القارىء التمييز بين السم والدسم .

المؤسّسة العربيّة
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً "موكيالي" بيروت - ص.ب : ١١/٥٤٦٠ بيروت

الثمن ١٤ ل.ل